موريس بيرمان

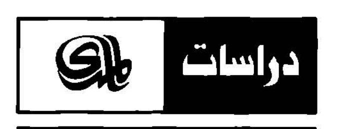
انحطاط الحضارة الأمريكية





ترجمة: حسين الشوفي

انحطاط الحضارة الأمريكية



Author: Morris Berman	اسـم المـؤلـف : موريس بيرمان
Title: The Twilight of American Culture	عنوان الكتـاب : انحطاط الحضارة الأمريكية
Translator: Hussein Alshoofi	المتـــــرجم : حسين الشوفي
Al- Mada P.C.	النـاشــــر : المدى
First Edition : 2010	الطبـعـة الأولى : ٢٠١٠

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

موريس بيرمان

انحطاط الحضارة الأمريكية

ترجمة: حسين الشوفي



مقدمة
الأزمة الأمريكية

لقد أصبحت أمريكا مستودعاً لعصابة متحدة
(مجهول)

أعتقد أن من البديهي القول إن الكاتب يكتب لنفسه بقدر ما يكتب لقرائه. وبالنسبة لي ـ وأنا أزعم أن هذا صحيح بالنسبة لكثير من الكتاب ـ أجد أن عملية البحث والكتابة هي طريقة للعمل من خلال معضلات صعبة الحل، ومن خلال فهمنا لمسائل مثل أين كانت حضارتنا وإلى أين تتجه؟ وهذه المعضلات ليست مشكلاتٍ فكريةً مميَّزةً أستطيع أن أستكشفها دون تحيّز. لأنها لو كانت كذلك فيحتمل ألا أهتم بها. إنها معضلاتٌ أشعر أنني في وسطها لأنني جزء من الحضارة التي أصفها. وهكذا فإن الكتابة قد تصبح تنصلاً من محاولة إيجاد الحلول لمشاكل معينة.

إن الحضارة الأمريكية في ورطة يشعر بها ويحسها ملايين الأمريكيين مع إطلالة القرن الواحد والعشرين. وبعض المئات منهم يكتبون الكتب والمقالات عنها، موثقين اتجاهاتها ومحللين أسبابها.

ومؤلفاتٌ مثل "انتظار البرابرة" للويس لابهام أو "إمبراطورية قفر" لروبرت كابلان، تملأ رفوف المكتبات، وتجد نصوصٌ كثيرة من هذه المؤلفات والمقالات طريقها إلى بعض أفضل مجلاتنا القومية. والجدير بالذكر أن ما تطرحه من مسائل ليس خطأً. فما تقدمه من توثيق للأنظمة المدرسية المتهاوية، والأمية الوظيفية المنتشرة على نطاق واسع، وجرائم العنف، وعدم المساواة الاقتصادية الصارخة، واللامبالاة، وما يسمى "بالموت الروحي" يقطع الأنفاس. إن الأمر لا يحتاج لـ "إمرسون" أو "اينشتاين" لإدراك أن النظام الرأسمالي فقد مرساته وهو يجنح بشكل متزايد نحو حالة اختلال وظيفية مثل روما القديمة.

وما يزال لدينا ثقافياً وعلى مستوى الأفراد العديد من الطرق لإخفاء هذه الحقيقة عن أنفسنا. فهناك الكثير من المسكِّنات حولنا، مثل الدمى والألعاب الإلكترونية الجديدة التي تندفع نحونا باستمرار وثبات، ووسائل الإعلام البارعة التي تغرق البلد بالمشاهد التي تجعل عقولنا باستمرار مركزةً على الأمور السخيفة والمثيرة مثل محاكمة أو.جي. سمبسون، وموت الأميرة ديانا، وحياة بيل كلنتون الجنسية، ومعلومات التسلية على طريقة السي.ان.ان.

لكن المسألة أعمق من هذا بكثير، ومهما بدا هذا متناقضا، فإن انحطاط حضارتنا هو حيويتها. وقوة أمريكا واضحة للعيان، وهي أول شيء يلاحظه زوار هذا البلد وغالبا ما يعجبون بهذه القوة. يلاحظ الزائر دائما انشغالاً ما في الجو العام : فيلمٌ جديد أو فضيحة جديدة أو فكرة جديدة يتجاذبها الناس لعدة أيام، وطبعا يلاحظ تقلبات سوق المال التي لا تتوقف أبدا.

كيف نتكلم عن انحطاط الحضارة الأمريكية بينما نسمع تأكيد الرئيس كلنتون في خطاب حالة الاتحاد في ١٩٩٩ أن الاقتصاد الأمريكي هو أقوى اقتصاد في العالم منذ ثلاثين سنة، وأن البطالة منخفضة وأن ازدهارنا واضح. ولكن الذي لم يخبرنا به الرئيس كلنتون هو أن هذه المعلومات التي قدمها لنا والتي بذل كثيرٌمن المحللين جهدا كبيرا في توثيقها هي معلومات مضللة، وهذا التضليل مقصود.

يتمتع بهذا الازدهار والرخاء المشار إليهما الأغنياء فقط، بينما الواقع مختلفٌ كثيراً بالنسبة لمعظم الأمريكيين، وأغلب مبادرات الرئيس باتجاه المساواة الاقتصادية ليست إلا براعات علاقات عامة قيّمة في مظهرها لكنها فارغة المحتوى. والحقيقة هي أن الهوة بين الأغنياء والفقراء اتسعت في عهد كلنتون ليس أقل من اتساعها في عهد ريغن وبوش، وأخذت الطبقة الوسطى بالاضمحلال تدريجيا حتى أصبحت في وضع خطر.

آمل أن أبين في الصفحات القادمة أن ما نتبجح به عن القوة الأمريكية ليس واقعيا أبدا. لا يكفي أن نقول أن نشاطاتنا تغطي مختلف مناحي الحياة، ولكن يجب أن نقول إننا نقوم بأداء انحطاط حضاري عميق كما وصف في كتاب أوزولد سبنغلر من ١٩١٨- ١٩٢٢ "انحطاط الغرب". كل حضارة لها مرحلة أفول تتحجر في فترة كلاسيكية محتفظة بالشكل فقط ولكنها تفقد محتواها أو روحها الأساسية. هذا ما حصل للحضارات المصرية والبيزنطية والماندرينية. وقد سميّت هذه الفترة في الحضارة الأمريكية "حضارة الاستهلاك" أو "الشركة التجارية الاستهلاكية المتحدة" كما سماها العالم السياسي

بنجامين باربر. وإذا تفحصت أي إعلان تلفزيوني لشركة نايك أو بيبسي ستجد أن هذه الشركة فيها حيوية كبيرة جدا. المشكلة هي أن هذه الشركة أو تلك هي نفسها الانحطاط الحضاري الذي أتكلم عنه.

إن الولايات المتحدة كما يقول روبرت كابلان ستصبح "أقلية مختلطة " عليها زينة الديمقراطية ولكنها ليست ديمقراطية أبدا. ويقول الناقد الاجتماعي روبرت فرانك: "على الرغم من عالمية طريقة الحياة الأمريكية وتألقها، إلا أنها لم تكن في أي وقت مضى أكثر من النتاج المباشر لخيال الشركة المتحدة". ويقول في مقالته "عصر مظلم" إن وقوع كل فرد منا في العناق الحار للشركات المتعددة الجنسيات والتي تمارس علينا احتكار القلة هو قمة انتصار قوى السوق على ضمير الإنسانية الصعب المراس. وسوف لن نتمكن من الابتعاد عن ثقافة الشركات لأنه سوف لن تكون لنا حياة أو تاريخ أو وعي منفصل عن عالم الأعمال هذا. إن هذا العالم يضع نفسه فوق قدراتنا على التصور باستمرار لأنه أصبح خيالنا وقدرتنا على التصور والوصف والتنظير والمقاومة."

عندما نعرف أن احتكارات مثل ميكروسوفت وأي.تي.أند.تي. تعد مناهج تعليمية لأطفال في الخامسة من العمر سندرك أننا يجب ألا نستبعد تحذيرفرانك على أنه مبالغة كبيرة. ولكننا سوف نستوعب ذلك تماماً حتى لو رأيناه من الخارج، سوف لا ندرك أن الإعلانات التجارية والحياة اختلطت مع بعضها في الولايات المتحدة، ولا نستطيع أن نفعل أي شيء إزاءها. نستطيع أن نعيش هذه الحياة فقط.

إن فكرة " الحيوية " التي هي محك الانهيار الحضاري ربما كانت فكرة غريبة عن الفهم، لكن عندما يتفحص المرء الوضع الأمريكي عن

كثب فهي تبدو واضحة. إنها أيضا بدأت في الظهور بشكل غير مباشر في ثقافتنا في بعض الأمكنة. لقد عرض فيلم في١٩٩٧ بعنوان " الحب والموت في لونغ آيلا ند " الذي هو في معظمه عن صفة الاستحواذ للافتتان الرومانتيكي. يتكلم الفيلم عن طبيعة الإعلان التجاري الحيوي للحضارة الأمريكية. كاتب بريطاني باسم جايلز لم يبق عنده شيء يقوله (وقد مثل شخصيته ببراعة فائقة الممثل جون هارت) يعتقد أن لديه ولعا بممثل أمريكي من الدرجة الثانية يدعى روني روستوك (ويقوم بدوره جيسون بريستلي) في أفلام مثل "هوت بانتس كوليج تو" وأثناء بحثه وتقصيه عن روني فان جايلز يدخل عالم محلات تأجير أشرطة الفيديو وجرائد التابلويد والبيتزا التي توصل إلى البيوت - الأمور التي تميز الحياة الأمريكية. يجد جايلز في هذا العالم تغيرا منعشا بالمقارنة مع عالم مكتبات العصر الفيكتوري المملة، والصفحات الرمادية لملحق جريدة التايمز الأدبي. وأخيرا يطير إلى لونغ آيلاند ليمسك بموضوع رغبته الذي كان يعيش مع صديقته. ولم يمنعه أي شيء من أن يغازل روني روستوك بلطف مقترحا عليه أن يعود إلى إنكلترا ويختار مهنة التمثيل في أوروبا. وعندما لم يستجب روني له قائلا إن كل علاقاته ومعارفه في الولايات المتحدة " حيث هو معروف بها " سأله جايلز " معروف بماذا يا روني؟" وسواء أكان جايلز مخبولاً بالحب أم لا فإنه ليس أحمقاً. إنه يفهم أن الذي يجذبه نحو أمة البوستوك هو طاقتها الشابة، وأن هذه الأمة هي في نفس الوقت بدون غاية حقيقية تعمل من أجلها إلا توليد الطاقة. وروني يعرف بدوره أنه ليس جون جيلغود، وهكذا فالكاتب والممثل يذهبان كل منهما في طريقه المنفصل عن طريق الآخر.

وهناك مؤلف آخر يعالج هذه الفكرة ــ فكرة الانحطاط الذي يتبدى تجددا كاذبا ــ هو دون ديليليو ولاسيما في روايته " الضجة البيضاء " التي هي رائعة من روائع الأدب. تصور الرواية حضارة تجارية مشغولة بالربح ومبتلاة بعدم وجود هدف لها وبجنون العظمة. يكتشف جاك كلادني، الشخصية المركزية في الرواية، الذي هو أستاذ جامعي يحاضر في دراسات عن هتلر، أن ابنته الصغيرة تتكلم في نومها هامسة كلمات " تويوتا سيليكا " غيمة سوداء قاتلة أو حادثة سامة " كما تدعي، تطلق في الجو بشكل عجيب ومكتنف بالأسرار كتشبيه " للضجة البيضاء " التي أصبحت بيئة لكل شيء ــ لبث المذياع والتلفاز، والموجات الإليكترونية الصغيرة جدا، ولأصوات صافرات الشرطة، وللضجة الإليكترونية التي تحدثها ألعاب الفيديو وأجهزته ــ التي تنبض كلها بالحياة ولكنها في نفس الوقت نذير بالموت. ومن أول الرواية إلى آخرها هناك تكرار مدوٍ لثالوث الدعاية التجارية الأمريكية المؤلف من ثلاثة أشياء : داكرون، أوكرون، ليكراسبانديكس؛ ماستر كارد، فيزا، أمريكان اكسبريس ؛ ليد يد، أن ليد يد، سوبر أن ليد يد والذي يعبر بإيقاع ثابت عن الهوس الدعائي من أجل البيع والشراء والربح. يتوقف جاك في مجمع تجاري بشكل فجائي ويحدث نفسه : " أدركت أن المكان مغمور بالضجة. الأنظمة التي لا نغمات لها، أصوات حركة وتوقف عربات التسوق، مكبر الصوت وماكينات إعداد القهوة، صراخ الأطفال. وفوق هذا كله أو تحت هذا كله هناك هديرٌ غير محدد المكان، وكأنه هدير شكل من أشكال حياة النحل أو الجراد وراء حدود فهم البشر. "ويحدث جاك نفسه بعد أن يراجع حسابه المصرفي في جهاز

صرّاف آلي " الشبكات، الدارات، حزم الموجات الاليكترونية، التناغم وتآلف الألحان. لقد كان النظام غير مرئي الشيء الذي جعله مؤثرا جدا."

إن فكرة "اللامرئية " ـ فكرة أنه يجب ألا يلام أحد في هذا العصر المجيد، عصر الاحتكارات الكونية والاتصالات الالكترونية الكونية لأن النظام ليس موجودا في مكان ما بل في كل مكان ـ هذه الفكرة مهمة لفهم الأزمة الحالية للحضارة الأمريكية التي سأصفها في هذا الكتاب. وطبعا المقصود بالنظام هو النظام الرأسمالي. إن هذه الأزمة هي الخاتمة المنطقية لعملية تاريخية معينة كانت قد بدأت في أوروبا في القرون الوسطى واتسعت وامتدت خلال الثورة العلمية والصناعية وأخيرا وصلت قمتها في عصرنا. لقد كانت هذه التطورات خلاّقة بشكل كبير، لكنها حملت معها ما يسمى في الفيزياء " بالكمية الموجهة " التي أدت إلى سيطرة الاحتكارات متعددة الجنسيات على العالم سيطرة محكمة، وإلى طريق المعلومات السريع جدا، وإلى حضارة الدعاية والإعلان التجاري والاستهلاك.

وكما أشرت آنفا فإنني سأحاول أن أبين طريقا ممكنا للخروج من هذا المستنقع. ولكن على القارئ أن يدرك الطبيعة البنيوية لهذه الأزمة أو عصر الانحطاط هذا أو لهذا المستنقع أو التوعك المنذر بالمرض. لقد تطور عصر الانحطاط هذا بشكل تراكمي. إن الأمريكان يحبون الدجل السياسي وسوف يدفعون مبالغ كبيرة لكي يسمعوا أن الأمور ليست سيئة إلى هذه الدرجة، وأن مشكلات الحضارة الأمريكية يمكن أن تُحلَّ روحيا وبسرعة. لكن المشكلات البنيوية تتطلب حلولا بنيوية. ولهذا السبب بالضبط يجب أن نرفض كتبا مثل كتاب ماريان وليمسون" علاج

أمريكا" بغض النظر عن الغايات النبيلة لمؤلفيها. أمثال هذه الكتب تعد القارئ ببلسم مؤقت مبنيٍ على يقظة روحية. وهناك كتب أخرى مثل كتاب جيري سبنسر "أعطني الحرية" تطالب بإحداث تغيرات كبرى مؤسسة على تشريع قوانين جديدة وتنفيذها بالقوة إذا لزم الأمر. أنا بالتأكيد لست ضد تنفيذ القوانين بالقوة (وكلية سبنسر لتدريب المحامين الذين يدافعون عن الشعب هي مشروع جيد). ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا: إن قدرة هذه الأساليب على تناول الموضوع (إيجاد حل للخروج من عصر انحطاط الحضارة الأمريكية) لتغيير مسار القوة الطاغية لرأسمالية الاحتكارات الكونية في عقد أو اثنين من السنين ليست موجودة، ولا يمكن أن يكون هناك أي شفاء بالتفاؤل الكاذب أو بتجنب الحقيقة. إن الحقيقة نفسها هي التي تشفي وليس أحلام العصر الجديد أو عوالم الأحلام الشعبية. والحقيقة هي أن التغيير الحقيقي هو تغيير تاريخي. وإذا كان هناك من يشير إلى انهيار الاتحاد السوفيتي كمثال للتحرر المفاجئ، دعونا نتذكر أن ذلك الانهيار كان يتشكل على مدى ثلاث وسبعين سنة، وقد حصل أخيرا بسبب التناقضات البنيوية التي لم يعد بالإمكان حلها.

إن الشفاء يوجد فقط على المدى الطويل، وشفاء أمريكا سيحدث بالتزامن مع حدوث تغيرات بنيوية في الاقتصاد، وهذا ينطبق على كل الأمم الصناعية المتقدمة. وهكذا عندما حاول وزير المالية الألماني اوسكارلافونتين أن يفرض ضرائب أعلى على الصناعة في ١٩٩٩ وأن يقاوم محاولات التقليل من برامج الرعاية الاجتماعية فقد هدد أصحاب الأعمال بنقل أعمالهم إلى خارج ألمانيا. وقد تأثر الاقتصاد الألماني

بهذا. وأخيرا استقال لافونتين، وكتبت الواشنطن بوست في كلمة العدد في ١٥ آذار ١٩٩٩ أن استقالة الوزير تبين محدودية قدرة أي سياسي بمفرده أو أي بلد بمفرده على اجتثاث مد الرأسمالية العالمية. لقد كتب المؤرخ البريطاني البارز السير لويس نامير أن " الإنجاز الباقي للدراسة التاريخية هو الحس التاريخي ـ الفهم البديهي لكيفية أن الأشياء لا تحدث (وكلمة " لا " هي للمؤلف). إن اضمحلال سيطرة الاحتكارات، عندما يحدث ـ حتى إن انهيار الاتحاد السوفيتي كحدٍ فاصل هو على الأقل على بعد أربعين أو خمسين سنة اعتبارا من هذه الكتابة ـ سيحدث بسبب عدم قدرة النظام على حماية نفسه إلى ما لا نهاية. هذا النموذج للانهيار الذي هو ظاهرة تاريخية متكررة الحدوث هي ظاهرة طويلة المدى وتتعلق بجوهر النظام. إنها لا تحدث لأن ثلاثمائة ألف إنسان تدخّلوا أو غيّروا مجال اهتمامهم أو دعموا تعاونياتهم الغذائية المستقلة. "إنني أسمي هذا "التفاؤل الواقعي". طبعا، إن الكتب التي تدعو إلى تغيرات نوعية سريعة تعكس ليس السذاجة الأمريكية الشعبية فقط، ولكن عدم قدرة على الصبر أيضا غير مفهومة إزاء حقيقة أن التاريخ نادرا ما يتحرك بسرعة كحركة إنسان منفرد. إن حلّي لأزمتنا الحضارية المعاصرة ـ والذي أسميه "الخيار الرهباني" أو "خيار الرهبان" ـــ هو بالتأكيد حل بعيد المدى ولكنه يشير على الأقل إلى وجود مثال تاريخي لحفظ وحماية الحضارة بشكل مقصود. إن مثل هذا النشاط لحفظ كل ما هو جيد في حضارتنا سيؤثر إيجابيا على الذين يقومون به، وربما سيكون له أثر أكبر غير متوقع. إن كلمة" أفول " تعني" فجرا في آخر الليل "، وعند نقطة ما سوف نخرج من فجرنا المعاصر وعصر الظلام القادم.

ما هو المثال التاريخي السابق الذي أتكلم عنه؟ ومع أنه قصة ذات تلافيف وتعقيدات، أستطيع القول أنني أشير إلى مجموعة من الأفراد ـ ولاسيما الرهبان ـ الذين لم يستطيعوا الانسجام مع الوضع العام للإمبراطورية الرومانية السائرة نحو الزوال آنئذ، والذين كانت لهم تجربة الغرباء في عالم غريب. لقد اعتبروا أن كل الأشياء التي أهملتها الإمبراطورية هي أشياء قيمة، والأشياء التي اعتبرتها جديرة بالاهتمام هي أشياء تافهة ومدمرة.

وهكذا، وبدءاً بالقرن الرابع بعد الميلاد أخذ هؤلاء الرهبان على عاتقهم مسؤولية الاحتفاظ بكنوز الحضارة اليونانية الرومانية في الوقت الذي كانت تخفت أنوار حضارتهم بسرعة. ففي أيرلندا والقارة الأوروبية عامة صادروا ونقلوا الكتب والمخطوطات التي مثلت أعظم الإنجازات الثقافية لتلك الحضارة، والتي أثبتت بعد ستمائة سنة أنها العامل الأساسي في بزوغ فجر حضارة أوروبية جديدة. وإذا كنا في حاجة ماسة لمثل أولئك الرهبان في القرن الرابع وما بعده للحفاظ على الحضارة الأوروبية من الزوال، فنحن نحتاجهم اليوم بالتأكيد كما لاحظ الروائي الإنكليزي ي.أم. فورستر في ١٩٣٩ في مقالته الرائعة "بما ذا أعتقد" :
" أؤمن بارستقراطية السلطة المبنية على المكانة الاجتماعية والتأثير، لكنها أرستقراطية تحس بأمور الناس وتقيم اعتبارا لهم ومقدامة وشجاعة. إن أفرادها موجودون في كل الأمم وكل الطبقات وفي كل العصور، وهناك تفاهم سري بينهم عندما يلتقون. إنهم يمثلون التقليد الإنساني الحقيقي، وانتصار جنسنا البشري الأبدي والغريب على العنف والفوضى. إنهم يحثون السير إلى الأمام، جيش لا يقهر لكنه ليس

منتصرا. الأرستقراطيون، المنتخبون، المنتقون، أفضل الناس. إن كل الكلمات التي تصفهم هي كاذبة وكل المحاولات لتنظيمهم فشلت. فقد حاولت السلطات المرة تلو المرة أن تضعهم في شبكة وأن تستغلهم بعد أن أدركت قيمتهم كالرهبان المصريين القدماء أو الكنيسة المسيحية أو رجال سلك الخدمة المدنية الصيني أو حركة الجماهير العريضة لكنهم يخرجون من الشبكة وعندما يغلق الباب فهم ليسوا في الغرفة. إن معبدهم هو قدسية خيال القلب، ومملكتهم، مع أنهم لم يمتلكوها أبدا، هي العالم المفتوح."

عندما أتكلم عن فئة معاصرة جديدة من الرهبان فأنا لا أقصد ذلك حرفيا. أنا لا أتكلم عن الزهد أو الممارسة الدينية ولا عن التنظيم في مجموعات رهبانية، لكنني أتكلم عن الرفض. إن راهب اليوم مصمم على مقاومة التشوش الذهني والإعلانات التجارية والتسويق التي يقوم بها نظام الاحتكارات العالمي. هو أو هي تعرف الفرق بين الواقع والخيال بين الاستقامة والترقية التجارية، ولا يوجد له أو لها أي علاقة بحكمة العصر الجديد. وبدلا من هذا العصر الجديد فهو أو هي تبحث عن الإرشاد فيما يتعلق بظروف الإنسان عند فلوبير أو فيرجينيا وولف وليس عند آخر أب روحي رفع إلى مكانة عالية من قبل وسائل الإعلام أو الثقافة المضادة.

إن الحاسوب والانترنت بالنسبة لمثل هذا الراهب أدوات مفيدة ولكنها ليست طريقة حياة، وهو أو هي تفهم أن كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي يمثلان المصالح الاحتكارية وليس الديمقراطية الأصلية. لا يوجد لديه أو لديها مشكلة في أن تسمي من هم الذين يؤمنون بأهمية

النخبة لأنها تؤمن مع غاريسون كيلر أن " الذي يزدري أو يتكبر على الآخرين هو الذي يعرض القمامة التجارية في وسائل الإعلام على جمهور يعتقد أنّه متفوق عليه كثيرا. " الراهب الجديد يؤمن بقدسية وإنسانية الإنسان، فهو لا يكرس نفسه للشعارات أو لهراء ما بعد الحداثة، ولكن لقيم التنوير الموجودة في قلب حضارتنا مثل : البحث النزيه عن الحقيقة، وتهذيب الفنون، والالتزام بالتفكير النقدي. هذا من بين أشياء أخرى كثيرة. وفوق كل شيء إنه يعرف الفرق بين الجودة والإعلان التجاري من أجل التسويق، ويحاول الحفاظ على الجودة في ثقافة غرقى بالتسويق والاستهلاك. إذا كان مدرساً ثانوياً فإنه يطلب من طلابه قراءة الأوديسة، على الرغم من أن نصف مدرسي المدرسة قرروا دانييل ستيل لطلابهم . وإذا كان كاتبا فهو يكتب للأجيال القادمة وليس لقوائم الكتب الأكثر مبيعا. وإذا كانت أماً فهي تأخذ أطفالها لإقامة مخيم نزهة أو إلى متاحف الفن وليس إلى بوكا هونتاس. وباختصار هو أو هي تختار أن تنقذ حياتها عن طريق " الخيار الرهباني."

• ومن ناحية أخرى، وقبل أن أصل إلى جوهر الحل الذي أطرحه أريد أن أقول ليس كل معارضة مؤسساتية للثقافة السائدة هي مضيعة للوقت. مع أنني أشك في أنها ستؤدي إلى نتائج مهمة في الأمد القريب، ولكن على المدى البعيد لا يمكن أن يجزم أحد ماذا سيكون عليه أي تأثير بعيد المدى لمثل هذه المعارضة. ولآخذ مثالا شخصيا وأقول أنني عملت كمدرس قراءة وكتابة لعدة أشهر في مدرسة ثانوية في واشنطن دي. سي لطلاب سود كانوا في خطر أن يطالهم القانون. لقد كانت مدرسة قصد منها تقديم خيار آخر غير السجن لهؤلاء الفتيان.

كان عملي عبارة عن مهمة لا شكر عليها : لقد أتى هؤلاء الطلاب من بيئات يسودها العنف وتعاطي المخدرات، ويعرفون أن الجميع ضدهم، وكنتيجة لذلك فقد كانوا غير مبالين ولا يبدون أي نشاط. لقد حققت بعض الانتصارات الصغيرة. ولكن معظم طلابي كانوا غير مندفعين للتعليم. (لم تكن المسألة مسألة عرقية، فقد كانوا غير مبالين حتى للمدرسين السود). لقد جفف الفقر والعنف كل حب استطلاع عندهم ومعرفة للعالم من حولهم. بعضهم في السادسة عشرة أو السابعة عشرة ربيعا ولم يسمعوا بالمحيط الأطلسي، ولم يفهموا ماذا عنت ١٩٩٩ تاريخيا ، ولم يخطر في بالهم أن الحرب الأهلية حدثت في ستينيات القرن التاسع عشر. اعتقد أحدهم أن واشنطن العاصمة تقع في الغرب الأوسط، ولم يكن قادرا على تحديد مكان نيويورك أو فلوريدا أو تكساس على خريطة للولايات المتحدة رسمتها له. ولم يستطع هؤلاء الطلاب أن يروا لماذا يزعجون أنفسهم لمعرفة مثل هذه الأشياء. ولكن كيف يمكن لشخص في السابعة عشرة من عمره أن يعيش على بعد ميل واحد من المحيط الأطلسي ولم يسمع به في حياته؟ وكيف يمكن أن يكون من سكان واشنطن دي. سي. ويعتقد أنها في نبراسكا ؟ هذا ليس حرمانا ثقافيا بل هو ذبح ثقافي. لقد بدا لي أن أفضل شيء تستطيع المدرسة أن تفعله هو أن تنقذ أقل هؤلاء حرمانا من الثقافة، ولكن الواقع الاجتماعي الأوسع سيبقى على حاله. هل يجب ألا يكون لدينا مثل هذه المدارس؟ ألم يكن أفضل لي ألا أقبل عرض التدريس فيها ؟ لقد أعجبتني وجهة نظر واحد من المؤسسين للمدرسة، وكان محاميا في الثلاثين من عمره ويتدفق حيوية ونشاطا. كان يعلق قولا مأثورا صينيا ، (أعتقد أنه

لكونفوشيوس): " على الذين يقولون لا يمكن فعل هذا الشيء أن يخرجوا من طريق الذين يقومون بفعله." وعندما سألته على انفراد فقد اعترف لي أنه يشك في قدرة المدرسة على أن تغير الكثير في هؤلاء الأولاد.

إن القهر الاقتصادي، قهر نظام الاحتكارات الذي يقسم الناس بدون شفقة إلى حفنة من الرابحين وجيش من الخاسرين على ملعب غير مستو يفعل فعله. إن قدرته على طحن الناس وتحطيم معنوياتهم مذهلة عندما تراها عن كثب. وليس مصادفةً احتمال أن ينتهي الحظ بشابٍ أسود بين الثامنة عشر والرابعة والعشرين من عمره إلى السجن أكبر من أن يؤدي به إلى الجامعة. ومع هذا كان هذا المحامي يتفق معي أن فتح مثل هذه المدارس لمثل هؤلاء الفتيان أفضل من لا شيء. والذي أعجبني به أنه لم يكن مخدوعا بتسويق فكرة مداواة أمريكا "بعشر خطوات سهلة " كان يعرف أن العلاج طويل جدا. وكانت المسألة بالنسبة له ماذا سوف يفعل في حياته إن لم يكن مشاركاً في تأسيس مثل هذه المدرسة؟

لذلك أنا لا أرفض الحلول المؤسساتية أو عن طريق جماعي على طول الخط، ومثال على ذلك منظمة العفو الدولية، فمن يستطيع التشكيك بقيمتها أو بقيمة حركة عمالية ما ذات نشاط أكثر حيوية من المعتاد؟ إن شكي يتعلق بالأثر الأوسع لمثل هذه المنظمات، وأنا متفائل أكثر بالالتزام الفردي على المدى البعيد والذي أسميه "الخيار الرهباني" ولكن في تجسيد معاصر. وفي الوقت الذي لا أعتبر كلمة " النخبوية " عبارة قذرة، علي أن أضيف أن "الخيارالرهباني " لا يخص فئة بعينها أو امتيازات ما، أبدا. لقد أدار أريل شوريس برنامج " كتب عظيمة "

لفقراء المدن في نيويورك وحقق نجاحاً مدوياً. إن شعاري هو شيء شبيه بسطر من الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتارد: " النخبوية لكل واحد " وكما يقول مينارد هاتشنز، مؤسس برنامج " كتب عظيمة " في جامعة شيكاغو " أفضل تعليم لأفضل طلاب هو أفضل ثقافة للجميع ".

كتابي هذا إذن هو كتاب لغريبي الأطوار، لرجال ونساء يعتبرون أنفسهم أجانب في بلدهم. انه دليل للقرن الواحد والعشرين وما بعده. إنه يحاول أن يعطي القارىء الإحساس بأين نحن بتوصيف تاريخي وماذا يعني هذا. إنه طريقة لتعريف الشخص بما يجري في عالمنا المعاصر لكي يتمكن من إيجاد المعنى في حضارة تتلاشى، وربما لكي يسهم بشكل ما في إعادة بنائها على أسس مختلفة تماما. والذي آمل أن أعرضه هو أن هناك سببا للأمل في المدى البعيد على الأقل. إنني مقتنع أنه على الرغم من أن معظم الأمريكيين أصابهم عطل وضرر وشوش حواسهم القصف اللانهائي الذي يتعرضون له "بالضجة البيضاء" وبالمعلومات المتعلقة بالإعلانات التجارية والتسويق والاستهلاك ــ على الرغم من كل ذلك هناك جوهر حي في داخلنا. " كلنا يتعطش للوصول إلى الحقيقة".

الجزء الأول
هل هذا انهيار أم تحول؟

إن وصف سالت للإمبراطورية الرومانية في سنة ٨٠ ق. م هو تلخيص جيد لبعض ظروفنا الآن. يقول: "حكومة تسيطر عليها الثروة، وطبقة حاكمة لا تستطيع فعل أي شيء إزاء الفضائح السياسية المتكررة لأنها مخدرة، وجمهور يتلهى بسباق عربات الخيل وعروض قتال العبيد لتسلية نفسه".

لويس لابهام في " انتظار البرابرة "

قبل الحديث عن الطريق الطويل إلى الشفاء الحضاري يجب أن نبدأ بفهم المرض. ولكن يواجهنا هنا عامل يعقد الأمور وقد أشير إليه باختصار في المقدمة : الانهيار هو النهاية الحتمية لكل الحضارات. وباستثناء مجتمعات الصيد وجمع الثمار التي لم يتدخل بها أي مجتمعات أخرى فإن ثالوث الولادة ثم النضج ثم التلاشي، ثالوث لا يمكن الهروب منه. أين مجد بابل، أين مجد مصر القديمة والصين واليونان والرومان؟ كلها ذهبت. هذا هو التاريخ. لماذا إذن ستتجنب أمريكا هذا المصير؟ إذا كان التفسخ أو الانحطاط موجودا في بنية

الحضارة نفسها فالحديث عن الشفاء ليس في محله. وبالفعل، ومن وجهة نظر تحليلية، ليست المشكلة أن الدول تنهار لأن هذه هي القاعدة ـــ بل هي أن بعض هذه الدول تتمكن من الاستمرار في مواكبة هذا الانهيار. إذن ما الغرض من إعطاء القارىء خريطة طريق ثقافية أو اقتراح طريق للخلاص؟ إذا كان التاريخ واضحا في هذه المسألة فلا يوجد طريق للخلاص. وهكذا يمكننا أن نعزف الموسيقى ونحن نراقب كيف تحترق لوس أنجلوس ونيويورك لأنه لا قدرة لدينا على فعل شيء.

إن هذا الاعتراض قوي جدا بحيث لا يمكن نفيه. ولا أعتقد أن أمريكا استثناء تاريخي، ولو كانت كذلك فهو نوع من التبجح الأمريكي النموذجي. ولكن هناك ثلاثة أمور تطل علينا من التاريخ : الأول هو أن عملية التفسخ الحضاري يمكن أن تكون حتمية ولكن نادرا ما تكون خطيّة، أي نادرا ما تحدث في مسار مستقيم. لقد عانت مصر مثلا في مسار ثلاثة آلاف سنة فتراتٍ من التفكك السياسي الكامل، وقد استمرت السيطرة الأجنبية عليها أحيانا أكثر من مئة سنة. ثم عادت إلى مسار حضارتها ثانية. وبينما كان تلاشي الحضارة المصرية في المطاف الأخير حتمياً، فقد هضمتها الإمبراطورية اليونانية الرومانية، فإن ثلاثة آلاف سنة ليست مدة قصيرة. وقد سجلت نجاحات سياسية كبيرة كما سجلت فشلا في أوقات عديدة. لذا يمكن القول أن الولايات المتحدة تمر الآن في فترة تراجع سيئة، ولكنها يمكن أن تشفى منه لبعض الوقت على الأقل.

والأمر الثاني هو أنه إذا كان النموذج الكلاسيكي لانهيار الإمبراطوريات هو نموذج انهيار الإمبراطورية الرومانية، فإن هذا الانهيار

كان تحولا بقدر ما كان سقوطاً. وقد قامت الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى على أنقاض الحضارة الرومانية. وبينما نرى أن أوجه الشبه بين سقوط الحضارة الرومانية وسقوط الحضارة الأمريكية ليست دقيقة جدا، إلا أنها تشير إلى إمكانيات التحول والتبدل. فإذا كان مقدرا علينا أن نعيش عصرا مظلما آخر، فلا يعني ذلك أنه سيستمر ستمئة سنة أيضا. وهذه بالضبط هي الحالة التي يبرز فيها "الخيار الرهباني" وحمايته الواعية للآثار الحضارية الثقافية ليؤدي دوراً مهماً.

والأمر الثالث هو الموضوع الذي ذكرته آنفا في المقدمة والذي سأناقشه فيما بعد في هذا الجزء؛ إنه اضمحلال حضاري مفعم بالحياة. وبهذا المعنى، وبصرف النظر عن التبجح الممكن، هناك شيء غير مسبوق يحدث. لقد كانت القرون المظلمة في أوروبا مظلمة حقيقة. لقد كانت "أحادية اللون" بشكل فريد كما يصفها المؤرخ بيتر براون. ولكن تحولنا نحن مربك بسبب العامل غير المنظور الذي تحدثت عنه آنفا. فبالنسبة لأولئك الذين تغويهم الضجة والألعاب والدمى والتكنولوجيا، يعد التحول الحالي إلى اقتصاد عالمي هو ازدهار حضاري. أما بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون أن قيمهم هي في مكان آخر يختلف عن إغراءات الآخرين، فإن العالم الرأسمالي الآن والتحول الذي يمثله هو عصر الظلام الذي لا تقل ظلمته عن ظلام العصور المظلمة الأولى في أوروبا، مهما أشارت المظاهر السطحية إلى عكس ذلك. وسواء كان هذا سيجعل شفاءنا أسهل أو أصعب فهو أمر متروك للمستقبل. وبتعبير آخر، حتى لو كان الانهيار محتوما تاريخيا، فانه يبقى عملية تحتوي على انحناءات وتعرجات غير متوقعة. يمكن أن يكون المسار متهاوياً إلا أن

هناك منافذا في هذا المسار. ومن ناحية أخرى فإن سابقة "الخيار الرهباني" تشير إلى إمكانية وجود طرق للاحتفاظ بالأشياء القيمة في هذه الحضارة ونقلها للأجيال اللاحقة على أمل الشروع في عملية تجديد حضاري في ما بعد.

وقبل مناقشة كل تشعبات موضوع الانهيار الحضاري، علينا تناول كل العوامل التي تفعل فعلها عندما تدخل حضارة ما في مرحلة ظلمة ما قبل الفجر وتبدأ بالانفجار الداخلي. إن فكرة "الأفول" تتضمن الميلاد والنضوج والشيخوخة. وهذه الطريقة في النظر إلى الحضارة تعود إلى القرن الثامن عشر، إلى جيام باتيستا، وربما إلى الإغريق القدماء. لكنها أصبحت معروفة في القرن الثامن عشر في كتابات مدرسة الفلسفة المثالية الألمانية. فمثلا، لقد نظر هيجل إلى التاريخ كرحلة روحية دارت الروح فيها حول الكرة الأرضية مولدة عصر النهضة في فلورنسا القرن الخامس عشر، وزرعت بذور التفسخ الحضاري عندما رحلت في آخر المطاف. وقد فكر أوزوولد سبنغلر بنفس طريقة هيجل مبيناً أن الحضارة مبنية حول شيء مثالي مركزي، أو فكرة أفلاطونية، وأن عملية مسار الحضارة تشتمل على مرحلة من الشيخوخة حيث تتصلب هذه الفكرة وتصبح شكلا محضاً دون مضمون. لقد اعتقد سبنغلرأن مرحلة هذه "الشكلية " أو "الكلاسيكية" كما سماها كانت تحدث للغرب أثناء حياته وستظل على الأجندة الغربية لبضعة قرون قادمة.

وتشبيه المسار الحضاري باستعارات من الحياة العضوية مثل ميلاد، نضوج، ثم موت مقنع عقليا. فالبشر يموتون، إذن لماذا لا تموت

الحضارات؟ ولكن هذه التشبيهات ليست ضرورية بالفعل مثل الماورائيات كأدوات لتفسير هذا المسار. وكما يبين جوزيف تينترفي كتابه "انهيار المجتمعات المعقدة " أن الحضارات هي أشياء شاذة بالنسبة للكون ككل، وأن كل ما حدث للمجتمعات البشرية من تشكل للهرمية الاجتماعية في كل مجالات الحياة الإنسانية، وتخصص لطبقة الموظفين أوالبيروقراطيين حصل حديثا نوعا ما، منذ ما يقارب الستة آلاف عام تقريبا، وكانت هذه التشكيلات تقوى باستمرار وتؤطر في إطار قانوني، وهي تتطلب دائما قاعدة مادية تتوسع باستمرار وتحتاج إلى موارد متحركة ومتطورة. وهكذا فان الاتجاه العام لكل هذه التشكيلات هو نحو مستويات أعلى وتعقيد أكبر. فهناك معالجة كميات أعظم من المعلومات ومن الطاقات، وهناك تشكل مجتمعات أكبر باستمرار، وهناك تمايز طبقي متزايد، وهناك تطور تكنولوجي معقد أكثر. إن الانهيار الحضاري الذي يشتمل على الضعف المستمر للمركز السياسي والإداري هو عكس كل هذا الذي ذكر وهو أيضا ميزة متكررة الحدوث في المجتمعات البشرية. فعندما يضعف المركز لا يبقى هناك مظلة لضمان السلامة، فالقوي يدمر الضعيف، ولا يوجد هدف أعلى إلا البقاء. ويمكن أن تضيع القراءة والكتابة تماما، أو يمكن أن تضمحل بحيث يصبح حلول عصر مظلم حتميا بشكل دراماتيكي.

وهكذا فالانهيار الحضاري هو في صلب الحضارة نفسها. ولكن لا يمكن أن تفهم هذه العملية إلا بشكل عقلاني واقتصادي بحت. مثلا عندما كانت تمر المجتمعات البدائية، مجتمعات الصيد وجمع الثمار، بأوقات عصيبة كقلة موارد الطعام، كان لدى أفراد القبيلة خيار سهل

وكان ناجحا لعدة مئات آلاف السنين. ذلك الخيار كان ببساطة الانتقال إلى مكان آخر. وهذا الحل هو أفقي، أي انتشار وانتقال. ولكن عندما يكون المجتمع مستقرا مثل مجتمعاتنا المعاصرة فهو ملتزم بالبقاء في نفس المكان الذي يعتمد بقاؤه عليه، فالحل بالنسبة اليه ليس أفقيا مثل المجتمع البدائي، بل عامودي. وهذا يعني خلق مستوى آخر من السيطرة الهرمية الاجتماعية ليحل مشكلاته. وهذه العملية لا تنتهي. إن هذا الأمر كله تراكمي. الضرائب نادرا ما تقل، ومعالجة المعلومات تتعقد باستمرار. الجيوش تكبر والهرميات الاجتماعية تتعاظم. و"النخبة" يريدون ويحصلون باستمرار على نصيب أكبر من الكعكة. وهكذا يتعاظم مسار حلزوني في الارتفاع والتعقيد وازدياد كلفة الأشياء على عاتق المجتمع. ولهذا يقول تينتر " أن الاستثمار في التعقيد السياسي والاجتماعي كاستجابة اجتماعية من أجل تقديم الحلول غالبا ما يعطي مردودا هامشيا يتناقص باستمرار". مركز الثقل عال جدا، والمنافع من كل وحدة استثمار تبدأ في التناقص. وعند هذه النقطة - نقطة المردود الذي يقل تدريجيا فإن الانهيار ليس فقط حتميا بل يصبح اقتصاديا. ومع أن آثار هذا المردود المتناقص ليست مسرة، فإن الانهيار أخيرا يصبح عملية تدارك للأسوأ وأفضل تكيف في الظروف المعاشة.

إن تفسير تينتر لعملية الانهيار الحضاري ليست متناقضةً مع تفسير المثاليين الألمان، فتينتر وسبنغلر- مثلا -متفقان على أن الانهيار ملازم للحضارة نفسها وهو في صلبها، وهكذا فهو حتمي. ولكن هناك اتفاقا أعمق من هذا مع أنه متضمن في هذا التفسير : إن الاضمحلال الاقتصادي فيه مركَّب روحيٌ واضح يبدي نفسه في عدم الاكترات

واللامعنى، الشيء الذي يقبع في واجهة سبنغلر الكلاسيكية. ففي المرحلة الكلاسيكية تتوقف الحضارة عن الايمان بنفسها، ولهذا فهي تقوم بحروب زائفة (مثل فيتنام والعراق في ١٩٩١)، وتعزز شعاراتها ورموزها باستمرار. وكلما ارتفعت الكلفة التنظيمية لهذه النشاطات نتج عنها منافع أقل، وزادت شكلية هذه الحضارة وتبجحها وقلَّ مضمونها الإنساني. ومثلما كانت الجماهير المنهكة في روما القديمة تتجمع من أجل الخبز وعلى المسارح وفي الساحات والسيركات، فإن هولي وود اليوم، بصناعة أفلام " الروكي، " تكرر نفس الصيغ القديمة. وهكذا فان استعراضات اقتتال العبيد الرومانيةِ تتساوى مع جعل الحضارة على طراز "رامبو" في أنها مؤشرات أكيدة على الموت الروحي.

وإذا استطعنا أن نجمع خيوط هذا النقاش نقول بتواجد أربعة عوامل عندما تنهار حضارة ما : (أ) عدم مساواة اجتماعية واقتصادية متسارعة. (ب) مردود هامشي متناقص تدريجيا بالنسبة للاستثمار في الحلول التنظيمية للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية. (ج) مستويات من الأمية متزايدة بشكل متسارع، ونقص متزايد في الفهم النقدي والوعي الفكري العام. (د) الموت الروحي - أعني كلاسيكية سبنغلر : إفراغ المضمون الحضاري وتجميده في صيغ لا قيمة حقيقية لها.

يبدو أن هذه النقاط الأربع تنطبق على الولايات المتحدة في بداية القرن الواحد والعشرين. أعتقد أن القارئ مدرك لاتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء بشكل متزايد منذ سبعينيات القرن العشرين، وأن الضمان الاجتماعي مهدد، وأن ملايين من خريجي المدارس الثانوية بالكاد يستطيعون القراءة والكتابة، وأن كلمات شائعة جدا تكتب بخطأ

إملائي على اليافطات والإشارات العامة، وأن معظم الأمريكيين يبلغون الشيخوخة وهم في عزلة إما أمام التليفزيون أو في تناول مضادات الاكتئاب. هذا هو الواقع اليومي الذي يتحدى وهج وصخب ما يسمى النظام العالمي الجديد.

ولكي نفهم حقيقة وضعنا من الضروري أن أشرح هذه العوامل الأربعة بالتفصيل. ويجب أن أؤكد منذ البداية أن حالتنا ليست حالة انهيار حضاري بسيطة، لكنها حالة تحول حضاري أكثر تعقيدا. ولو نُظِرَ إلى حالة الانهيار هذه من منظور وول ستريت وبفرلي هيلز والمنطقة الواقعة داخل البلت وي حول العاصمة وريدموند في واشنطن والتي هي مقر مايكروسوفت فان التحول إلى المجتمع الكوني للقرن الواحد والعشرين يعد نجاحا باهرا. وبلغة التطورات التي تحصل قبل نهاية إمبراطورية ما بقليل، ومع الأخذ بعين الاعتبار أن الاتحاد السوفييتي الآن هو أثر من الماضي، فان هذا التحول قادر على التكيف لمدة خمسين أو مئة سنة أخرى على الأقل. وإذا لم يكن هناك أي شخص آخر غيرنا ليقدم لنا تعريفا مختلفا للنجاح فلا يوجد أي مشكلة. إن معنى الانهيار موجود في عيون الناظر إلى هذا التحول.

ولأبدأ بالعامل (أ) الآن. كانت المعلومات عن الأغنياء مقابل الفقراء، ليس منذ زمن بعيد، تُكتبُ فقط في المجلات اليسارية. أتذكر عندما كنت طالبا جامعيا في ستينيات القرن العشرين كنا نصور المقالات التي تتناول هذه المعلومات ونوزعها على أصدقائنا. إن هذه المعلومات الآن هي معلومات أساسية يمكن الحصول عليها من كل الجرائد، وهي موجودة على صفحات مجلات مثل بزنس ويك وفورتشن.

لقد لاحظ جون كاسيدي في ١٩٩٥ في جريدة نيو يوركر أنه بينما كان هناك فرق شاسع بين الأغنياء والفقراء بين ١٩٤٧ و ١٩٧٣ إلا أن الدخل ارتفع عند كل الناس بنفس المعدل. ولكن من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٣ استمتع الأغنياء فقط بازدياد في ثروتهم. لقد ارتفع مستوى دخل الشريحة العليا من المجتمع والتي تمثل ١ ٪ من السكان ٧٨٪ بين ١٩٧٧ و١٩٨٩. وقد بينت أرقام هيئة الاحتياط الفيدرالي أن هذه النخبة تملك ٤٠٪ من ثروة البلد. وفي١٩٩٥، وحسب روبرت رايخ، ارتفع هذا الرقم (مستثناة منه قيمة المنازل) إلى ٤٧ ٪ ـــ أكثر من ٤ تريليونات دولار من الأرصدة ـ بينما صارت شريحة الـ ١ ٪ العليا تملك ٩٣ ٪. والنتيجة هي أن أمريكا لم تعد مجتمع طبقة وسطى. وقد عانى ٤٠ ٪ من السكان وهم الشريحة السفلى في السلم الاجتماعي من تدنٍ في دخلهم من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٣، بينما انتقل ٢٧٥ بليون دولار من الطبقة الوسطى إلى شريحة الـ ١ ٪ في نفس الفترة . وفي ١٩٧٣ فإن المدير التنفيذي لشركة كبيرة كان يكسب أكثر من العامل ب ٤٠ مرة، أما اليوم فهو يكسب من ١٩٠ إلى ٤١٩ مرة أكثر منه. ويلاحظ رايخ أن بل غيتس يملك ثروة (في ١٩٩٨) تقدر بـ ٤٦ بليون دولار. وهذا الثروة هي أكبر مما يملكه ٤٠ ٪ من الأسر الأمريكية. ويختتم كاسيدي أن أمريكا شهدت "إعادة توزيع غير مسبوق للدخل صب في أيدي الأغنياء"، وبلغة عدم التساوي في الثروة فإن الولايات المتحدة هي الأولى في البلدان الصناعية.

ويشير بول كروكمان، اقتصادي شركة ام.أي. تي. إلى هذا الاتجاه ك " حلزون من عدم المساواة الذي يتزايد سنة بعد أخرى". وفي الوقت

الذي تزداد صعوبة الحياة بالنسبة لمعظم الأمريكيين، تزداد سهولة قتل الآخرين بالنسبة للقلة المختارة منهم. وطبقا لمكتب الإحصاء فإن ٢٠ ٪ من أسر الشريحة السفلى في ١٩٧٠ حصلوا على ٤ . ٥ ٪ من الدخل القومي، بينما حصل ٥ ٪، الذين هم الشريحة العليا، على ٦ . ١٥ ٪. وفي ١٩٩٤ أصبحت هذه الأرقام ٢ . ٤ و ١ . ٢٠ ٪. كل هذا، يقول كروكمان، " يدل على تغير في طبيعة مجتمعنا "، ويدل أيضا على تغير في قيمنا. ففي ١٩٦٢ واجه الرئيس كينيدي الاحتكار الأمريكي للفولاذ فيما يتعلق بزيادات الأسعار وأجبرها على العدول عن هذه الزيادات. ولكن اليوم الاحتمال الأكبر هو أن يدعى مدراء الشركات والاحتكارات الكبرى للغداء في البيت الأبيض.

يجب عدم تصديق ما يصدر عن البيت الأبيض فيما يتعلق "بازدياد الرخاء لمعظم الأمريكيين ". يقول وليام فينيكان في كتابه "عالم جديد بارد" "بينما ينمو الاقتصاد القومي فإن الحالة الاقتصادية لمعظم الأمريكيين ليست جيدة". نعم لقد كان معدل البطالة في ١٩٩٩ الأخفض على مدى خمس وعشرين سنة، ولكن القيمة الحقيقية لأجرة ساعة العمل انخفضت بشكل كبير، وانخفض معدل دخل الأسرة، وارتفع معدل الفقر على المستوى القومي. وقد ازداد عدد الأعمال ذات الأجر المنخفض بشكل دراماتيكي. ويلاحظ فينيكان " أن الخمس والعشرين سنة الماضية أنتجت، وعلى مدى جيل كامل، أول انخفاض في مستوى أجور العمل في التاريخ الأمريكي. إن الطبقة المتوسطة تنكمش بوضوح. يتبجح البيت الأبيض أن ٧٠ ٪ من العاملين الذين فقدوا أعمالهم بين ١٩٩٣ و ١٩٩٥ وجدوا أعمالا أخرى في أوائل ١٩٩٦. هذا ليس

صحيحاً لأن غالبية هؤلاء ال ٧٠ ٪ وجدوا أعمالا مؤقتة فقط وبأجور أقل من أجورهم السابقة. ومنذ ١٩٧٩ لقد ألغيت ٤٣ مليون وظيفة.

إننا نقترب من وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الموجود في الهند أو المكسيك أو البرازيل، ولا أحد يعمل أي شيء لكبح جماحه. فمثلا خلال الفترة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٤ ارتفع عدد المليارديرات في المكسيك من اثنين إلى ٢٨ مليارديرا.

إن أرنستو سانتوس، وهو محام لعدد من الشركات ومثل العديد من هؤلاء المليارديرات، يسمي هذا "نموذج هرم الأزتيك " الذي أصبح ممكنا باستثمار الولايات المتحدة والذي له بدوره آثاره السيئة على التمايز بين الأغنياء والفقراء في الولايات المتحدة. وفي كتابه " إفلاس أمريكا " يقول ديفيد كاليو" إن الجزء المتقدم من الاقتصاد [الأمريكي] يبدو مقاطعة مزدهرة باضطراد ومسورة وسط بلد تتفاقم الأوضاع فيه سوءاً. وبدلا من أن تكون مثالا يحتذى بالنسبة لبلدان العالم الثالث يبدو أن الولايات المتحدة تقلد هذه البلدان. ويضيف" ديفيد ريف من معهد السياسة العالمية " أن أمريكا، بالهوة المتسعة في الدخل بين الأغنياء والفقراء وبالفروق الواسعة التي تتعمق بينهم في كل مناحي الحياة من التعليم إلى متوسط العمر هي أقل ديمقراطية الآن مما كانت عليه في عام ١٩٥٠ ".

إن آثار هذه الاتجاهات وتعاظم سيطرة الاحتكارات مدمرة للأطفال، ليس فقط في الولايات المتحدة، بل وفي بقية أنحاء العالم أيضا. فبين ١٩٧٩ و ١٩٩٠ ارتفع عدد الأطفال الأمريكيين الذين يعيشون تحت خط الفقر بنسبة ٢٢ ٪. لقد كُتبت مقالةٌ في جريدة الانترناشنال هيرالد

تريبيون بعنوان "عبيد الهند الأطفال" تقول إن ١٥ مليون طفل في الهند يعملون إحدى عشرة أو اثنتي عشرة ساعة يوميا في ظروف خطرة ، وهم يُضربون إذا حاولوا الهرب. وفي صناعة الحرير التي يدعمها البنك الدولي فان أطفالا في السادسة والسابعة من عمرهم يُجبرون على أن يغمسوا أيديهم في ماء يغلي. ولكي تتجنب المجاعة، فإن كثيراً من الأسر الهندية ترسل أطفالها المعوقين إلى بلدان الخليج العربي للتسول. وتُباعُ البنات تحت سن العاشرة للدعارة، والهند ليست وحيدةً في هذا، فالبلدان الآسيوية تستخدم نحو المليون طفلة للدعارة. وعلى النطاق العالمي، وطبقا لمنظمة العمل الدولية، هناك ٢٥٠ مليون طفل وطفلة بين الخامسة والرابعة عشرة مستخدمون في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهذا يتضمن العبودية والدعارة والعمل في صناعات خطرة.

إن مثل هذه الأحداث لا تحدث في الفراغ. وتورُّطُ البنك الدولي والاحتكارات الأمريكية هو جزء من نسيج الاضطهاد الكلي. وسيطرة الاحتكارات المتعددة الجنسيات تعني بالتعريف أن هذه الأمور مرتبطة بشبكة من الأسواق والاستثمارات والاتفاقيات التجارية. إن ثروة الشريحة العليا من الأمريكان متورطة ليس فقط في فقر الجزء الجنوبي من وسط لوس أنجلس، بل وفي فقر الأحياء البائسة في بوينس آيرس.

لقد كانت أرباح شركة" نايك " الاحتكارية في ١٩٩١" هي ٣ بليون دولار. كانت تدفع لعمال مصانعها في اندونيسيا ـ الذين معظمهم نساء فقيرات ويعانين من سوء التغذية ـ ١.٠٣ دولار في اليوم، الأجر الذي لا يكفي للطعام والمأوى. واذا كنت لا تصدق أيها القارئ جرب ذلك.

في ١٩٩٦ كان أغنى ٤٤٧ شخصا على سطح الكرة الأرضية

يملكون أرصدة تساوي ما يملكه أفقر الناس والبالغ عددهم ٥ , ٢ بليون إنسان ـ ٤٢ ٪ من عدد سكان العالم. عندما نشتري كنزة مكتوب عليها "صنع في الفيليبين" أو راديو كتب عليه "مصنوع في كوريا" ماذا نعتقد أن هذا يعني؟ ما هي حقيقة الواقع الاقتصادي والاجتماعي وراء هذه الكلمات التي تبدو حيادية؟ إن كل هذه التسميات تشير إلى أن غنى الأقلية ناتج عن شقاء الأكثرية.

والقول إن عدم المساواة في العالم شيء موجود في بنية المجتمع البشري هو فكرة أساسية فيما يعرف بتحليل الأنظمة الاجتماعية في العالم، والذي ينظر إلى هذه الدراما على أنها التمييز بين المركز والمحيط أو الأطراف. إن البلدان المركزية هي البلدان الموجودة في المناطق ذات الامتيازات الكثيرة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية كالولايات المتحدة وأوروبا. ففي هذه المناطق تتركز القوة المالية والتكنولوجية والإنتاجية، هذه القوة يسيطر عليها النخبة. أما المحيط أو الأطراف فيضم المناطق المستغلّة التي تبيع مواردها وعمل أبنائها للمركز دون القدرة على الوصول إلى ثروتها. وتزايد ثروة المركز أو القلب لا يمكن إلا أن يعتمد على إفقار المحيط. وهكذا فإن المحيط اليوم يتألف من بورما وتايلند وماليزيا وأندونيسيا والفيليبين. بينما محيط أوروبا هو أفريقيا التي يسميها الاقتصادي الفرنسي جاك أتالي في كتابه "الألفية" "الهوة الاقتصادية السوداء". وفي عالم مستقبلي يبلغ عدد سكانه ٨ بلايين نسمة (وهذا رقم متحفظ) لنقل في سنة ٢٠٥٠ يعتقد أتالي أن خمسة بلايين منهم، بسبب عدم المساواة المتأصل في النظام الرأسمالي، سيعيشون بمستوى حياة يمكّنهم فقط من المحافظة على النوع ليس إلا.

إن القرن الواحد والعشرين سيكون عالما يتوجب على الإنسان فيه أن يسير على حد السيف كي يتمكن من الحياة. "عالم اعتنق أيديولوجيا الاستهلاك ولكنه مقسم بين أغنياء وفقراء بشكل مرير"، وسيكون الفقراء الذين يسكنون المحيط المقفر "سكان زوارق على نطاق الكرة الأرضية" لكنه يضيف "أن هذا الوضع مقلقل جدا لأن أولئك الذين يعيشون في المحيط يدركون باستمرار أن رخاء المركز يتم على حسا بهم، وكنتيجة لذلك فسوف يثورون ضد المركز في حربٍ لم تشهدها البشرية من قبل".

ويتابع هذه الفكرة ـ فكرة القلب والمحيط،عالم الاجتماع كريستوفر تشيس بتفصيل كبير في كتابه "البنية الكونية" إنه يبين أن هرمية بنية المركز والمحيط هي صفة بنيوية للنظام العالمي (الرأسمالي). إنها مؤسسة عدم مساواة اجتماعية لم يصبح النظام الرأسمالي نظاما رأسماليا إلا بالتأسيس عليها. تاريخيا، وبالرجوع إلى الثورة التجارية في القرن السادس عشر ونهب الأمريكتين، كان استغلال بلدان المحيط مهما جدا لظهور الرأسمالية الصناعية في المركز أو القلب، وقد تطور الاستعمال المباشر للقوة القاهرة أخيرا ليأخذ شكل قوة اقتصادية ذات مؤسسات مبنية على القانون والملكية الخاصة. ولذلك فشبكة الأسواق المتداخلة والمعتمدة بعضها على بعض هي المادة اللاصقة الرئيسة لنظامنا العالمي والذي يدعمه عند الضرورة القوة العسكرية لدول القلب. وهكذا نقرأ في الصحف الأمريكية سياتل بوست انتليجنس، ٢٧ ك٢ ١٩٩٧؛ (منقول أصلا عن البالتيمور سن في ١٩٩٥ عن دليل تدريب وكالة المخابرات المركزية) الذي يصف طرق التعذيب التي استعملت في هندوراس في ثمانينيات القرن العشرين. وقد كان هذا جزءاً من جهود

الرئيس ريغن للسيطرة على الحركات اليسارية في نيكاراغوا والسلفادور، حركات من مثل الانتفاضات اللاحقة في المكسيك (تشياباز) التي كانت تحارب من أجل تقرير المصير وضد قوى السوق التي كانت تحاول طحنهم ليظلوا دائما في حظيرة دول المحيط. أو خذ عبرة أيها القارئ من وضع كولومبيا حيث، طبقا لمنظمة هيومان رايتس ووتش، قام مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية بمساعدة الحكومة الأمريكية في بناء "شبكات من القتلة" من جنود شبه عسكريين من أجل قتل الذين يشتبه بأنهم يساريون، وإمداد العملاء بالسلاح والمال من أجل هذه الغاية.

لا مجال للدهشة هنا، هذه قصة قديمة في علاقاتنا مع أمريكا اللاتينية. إلا أن القهر السياسي الآتي مباشرة من القلب أصبح أقل مركزية لبنية الاستقلال والسيطرة، كما يقول تشيس دون، لأن القلب يستطيع الاعتماد على القهر المحلي ـ أعني دولا دكتاتورية عميلة في المحيط ـ لتقوم بعملها القذر مقابل مساعدات مالية واقتصادية للنخبة في دول المحيط، وعلى الاستغلال الاقتصادي المنظم من خلال إنتاج وبيع السلع، وهذه وسيلة سيطرة أكثر فاعلية وأقل قذارة. (أضف إلى هذا في السنوات الأخيرة دور البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ونافتا والغات (منظمة التجارة العالمية واتفاقية التجارة العالمية).

وعلى أي حال هناك عدم مساواة كبير بين مناطق رئيسة في عالمنا. فبلدان المحيط مثل البرازيل ونيجيريا تؤدي دور بلدان القلب مقابل بلدان على محيطهما. وكل ذلك يرتد إلى قطاعات مركزية في دول القلب. إن استغلال دول المحيط والتهديد بهروب رأس المال ساعد في جعل النقابات

العمالية والأحزاب الاشتراكية سهلة الانقياد وهكذا فهي لا تستطيع تحدي قوى النخبة في دول القلب بنجاح.

إن كل ذلك هو جزء لا يتجزأ من الاقتصاد الكوني. ولهذا فقد قال ألان غرينسبان، رئيس هيئة الاحتياطي الاتحادي، في شهادته أمام الكونغرس في ٢١ ك٢ ١٩٩٧ إن " عدم شعور الموظف بأن عمله في مأمن من التسريح والبطالة يفسر تقصير رب العمل في زيادة الأجور ويفسر التضخم المستمر". وكقاعدة عامة، عندما يزداد عدد الوظائف يهبط مؤشر الداو جونز، لأنه بالنسبة للنخبة الاقتصادية في المركز يتأتى الربح من شعور العاملين بعدم الأمان في عملهم.

إن اختراق الاستثمارات الأجنبية لدولة من دول المحيط، وخلق تبعية وضع المدين لها بواسطة الإقراض الأجنبي يعملان على تعطيل التطور الاقتصادي لهذا البلد وزيادة عدم المساواة فيه. وهذا يعني استبدال الاستعمار الكولونيالي المباشر بآليات كولونيالية جديدة هي عبارة عن آليات اقتصادية جديدة. وبنية هذه التبعية، كما يقول تشيتس دون تقوم على "تقديم الدعم لنخب دول المحيط والمحافظة على أجور العاملين منخفضة لكي تناسب دخل هذه النخب". هذه النخب هي فعليا مرتبطة بمصالح الاحتكارات العالمية وبالاقتصاد العالمي" وليس بدولها أو شعوبها هي.

ويجب أن نتذكر أن هذا الوصف ينطبق على المناطق التي تقع داخل الولايات المتحدة نفسها، وليس، لنقل غواتيمالا. وشهراً بعد شهر تنتقل ثروة أكبر كل مرة إلى أيد أقل تدريجيا. في منتصف ١٩٩٧ اقترح الجمهوريون في الكونغرس تخفيضا للضرائب مصمما ليعطي

الشريحة العليا من الأغنياء ٨٧ ٪ من ادخارات الضرائب خلال العقد القادم. وبعد سنتين كُررت المحاولة عندما اتفق مجلس النواب ومجلس الشيوخ على تمرير لائحة ضريبية ترضي الطرفين وتعطي الشريحة العليا من الأغنياء ٧٩ ٪ من ادخارات الضرائب وتمنح الاحتكارات العابرة للقوميات والأمم بلايين الدولارات على شكل إعفاءات ضريبية. إن هذه العملية لا ترحم ؛ ومع أنني لا أتوقع انتفاضة شعبية كبيرة في الولايات المتحدة ـ هناك احتمال أكبر أن تحدث مثل هذه الانتفاضة في بلدان المحيط خارج بلدان القلب ـ إلا أن من الصحيح القول إن عدم المساواة هذا يمكن أن يدمر أخيرا النسيج الاجتماعي بكامله، كما دمر تقريبا المدارس العامة وقلب المدن من قبل؛ إنه يدمر روح وأخلاق الأمة. وفي هذا الشأن إذا أراد المرء أن يعقد مقارنة مع الإمبراطورية الرومانية، فمن الطريف أن يلاحظ أن خلال حكم نيرون من ٥٤- ٦٨ بعد الميلاد كان نحو ألفي شخص يملكون كل الأرض الواقعة بين الراين والفرات. وكان السكان مقسمين إلى أغنياء جدا وفقراء جدا. وهذا يشبه، كما يقول كيفين فيليبس في كتابه "العاصمة المتكبرة" "الذي نشهده في الولايات المتحدة هو اصطفاف طبقي واسع للناس في أحياء أو تجمعات أو جاليات مسورة وذات تمايز طبقي صارخ بين الأغنياء جدا والمعدمين جدا".

لماذا يحدث هذا الانزلاق نحو عدم المساواة والتمايز الطبقي؟ يحدث هذا جزئيا لأن تركز الثروة بأيد أقل شيئا فشيئا هو جزء من المردود الهامشي المتناقص. فكل مرة يبدأ استثمار ما في العمل يكون النصيب الأكبر من الكعكة فيه للنخبة. الهرمية تولد القوة ؛ وكلما كانت عملية تطويرها وتطوير التكنولوجيا ناجحة، كانت فرصة الأقلية أكبر في

استغلال الأكثرية ولاسيما في أوقات وجود الدين والأزمات. ويقول كيفن فيليبس،" كلما أصبح الدَين الضخم (دين الدولة) مشكلة قومية رئيسة، أصبح هذا الدين فرصة مالية ضخمة ومصلحة مؤكدة الربح للاحتكارات. وبتعبير آخر، فبالنسبة للقلة المختارة، يصبح الانهيار القومي فرصة جيدة لأصحاب الأعمال. ولكن في المطاف الأخير لا أحد يعرف بالضبط لماذا عانت أمريكا من مثل هذا الانتقال في الثروة، كما يعترف كاسيدي. يبدو أن هذا يعزى إلى مجموعة من العوامل مثل : ازدياد حجم التجارة العالمية، وانتشار تكنولوجيا الحاسوب، واضمحلال قوة النقابات العمالية، وهجرة العمال غير المهرة إلى أماكن أخرى مختلفة داخل البلد. ولكن كل هذه العوامل خاضعة للنقاش وليست نهائية ومن الصعب الوصول إلى تفسير لا لبس فيه. وأفضل شيء يمكن أن يقوله الاقتصادي هو كيف تطورت الرأسمالية (وفي حالة الإمبراطورية الرومانية كيف كانت الفترة الختامية لسقوطها). إن الشيء الوحيد الذي يمكننا من عكس هذا المسار للرأسمالية، بالإضافة إلى إعادة إحياء النقابات العمالية، هو وضع ضرائب كبيرة على الأغنياء.

وقد تكلم روبرت رايخ، وزير العمل، في تسعينيات القرن العشرين، عن هذا الحل كإمكانية، وقد قوبل اقتراحه بصمت مطبق. وببساطة، لم يكن هناك تعاطف مع هذا الحل، حتى بين مواطني الطبقة الوسطى الذين سيكون مثل هذا الحل مفيدا لهم (ربما لأنهم يعتقدون أنهم سيصبحون أغنياء وسيصرعون النظام الرأسمالي ـ اعتقاد شبيه بربح اليانصيب). وكنتيجة لهذا يصبح تحول البلد إلى الوضع الذي حل بحضارة الأزتيك نهاية مسلماً بها.

ولنتحول الآن إلى العامل (ب)، أطروحة تينتر لأنها تنطبق على الاقتصاد الأمريكي. إذا ركزنا على ما يمكن أن يكوّن المسألة الرئيسية هنا والتي هي الأنظمة الحكومية لدعم المواطنين ماليا ـ ولاسيما الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية ـ لاكتشفنا أن هذا الأمر يبدو للأسف ضبابياً جدا. فالمعلومات والتكهنات تتغير كل شهر تقريبا، وربما تصبح معلومات عتيقة عندما أنتهي من كتابة هذا الكتاب. بالإضافة إلى أن المعلومات يمكن أن تتغير حسب جدول أولويات الباحث. فما نشر من قبل مؤسسات البحث اليمينية مثل معهد" كاتو"، ومؤسسة "هيريتيج"، و"المركز القومي لتحليل السياسات " كلها ترى أن الأنظمة الحكومية للدعم المالي في أزمة، وأن برنامجا مثل الضمان الاجتماعي يجب أن يلغى أو أن يصلح كله. وعليه علينا أن نحذر من المعلومات والمعطيات لأنها غالبا ما تكون واجهة للخصخصة ـ مثلا استبدال التقاعد ليصبح عن طريق أصحاب الأعمال وليس عن طريق الحكومة. ومن ناحية أخرى، فإن مؤسسات مثل بروكينكز تقول إن أنظمة الدعم الحكومية هذه تحتاج فقط إلى إصلاحات بسيطة لتظل على قيد الحياة. إذن من الصعب تقرير أي من هذه الآراء هو الصائب. وعلى الرغم من معرفة القارئ أنني لست خبيراً اقتصاديا فيمكن أن أدلي بدلوي.

إن تقارير إدارة الضمان الاجتماعي (تقرير الأمناء في ٣٠ آذار لعام ١٩٩٩) تقول إن الضمان الاجتماعي سيفلس في سنة ٢٠٣٤ والجزء الخاص منه بضمان المستشفى في برنامج الرعاية الصحية سيصبح مفلسا في عام ٢٠١٥ . إن المصاريف هنا أعلى من الضرائب التي تجمع لدعمها وهذا الوضع سيستمر. وهكذا فان كلفة هذه البرامج والتي تبلغ

٧٪ من الناتج المحلي العام حاليا سترتفع إلى ١١.٧ ٪ في سنة ٢٠٣٠. وفي سنة ٢٠٢٥ سيصبح مطلوبا من صندوق الضمان الاجتماعي أن يدفع ٨٦ بليون دولار، وفي سنة ٢٠٧٥ ستصبح كلفة برنامج الرعاية الصحية ٤٥ ٪ أعلى من المبالغ التي ستدخل صندوقها. هذه الأرقام ليست مبنية على سيناريوهات تشاؤمية. وفي الحقيقة ستحتاج الدولة في عام ٢٠١٤ إلى مبالغ كبيرة لتستطيع دفع المعونات المالية. وهكذا فإن تقرير مجموعة بحث تابعة للكونغرس يقول "إن المستقبل لا يترك لنا شيئا نتفاءل به "، والرأي العام يعكس هذا الشيء. إن أقل من ٥٠ ٪ من الشعب الأمريكي يعتقدون أن الضمان الاجتماعي سيتمكن من مواجهة التزاماته البعيدة المدى، وفي نفس الوقت فإن ثلثي الذين أعمارهم أقل من ٥٥ سنة لا يثقون بأن نظام الضمان الاجتماعي سيفيدهم. ما سبب هذه الحالة؟ الجواب واضح. نحن أمة تسير نحو الشيخوخة. في سنة ٢٠٢٥ سيزيد عدد أولئك الذين أعمارهم الخامسة والستون فما فوق ٧٥ ٪، بينما سيرتفع عدد العاملين الذين يدعمون نظام الضمان الاجتماعي ١٣ ٪، والتناسب بين عدد العاملين ومتلقي معونات الضمان الاجتماعي هي ٣.٤ : ١، وسوف ينخفض هذا التناسب إلى ٢ : ١ في سنة ٢٠٣٥. إن البرامج "الثلاثة الكبار" في نظام دعم الدولة المالي ـ الضمان الاجتماعي، والرعاية الصحية، والمعونة الطبية ـ ستصبح وبسرعة عبئا على الدولة لأن الكلفة مرتبطة بشكل مباشر بشعب يسير نحو الشيخوخة.

وأكثر التقارير تشاؤما من تقارير الهيئة الإدارية لنظام الدولة للدعم المالي يبين أن في سنة ٢٠٤٥ سيكون ٥٣ ٪ من الرواتب الكلية

الخاصة للضريبة في الولايات المتحدة غير كافية إلا لتغطية مدفوعات الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية فقط دون المعونة الطبية؛ بينما في سنة ١٩٥٠ كان هناك ١٧ عاملا يدعمون كل متقاعد. ويحتمل أن ينخفض رقم الـ ١٧ إلى عامل واحد. وسيكون النقص في الأموال ٢٣٢ بليون في ٢٠٢٠. ونلاحظ أن متوسط العمر يرتفع أكثر من التوقعات السابقة، بينما ينخفض عدد المواليد بسرعة أكبر مما كان يعتقد. وسيصل عدد المتقاعدين في سنة ٢٠٥٠ إلى ٨٠ مليون شخص. وهكذا فإن نظام دعم الدولة المالي لا يمكن تعزيزه، وهو قليل جدا، ولا يمكن إلا أن ينتهي بانهيار كامل.

وأخيرا يمكن القول إن تقييم هنري آرون وروبرت ريشاور من معهد " بروكينكز (العد التنازلي للإصلاح) يعزز كثيرا من المعطيات والأرقام المذكورة آنفا، ولكنه يعتقد أن تشبيه وضع نظام الدولة للدعم المالي بوضع "الصوص الصغير" ليس صحيحا أبدا. لا يوجد أزمة حتى سنة ٢٠٣٤، ويمكن إنقاذ برنامج الضمان الاجتماعي في صورته الحالية بإجراء تخفيضات على المعونات وزيادة الضرائب زيادة معقولة، وجعل أهلية تلقي معونات الضمان الاجتماعي في عمر أعلى، ووضع ضريبة على مدخرات هذا البرنامج مثل أي تقاعد آخر. إن المشكلة كما يقول المؤلفان هي أن استطلاعات الرأي العام تكشف عن دعم صغير جدا لهذه السياسات، لذلك فالحل الوحيد هو البدء باتخاذ مثل هذه الإجراءات بالتدريج وتجنب معارضة الناس.

ما هو حجم الصعوبات التي نعانيها إذن؟ هل نحن، كما يقول جوزيف تينتر، سائرون بسرعة نحو المردود الهامشي المتناقص، أو كما

يقترح آرون وريشاور أن قرع جرس الإنذار لهذه الحالة غير مبرر؟ وكما قلت سابقا، على الرغم من أنني لست خبيرا ولكنني أستطيع القول :

١- النظرة الاستشرافية للمستقبل تدعو إلى التفاؤل كما يقول تقرير الهيئة الإدارية لبرنامج الضمان الاجتماعي.

٢- نحن نسير بخطوات حثيثة نحو الشيخوخة، بينما يتناقص معدل الولادات، ويحتمل أن نصل في نهاية هذا القرن إلى وضع يصبح فيه التناسب بين عدد العاملين وعدد متلقي برامج الرعاية التي تقوم بها الدولة ١:١ . وهذا سوف يتطلب إجراءات جذرية، ولكن، كما يقول مؤلفو بروكينكز، إن الأمريكيين لا يريدون ضرائب أعلى ولا منافع أقل، حتى في حالة الإجراءات المتوسطة التأثير، فكيف إذا كانت الإجراءات جذرية؟

٣- هناك شيء يبدو أن الجميع يوافقون عليه هو أنه إذا أردنا أن ننظر بشكل عقلاني إلى التاريخين ٢٠١٥ ٢٠٣٤ ونقول لا يزال لدينا متسع من الوقت، علينا أن ندرك أن العامل الأساسي وراء ما يسمى الوضع الصحيح الذي نحن فيه هو النمو الاقتصادي القوي الذي حدث في هذا البلد منذ ١٩٩٥. هذا بالضبط ما يقوي نظام دعم الدولة المالي، لأن مثل هذا النمو يزيد العائدات (الضرائب على سلم الرواتب) التي تدخل في صندوق الضمان الاجتماعي وصندوق الرعاية الصحية. المتاعب الحقيقية هي أن الرأسمالية تعمل في تذبذبات صعودا وهبوطا، وكما يقول تقرير لجنة الأمناء لبرامج الرعاية الاجتماعية هذه " لا نستطيع أن نعتمد على النمو الاقتصادي بتيقظ، ولا نستطيع أن نتوقع مستقبله بشكل عقلاني. وباختصار يبدو أن هناك انكماشا بنيويا في صلب الرأسمالية سيحدث في القرن الواحد والعشرين".

إن النقطة الأخيرة هذه هي الأساسية كما أعتقد. ويقول بيتر بيرسون في كتابه " الفجر الرمادي " إن مجموع الإنفاق على الضمان الاجتماعي، والرعاية الصحية، والمعونة الصحية والرواتب التقاعدية الاتحادية للمدنيين والعسكريين ستؤمن العائدات الاتحادية الكلية في سنة ٢٠٣٠. وقد ارتفعت نسبة الدَين القومي بين ١٩٨٠ و ١٩٩٠ من ٣٤ ٪ من الناتج القومي إلى ٥٩ ٪ منه. وقد بلغ الدين في ١٩٩٦ ٥تريليون دولار، وبلغت الفائدة على هذا الدين سدس الميزانية القومية. وأنا أشك في مقولة أن النمو الاقتصادي المستمر هو فقط الذي يستطيع أن يحد من هذا الدين وفوائده الباهظة، ولا أعتقد أننا يمكننا أن نعتمد على إمكانية حدوث هذا. إذن تبقى الدقة في أطروحة تينتر التي تنطبق على الولايات المتحدة غير واضحة. وإحساسي هو أننا سنعاني من صعوبات خطيرة في منتصف القرن القادم.

العامل الثالث هو انهيار العقل. إليك أيها القارئ هذه المعلومات الصحيحة عن أمريكا مع العلم أنها ربما تبدو ملفقة. ٤٢ ٪ من الكبار لا يستطيعون تحديد مكان اليابان على خريطة للعالم، طبقا لما قاله غاريسون كيلر (محطة الإذاعة القومية في ٢٢ آذار ١٩٩٧). وهناك استبيان آخر كشف عن أن ١٥ ٪ لا يستطيعون تحديد مكان الولايات المتحدة نفسها. "هذا مثل عدم قدرتك على أن تمسك مؤخرتك بكلتا يديك" واقترح أن نتوقف عن الكد والاجتهاد في دعوة الناس للذهاب إلى صناديق الانتخاب.

وقد كشف استطلاع في ١٩٩٦ أن شخصا واحدا من كل عشرة أشخاص لم يعرف من هم المرشحون الجمهوريون لمنصب الرئيس من كلا

الحزبين الجمهوري والديمقراطي. وهذا واقعي إذا علمنا أن واحدا من الأسئلة التي تسأل في عيادات التحليل النفسي كجزء من اختبار شخص ما لمعرفة ما إذا كان مصابا بالجنون أم لا هو "من هو رئيس الولايات المتحدة؟"

قلة قليلة من الأمريكيين يفهمون إلى أي درجة صادرت الاحتكارات حياتهم. ولكن طبقا لاستطلاع أجرته مجلة تايم فان ٧٠ ٪ من المستطلعة آراؤهم قالوا إنهم يؤمنون بوجود الملائكة. وقد كشفت دراسة أخرى أن ٣٤٪ من الذين سئلوا يؤمنون بوجود مخلوقات من أكوان أخرى على سطح الأرض. وقد أجرت مؤسسة غالوب استطلاعا أعلنت عنه ال سي. إن. إن في ١٩٩٧، كشف عن أن ٧١ ٪ من المستطلعة آراؤهم يعتقدون أن الحكومة الأمريكية تعتّم على وجود هؤلاء الغرباء من عوالم أخرى. وقد قال ٣٠ ٪ من الذين سئلوا أنهم اتصلوا بأشخاص متوفين منذ زمن.

وتحدثت مقالة في النيويورك تايمز في سنة ١٩٩٥ عن نتائج استطلاع كشف أن ٤٠ ٪ من الكبار (يمكن أن يصل هذا إلى ٧٠ مليون شخص) لم يعرفوا أن ألمانيا كانت عدو الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية. وقد أجرت مؤسسة روبر استطلاعا في ١٩٩٦ كشف أن ٨٤ ٪ من طلاب الجامعة في السنة أو السنتين الأخيرتين من الدراسة لم يعرفوا من كان رئيس الولايات المتحدة عند بداية حرب كوريا (هاري ترومان)؛ و٥٨ ٪ من طلاب المدارس الثانوية في المراحل العليا لا يستطيعون فهم كلمة العدد في أي جريدة.

وقد كشف استطلاع آخر أجرته وزارة التعليم على ٢٢ ألف طالب

في عـام ١٩٩٥ أن ٥٠ ٪ منهم لم يكونوا مـدركين لوجـود شيء اسـمـه الحرب البـاردة، وأن ٦٠ ٪ لم يعرفـوا كـيف تأسـست الولايات المتـحدة. لقـد دعـا جي لينو عـددا من طلاب المدارس الثـانوية ليـتـحـدثوا على برنامجه التليـفزيوني. فقد طلب منهم أن يكملوا بعض الاستشهادات من وثائق أمريكيـة رئيسة مثل خطابي غـيتسبرغ وإعلان الاستقلال. كان جـواب الطلاب في الحـالتين النظر إليـه بغـبـاء دون أن يعرفـوا أي شيء. وكنوع من المتابعـة، ففي برنـامجه في ٣ حزيران سنة ١٩٩٩ عـرض لينو شريط فـيـديو لعدة مقابلات مع طلاب جـامعـيـين في حفل تخـرجهم ولم يعّرف المشاهد باسم الجامعة. وقد أخبر جمهوره أن الطلاب الذين قابلهم كـانوا مـن الخريجين والذين لم يتـخرجـوا بعد، وضم رجـالا ونسـاء بيـضـا وملونين. وقد طرح لينو ثمانية أسئلة على الشكل التالي :

١- من صـمم أول علم أمـريكي؟ ضـمت الإجابات سـوزان أنطوني (ولدت في ١٨٢٠) و بيتسي فورد.

٢- مم كانت الثلاث عشرة مستعمرة خالية بعد الثورة الأمريكية؟ قال طالب " الساحل الشرقي ".

٣- ماذا كان خطاب غـيتسبرغ؟ قال طالب " خطاب لغيـتي " وقال آخر " لا أعرف الخطاب الدقيق "

٤- من اخـتـرع المصـبـاح الكهـربائي؟ شـملت الإجـابات تومـاس جيفرسون.

٥- ما هو مربع الثلاثة؟ قال طالب "سبع وعشرون" وقال آخر "ستة".

٦- مـا هي درجـة غليـان المـاء؟ اشـتـملت الأجـوبة على ١١٥ درجـة فهرنهايت.

٧- كم تستغرق الأرض لتدور مرة حول محورها ؟ الإجابتان اللتان تلقاهما لينو هنا كانتا "سنوات ضوئية" (والذي هو قياس مسافة وليس زمنا) و "أربعا وعشرين محورا ".

٨- كم قمرا مرتبطا بالكرة الأرضية؟ أجابت الطالبة التي سئلت أنها درست مقررا لعلم الفلك قبل عدة سنوات وحصلت على درجة A فيه، ولكنها لا تتذكر الجواب الصحيح.

ومن المهم أن أشير أنه لم يقدم أي طالب إجابة صحيحة على أي من هذه الأسئلة. علق لينو على هذه الكارثة المحزنة معبرا بوضوح تام عن حالتنا "والصينيون يسرقون أسرارا منا ".

وقد كشف استطلاع أجراه مركز الدستور القومي في عام ١٩٩٨ أن ٤١ ٪ من المراهقين يستطيعون أن يسموا فروع الحكومة الثلاث، بينما ٥٩ ٪ يستطيعون أن يسموا الثلاثة ممثلين الثانويين. ٢٪ فقط استطاعوا أن يسموا رئيس المحكمة العليا، و٢٦ ٪ لم يعرفوا من هو نائب الرئيس الأمريكي. وفي ١٩٩٠ كشف تقرير عن التقييم القومي لتطور التعليم أن ٥٠ ٪ من الذين عمرهم سبعة عشر عاما لم يستطيعوا أن يضعوا الحرب الأهلية في نصف القرن الصحيح - معلومات قالت عنها جريدة سانت أنطونيو اكسبريس نيوز أنها دليل على المرض العقلي الذي أصاب الثقافة الأمريكية. وفي دراسة أخرى لمجموعة في عمر السابعة عشرة، استطاع ٤٪ منهم فقط أن يقرأوا جدول رحلات الباص، و١٢٪ أن يرتبوا اثني عشر كسرا من الأصغر حتى الأكبر أو العكس.

إن جهل الأمريكيين في سن العشرين فصاعدا لأبسط الحقائق

العلمية يثير الدهشة حقا. ففي استطلاع أجري لصالح الهيئة العلمية القومية في تشرين أول سنة ١٩٩٥، تبين أن ٥٦ ٪ من الذين سئلوا قالوا أن الاليكترونات أكبر من الذرات، وقال ٦٣ ٪ أن أقدم سلالة من البشر عاصرت الديناصورات (خطأ زمني بأكثر من ستين مليون سنة)، وقال ٥٣ ٪ أن الأرض تدور حول الشمس إما في يوم أو في شهر (هذا يعني أن ٤٧ ٪ فهموا أن الجواب الصحيح هو سنة واحدة)، ٩١٪ لم يستطيعوا أن يقرروا ما هو الجزيئ. استطلاع آخر على الهاتف لأكثر من ألفي شخص أجري من قبل جامعة شمال الينوي كشف أن ٢١٪ اعتقدوا أن الشمس تدور حول الأرض، وكان هناك ٧ ٪ لم يعرفوا أيهما يدور حول الآخر.

ومن بين ١٥٨ دولة في الأمم المتحدة جاء ترتيب الولايات المتحدة التاسع والأربعين في نسبة الذين يجيدون القراءة والكتابة. وهناك ٦٠٪ من الأمريكان لم يقرؤوا أي كتاب في حياتهم، و ٦ ٪ يقرؤون كتابا واحدا سنويا، على أن الكتاب يشمل بالتعريف قصصا رومانسية مثل قصص هارليكوين وأي كتيب يستطيع أي قارئ أن يقرأه ويفهمه بشكل ذاتي. حوالي ١٢٠ مليون هم أميون أو أنهم يقرؤون بمستوى صف خامس ابتدائي. وبين القراء من عمر ٢١ إلى ٣٥، ٦٧ ٪ كانوا يقرأ ون جريدة يومية بانتظام، بالمقارنة مع ٣١ ٪ في عام ١٩٩٨.

وفي استطلاع آخر أجري على الهاتف في عام ١٩٩٨، ١٢ ٪ من الأمريكيين أجابوا على سؤال " من كانت زوجة النبي نوح كما ورد في التوراة؟ " بأنها جون أوف آرك. وقد بث ذلك عبر الإذاعة القومية في ١٣ حزيران عام ١٩٩٨. وفي ١٩٩٧، وكخدعة، قدم النائب العام في

ولاية ميسوري اقتراحا لهيئة أكاديمية عالمية غير معروفة تقوم بالاعتراف بأن مستوى جامعة ما هو مستوى جامعي، لتأسيس كلية سمّاها كلية إدارة أعمال شرق ميسوري، والتي ستمنح شهادة الدكتوراه في علم الأحياء البحرية وعلم الهندسة الوراثية بالإضافة إلى إدارة الأعمال. ستضم الكلية، من بين أشخاص آخرين، مو هاوارد وجيروم هاوارد ولاري فاين ـ أي الثلاثة ممثلين الثانويين ؛ وكان الشعار المقترح على ختم الكلية، مترجما عن اللاتينية، " التعليم للطيور" ماذا كانت الاستجابة؟ لقد اعترفت الهيئة الأكاديمية المذكورة بالكلية المقترحة.

لقد أذيعت هذه القصة على البرنامج الإذاعي "حديث عن السيارات" الذي أشرفت عليه الإذاعة القومية، ولست متأكدا من صحتها. القصة نفسها يمكن أن تكون خدعة. ولكنني يجب ألا أصرف النظر عنها بشكل تلقائي على أنها نكتة. فيمكن أن تكون صحيحة، حيث أن الغموض صفة العصر. ففي ١٩٩٨ قرر مجلس التعليم في ماساشوستس اختبارا في القراءة والكتابة للمعلمين يعادل مستواه اختبار معادلة شهادة الدبلوم بعد المدرسة الثانوية. ٥٩ ٪ من المعلمين الذين أخذوا الاختبار سقطوا فيه. ورداً على هذه النتيجة فإن مفوض التعليم المؤقت، ويدعى فرانك هايدو الثالث أعلن عن تخفيض درجة النجاح. قام مجلس التعليم بعكس القرار، ثم استقال المفوض. وقد كان لدى الـ ٥٩ ٪ من مجموعة المعلمين الكبيرة مشكلات في الهجاء وإشارات التنقيط. وقد صرح مسؤول في المجلس أن هذه المشكلات ليست عائقا يمنعهم من أداء عملهم. إن هذه المشكلات مؤشرات دقيقة على فترة انحطاط أمتنا.

وفي مجال مشابه، فقد اكتشف مجلس الكلية الذي يشرف على اختبار خريجي الثانوية المتقدمين إلى الجامعة اكتشف أن الدرجة الشفهية للنجاح انخفضت من ٤٧٨ درجة في ١٩٦٣ إلى ٤٢٤ في ١٩٩٥ (هذا على سلم من ٢٠٠ إلى ٨٠٠)، ثم وُضِعَ متوسطٌ حسابي للدرجة بحيث أصبحت درجة الـ ٤٢٤ ٥٠٠ والـ ٧٣٠ باتت ٨٠٠ . وطبقا للوول ستريت جورنال في ٣١ آذار عام ١٩٨٩ فان ١٠ ٪ فقط من المتقدمين في شيكاغو كانوا في أقل مستوى مطلوب بمعرفة القراءة والكتابة من أجل أعمال كتبة في البريد. وقد قالت شركة موتورولا الاحتكارية إن ٨٠ ٪ من كل المتقدمين على مستوى الولايات المتحدة سقطوا في اختبار اللغة الإنكليزية المعد للصف السابع وفي اختبار الرياضيات المعد للصف الخامس الابتدائي.

إن قصص الرعب هذه تضاعفت في نظامنا التعليمي وثقافتنا بوجه عام بمعدلات مخيفة تتأكد بملاحظتنا العابرة يوميا. وكأن أمريكا أصبحت آلة عملاقة لصناعة البله والأغبياء. ونرى الآن كلمات عامة مكتوبة خطأ على السي. إن. إن مثلا، أو على ملصقات أسماء السلع المختلفة في مراكز التسوق. وهذه قائمة بوقائع شخصية.

١ - مطعم فخم تناولت طعام الغداء فيه في سولت ليك سيتي، له لافتة أنيقة محفورة في الخشب وعليها ساعات العمل، ولكن كلمة " الأحد " مكتوبة Sundy بدلا من Sunday. لافتة فوق باب عيادة في واشنطن دي. سي. كتب عليها "رعاية للرضع والأطفال والكبار " كتبت كلمة " أطفال" childern بدلا من children.

٢ - لقد قمت بزيارة عدة فصول دراسية تعلم كيف تكون الكتابة

المبدعة في كلية جامعية في الغرب الأوسط. اكتشفت أنه لم يسمع بالشاعر روبرت براوننغ ولا طالب واحد، بينما كنت أتمرن على حفظ قصيدته " دوقتي الأخيرة " عندما كنت في المدرسة الثانوية. لقد أخبرنا أحد الزملاء في هذه الكلية أن واحدا من طلابه عمره عشرون سنة قال له إنه لم يقرأ رواية في حياته.

٣ - لقد شهدت على مدى ثلاثة عقود من التعليم عدم قدرة متعاظمة عند معظم الطلاب الجامعيين على تحليل مناقشة ما، أو التعرف على دليلٍ لحجة ما، أو بناء جملة متماسكة و متسقة نحويا. كان الطلاب يكتبون لي مقالات فيها جمل "في هذه المقالة I are going بدلا من I am going وعندما سألت الطالبة عن لغتها الأولى قالت الإنكليزية.

٤ - في جريدة بورتلاند أوريغونيان في ١٠ نيسان ١٩٩٨ وتحت عنوان " أحداث أدبية "، كُتِبَ " "اسمع كلمات من وليام بتلر ييتس ، وروبرت فروست و تي. اس. اليوت تقرأ allowed بدلا من aloud". مثل هذه الملاحظة هي بحد ذاتها حدث أدبي.

٥ - لقد اتصلت هاتفيا بقسم العملة الأجنبية في بنك تجاري مشهور لأسأل عن معدل التبادل بين الغيلدر الهولندي والدولار الأمريكي. لم تستطع الموظفة أن تجد كلمة هولندا في قائمة الدول لأنها كانت مكتوبة تحت Netherlands. وقد سألتني الموظفة "هل هولندا والدانمارك اسمان لنفس البلد؟"

٦ - طالبة جامعية في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة كتبت مقالا لجريدة الكلية. لم يتجاوز المقال الـ ٢٥٠ كلمة. كان هناك سبعة أخطاء نحوية فيه.

٧ - لقد خضعت لاختبار مقابلة من أجل الحصول على عمل كمحرر مطبوعات في هيئة قومية للتعليم العالي. كان شعار الهيئة المعلن هو تطوير نوعية تعليم الفنون الليبرالية (الحرة). ولكنها لم تقصد بهذا الحفاظ على أي منهاج أو مستوى أكاديمي، ولكن نقل الطلاب إلى "عمل اجتماعي" (لم يعرّف بوضوح)، والحصول على مهارات عملية للقيام بأعمال في القرن الواحد والعشرين. (ولهذا الغرض الهيئة تلقت معونات مالية كبيرة). وخلال المقابلة تكلمت عن موضوع الثقافة من أجل الثقافة، من أجل أن يعرف المتعلم ما الذي يجعله متعلما، وما الذي يجعل المجتمع مجتمعا. لقد حدقت إلي المرأة التي كانت تقابلني للحظة وقالت "حسنا، إذا كان يهتم المرء بحياة عقلية معزولة عن الآخرين " قلت إن هذا التعليم لا يؤدي بالضرورة إلى ذلك. فقالت " ماذا إذن يفيدنا مثل هذا التعليم؟ " فقلت لزميل يجاورني " حسنا، بشكل مثالي على الأقل، مثل هذا التعليم يغير إدراكنا وهدفه هو تغيير الذات. يصبح الطلاب بعد ذلك عمليين، ولديهم فهم أكبر للعالم الذي يعيشون فيه ". لقد أومأت المرأة التي تقابلني بنعم، وكان يبدو أنها لا تفقه شيئا عما أتكلم. وأعتقد أنها قائدة في حقل التعليم العالي. ولا يوجد لديها أي فكرة عن التعليم الحر (الليبرالي). وبينما لا يوجد لي أي تأثير على التعليم العالي، فان تأثير أمثالها كبير جدا.

وهكذا فإن الطالب، وبتأثير مثل هؤلاء الناس، لا يتعلم فقط أن يسخر من التعليم الليبرالي الحر لأنه ليس عمليا، بل لا يسمع بهذه الفكرة أصلا.

إن إعادة توزيع الثروة الآنفة الذكر في الولايات المتحدة تعكس

تغيرا زلزاليا في المجتمع الأمريكي. وهناك تغير آخر في محتوى مواقف الأمريكان وقدراتهم الفكرية. وفي مقابلة مع بيتر كيوت في الإذاعة القومية في ١٩٩٥، ألمح هذا الممثل إلى "عداء" الأمريكان الكبير الذي يكنونه " نحو الفكر" والذي أصبح جزءا من الحضارة الأمريكية. فكّر أيها القارئ بالاستعمال المتكرر والدقيق لعبارة " تخبيل" الناس، أي تحويلهم إلى مخبولين أو مهابيل، في الأحاديث والنقاشات اليومية في الصحافة. إن تمجيد الجهل الذي يميز أمريكا اليوم يمكن أن يُرى في النجاح الهائل لفيلم مثل "فوريست غمب" حيث ينظر إلى معتوه على أنه بطل ؛ أو فكّر في المسلسل التلفزيوني الذي لاقى رواجا كبيرا، "تشيرز"، حيث يصور الاهتمام الفكري من أي نوع كان على أنه مزور وادعائي، بينما يصور الغبي على أنه على قدم المساواة مع صاحب القلب الطيب. وإذا كان لدى زميلي في إحدى جامعات الغرب الأوسط المذكورة آنفا طالب لم يقرأ رواية في حياته، فكم سيمضي من الزمن قبل أن يأتيه طالب من طلابه ويسأله "ما هي الرواية؟" (وبالفعل هناك ملايين الأمريكيين الذين لا يعرفون الفرق بين الكتابة الأدبية وغير الأدبية). وإذا كان الطلاب لا يعرفون الشاعر براونينغ الآن، فكم سيمضي من الزمن قبل أن يقولوا بأنهم لم يسمعوا بشكسبير؟ كم سيمضي من الزمن قبل أن تتوقف النيويورك تايمز والواشنطن بوست عن العمل بسبب ندرة المشتركين، أو قبل أن تصبح اللغة الإنكليزية غير مفهومة لغالبية الأمريكان مثلما هي لغة تشوسر غير مفهومة لهم الآن؟ كم سيمضي من الزمن قبل أن تعتبر الإثارة الفكرية ظاهرة تاريخية، أو توجها عقليا شاذا ؛ أو أنها لا تؤخذ بعين الاعتبار أبدا؟

يلاحظ جون سيمون في مقدمته لكتاب "تحويل الناس إلى مهابيل: مقالات حول تشريح الحضارة الأمريكية" أن عالَماً كاملاً من الثقافة والعلم يتلاشى أمام أعيننا خلال جيل واحد فقط. لم نعد نستطيع أن نشير إلى رمز ميثولوجي، أو أن نستعمل عبارة أجنبية، أو أن نشير إلى حادثة تاريخية مشهورة أو شخصية أدبية، ونظل مفهومين من قبل حتى القلة من الناس. (حاول هذا في أي مجال ولاحظ رد الفعل. هذا اتصال هاتفي ممتاز لإيقاظ الأمريكان كي يدركوا فحوى حضارتهم وكم هم غرباء عنها). وبالفعل فإن استعمال معايير لويس لابهام للقدرة على القراءة والكتابة الحقيقية ـــ أن تكون بعض النصوص المشهورة لدى المتعلم مألوفة (نصوص لماركس، داروين، ديكنز) ؛ وأن يكون لديه القدرة على معرفة التهكم في الأسلوب ـ تمكننا من القول إن فلانا متعلم. وهكذا يمكن أن يكون عدد الكبار الذين يعرفون القراءة والكتابة في أمريكا أو الذين يمكن أن نقول عنهم إنهم متعلمون حسب معايير لابهام خمسة ملايين إنسان ـ هذا يعني أقل من ٣ ٪ من عدد السكان.

في عام ١٩٥٣ نشر ري برادباري " فاهرنهايت ٤٥١ " وقد حوّله فرانسوا ترافو إلى فيلم في ما بعد. إنه يصف مجتمعا مستقبليا انهارت فيه الحياة الفكرية ومنعت قراءة الكتب بالقانون. يجلس الناس متحلّقين حول شاشات (يشار إليها ك " الأسرة ") ويأخذون المهدئات. والآن وبعد هذا الوصف بخمسة عقود، أليست هذه هي النقطة التي وصلنا إليها ؟ ألا تشير المعطيات المذكورة آنفا إلى أن معظم جيراننا هم في الحقيقة أجهزة لا عقل لها وقد صورت من قبل في فيلم ترافو؟ صحيح أن القصة تحتوي على فئة من " أناس يهتمون بالكتاب فقط؛ إنهم يختبئون في

الغابة ويقرؤون الأعمال الكلاسيكية ويحفظونها غيبا لينقلوها إلى الأجيال القادمة" ـ وهذا يزودنا بلمحة عما يمكّن حضارتنا من أن تشفى أخيرا ـ ولكن غالبية المواطنين في القرن الواحد والعشرين يشاهدون التلفاز بمعدل أربع ساعات يوميا وربما يقرؤون رواية لدانيال ستيل كل سنة.

كيف حصل كل هذا؟ ما هي أسباب مثل هذه الحالة؟ "هل كنا البلهاء أمام التلفاز؟" يسأل أحد الشخصيات في " الضجة البيضاء " للمؤلف ديليلو. هذا جزء كبير من المسألة طبعا وهو يذهب أبعد مما بيّن نيل بوستمان في " تسلية أنفسنا حتى الموت " وكثيرون غيره : أن محتوى برامج التليفزيون يفترض جمهورا من المغفلين. إن هذا المحتوى يتطلب من المشاهد أن يركز لفترة لا تزيد عن عشر ثوان ويعوده على ذلك، ويجعله يعتقد أنه يمكن أن يتعلم من خلال الصور. هذه المشكلات تصيب الأنترنيت أيضا ومعظم الاتصالات التي يتم تشغيلها بالمايكرو تشب. ولكن بمتابعتنا للعاملين الأول والثاني من مجموعة العوامل الأربعة الآنفة الذكر التي تمثل اضمحلال حضارتنا المستمر، نقول إن عدم المساواة في الثروة، والمردود الهامشي المتناقص للاستثمار في الإدارة والتكنولوجيا المعقدة يخلقان وضعا يؤثر بشكل سيئ على نظام التعليم والإنتاج الفكري. وأول ما يؤديان إليه هو انحلال وتفسخ النظام المدرسي العام، وضياع قاعدته الاقتصادية. وأريد تسجيل بعض الملاحظات العامة هنا. عندما تخرجت من المدرسة الثانوية في عام ١٩٦٢، كان يعتبر رمي القاذورات في الممرات سلوكا مشينا يستدعي العقاب. وبعد عشر سنوات وفي نفس المدرسة، اغتصبت طالبة في وضح النهار، وقد

ساء الوضع مع السنين، وفي آواخر ثمانينيات القرن العشرين صار الطلاب يحضرون أسلحة إلى المدرسة، وكان يقتل أحدهم من وقت لآخر. وفي آواخر التسعينيات شهدنا جميعا مذابح (نحو الثمان مذابح) في فترة سنتين. من يمكن أن يكون مهتما بدراسة الدستور في مثل هذا الجو العام، والذي يبدو الآن نكتة على أي حال؟ لقد أصبح المدرسون عمليا موظفي حفظ نظام بين الطلاب ليس إلا. وإذا كنتُ قد حفظتُ روبرت براونينغ عندما كنت في السادسة عشر، فإن معظم طلاب الجامعة الآن لم يسمعوا به. وفي مدارس الخريجين التي هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يطلع الطلاب فيه على أعمال شاعر مثل براونينغ، فهم يُدرِّسون أن مثل هذه الأعمال لا قيمة جوهرية لها وهي ليست إلا عبارة عن تعبير طبقة ثرية من الذكور " المستعمرين" البيض الأموات.

حتى وراء عصر ما بعد الحداثة الذي نعيشه، فإن وضع الكلية والجامعة في الولايات المتحدة انتهى إلى ما يشبه وضع الكنيسة في أواخر القرون الوسطى، حيث كانت تبيع صكوك الغفران (اقرأ شهادات الدبلوم) لكي يصعدوا إلى السماء (اقرأ إعلانا عن وجود عمل ذي أجر جيد). لقد أصبحت هذه القاعدة في آلاف كليات التعليم العالي، حيث إن درجة "ب" تعتبر درجة وسطى أو أقل قليلا، بينما تمنح درجات الـ "أي"بشكل أوتوماتيكي إغراءً للطلاب الجدد بالتسجيل في مثل هذه الكليات أو الجامعات لأنها تعتمد على أموال التسجيل. هناك واحدة من أكثر الوقائع التي تثير الحزن وهي كتاب بيتر ساكس" الجيل إكس يلتحق بالجامعة " الذي يوثق كيف أن التعليم العالي قد تحول إلى تسلية، وكيف يدافع الإداريون عن حق الطلاب في هذه التسلية دفاعا

أكبر من رغبتهم بالمحافظة على مستويات أكاديمية عالية. وبعد أن أوشك على أن يخسر عمله نتيجة للمحافظة على المستوى الأكاديمي العالي، فإن ساكس (وهو الاسم المستعار للكاتب) استطاع أن يجدد عقد عمله بمعاملة طلابه بسخرية وباستمرار معاملة أطفال حضانة موزعين في مجموعات لعب. وبين عشية وضحاها تحول تقييمه لطلابه من تقييمه السلبي السابق إلى تقييم يعتبرهم طلابا أذكياء ومتفوقين، وهكذا فقد أصبح يعتبر من أثمن أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية من قبل إدارتها المدفوعة فقط بالخط الأساسي للتعليم والذي هو الربح فقط. لقد استطاع الاستمرار في عمله بتدمير التعليم الذي يفترض أنه استُخدِمَ ليقوم به، وما حصل له ليس فريدا. وكما اكتشف العديد من أعضاء الهيئة التدريسية أن المدرس يمكن أن يثير العداء الحقيقي للطلاب بمجرد أن يدرس المادة المقررة، وأن العديد من الطلاب يعتقدون (وهذا الاعتقاد صحيح) أن الطاقم الإداري للكلية ـ الذي يقوم بتقييم نتائج اختبارات الطلاب في المقررات الجامعية ـ سوف يعاقب المدرسين الذين يريدون منهم الاستيعاب الجيد لهذه المقررات. ويلاحظ بول تراوت، الذي يدرس اللغة الإنكليزية في جامعة مونتانا الحكومية، أن الهيئة الإدارية للجامعة تطلب من الطلاب أن يصنّفوا مدرسيهم حسب معايير مثل " قدرة المدرس على إثارة اهتمامهم وتسليتهم والاهتمام بهم. "إنها لا تسأل الطلاب عما إذا كانت المقررات الجامعية تتطلب بذل جهد كبير، أو أنها تثير فيهم تحدياً لا يمكّنهم من استيعاب ما يدرسون، أو أن سلم الدرجات صعب جداً، أو ما إذا كانوا قد تعلموا الكثير.

وقد قيّم مارك إيدمونسون من جامعة فيرجينيا في مجلة هاربر في

١٩٩٧ التعليم الجامعي تقييما مماثلا. يقول إن طلابه كانوا يقيمونه بشكل إيجابي بسبب شخصيته المحببة في الفصل ـ لطيف، وفكاهي، وغير متحيز، ومستقيم. وكانت " تتخلل أجوبة الطلاب على استمارة تقييم الطالب للمدرس نفحة خبرة استهلاكية هادئة، وكان لدى الطلاب شعور راسخ بأن عمل المدرس هو أن يسليهم ". ويقول إنه يرغب أن يسمع من طلابه كلاماً مثل " إن المنهاج قد غير حياتهم " ولكنه يعترف بأن ذلك كان سيتسبب في حدوث " مواجهة بينه وبينهم أو بينهم وبين المقررات "، وذلك سوف يكون ضده. والشيء العملي الذي اكتشفه هو أنه يجب على المدرس أن يكون "أنيسا، ودودا، مرشدا، كريما، مضحكا، ولا يمتاز بتماسك الشخصية أو الشدة أو الثقافة ". وما أهمية هذه الصفات؟ " أهميتها بالضبط هي أن التعليم الليبرالي الحر الآن لا جدوى منه ؛ ولأن الثقافة الجامعية، كالحضارة الأمريكية، مكرسة للاستهلاك والتسلية، ومكرسة لاستعمال واستهلاك السلع والأفكار. إن جوهر حضارتنا الاستهلاكية هو : اشترِ كي تكون ؛ والتعليم الجامعي يتحرك في نفس المدار. وكنتيجة لهذا فإن " الطلاب يُصدمون إذا لم يستجب المدرس لرغباتهم ". " إن علاقة الجامعة مع زبائنها هي علاقة عبودية، والتوجيه غير المعلن من قبل الهيئة الإدارية للجامعة أو الكلية هو: علّم الطلاب الأشياء التي تجذبهم أو اترك جامعتنا ". وهكذا فإن ادموندسون يتساءل "ماذا عن أقسام بكاملها لا تعلّم الطلاب أي شيء؟ "وإذا لم يرغب الطلاب في تعلم اللاتينية أو الإغريقية فهل هذا معناه الغاؤهما من المنهاج؟".

وهناك تيار بدأ في الولايات المتحدة منذ ستينيات القرن العشرين،

هو جزء من ظاهرة تحويل الناس إلى مهابيل. إن هذا التيار يؤثر سلبا على مختلف نواحي النشاط الفكري والتعليمي والثقافي بوجه عام. يصف جان فرانسوا ليوتارهذا التيار في كتابه "حالة ما بعد الحداثة "كما يلي : " إن المعرفة كسلعة معلوماتية لا يمكن الاستغناء عنها لقوة الإنتاج، كانت وستظل رهانا أساسيا ، أو ربما الرهان الأساسي في التنافس العالمي على امتلاك القوة. ومن الممكن تصور أن الدول سوف تتحارب يوما ما من أجل السيطرة على المعلومات، تماما مثلما تحاربت في الماضي للسيطرة على الأراضي، ومن ثم للسيطرة على طرق الوصول إلى واستغلال المواد الخام والعمل الرخيص . إذن لقد فتح مجال للاستراتيجيات الصناعية والتجارية من ناحية، وللاستراتيجيات السياسية والعسكرية من ناحية أخرى. وطبيعة المعرفة هي أنها لا يمكن أن تبقى كما هي ضمن إطار هذا التغيير العام. فيمكنها أن تتلاءم مع الأفنية الجديدة للتطور، وأن تصبح فاعلة عندما تترجم عملية التعلم واكتساب المعرفة إلى كميات من المعلومات. إن المبدأ القديم وهو أن اكتساب المعرفة لا يمكن فصله عن تدريب العقول، أو حتى عن تدريب الأفراد، يصبح غير ذي قيمة باضطراد. ذلك لأن المعرفة تنتج وسوف تنتج لكي تباع. إنها تستهلك وسوف تستهلك لكي تثبّت أسعارها في إنتاج سلع جديدة ، وفي كلتا الحالتين فالهدف هو التبادل ".

إن تحويل المعرفة إلى سلعة يفقدها بالضرورة نكهتها الخاصة بها. والأمثلة على ذلك كثيرة. في ١٩٥٩ قرر سنديكيت ستريتميار (شركة احتكارية) في نيويورك أن يتفّه سلسلة كتب هاردي بويز الشهيرة، التي كتبتها ليزلي ماكفارلين وهي مؤلفة كندية موهوبة. (السلسلة عبارة

عن مـجـمـوعـة من الكتب)، وكـانت النسخ الأصليـة من هذه الكتب متوسطة التعقيد لو ظلت موجهة لجمهورها المقصود دون تغيير. لكنها صيغت بلغة أسهل من اللغة التي كانت مكتوبة بها فشوهتها. وهكذا أصبحت مجرد حبكة لقصة شرطة ولصوص، وقد حذفت منها الكلمات التي تحتاج إلى قاموس. وحذف كل تعبير أو نص فيه غموض، واستبدلت بتعابير ونصوص لطيفة وسهلة وواضحة. ولم تثر مجموعة هذه الكتب بصياغتها الجديدة مراهقي الستينيات. وهكذا فقد أصبحت تافهة بتحويلها إلى علكة عقلية.

لقد تكلمت سابقا عن ظاهرة عدم المساواة الاقتصادية التي تتفاقم لأن النخب الغنية تجني أرباحا كبيرة من عملية الانحطاط الحضاري. وهذا ينطبق أيضا على عالم الفكر. يلاحظ كنت كارول الشريك في تأسيس مؤسسة كارول وغراف للنشر في نيويورك أن " عملية النشر الآن ليست أكثر من عملية تسويقية. فلا يشعر الناشرون بالتزام نحو القارئ أكثر من إعطائه الذي يريده، وهذا يعطي فرصة للسحر والمعجزات لكي تعيد اختراع نفسها ". لكن إعادة الاختراع هذه لا تتعلق بالحياة الجيدة بل باستلاب العقل. وهكذا فقد نشرت كتب تتجنب مواجهة القراء بحقائق صعبة لا يودون سماعها ومن غير المحتمل أن يُعكس هذا الاتجاه.

ومن المخيف أن نلاحظ في هذا الشأن أنه خلال بضعة أشهر في عام ١٩٩٧ توقفت دار النشر المسماة بوكس أند كومباني عن العمل وأُخرجت من السوق وهي واحدة من دور النشر العظيمة المستقلة المتبقية في نيويورك. وقامت دار نشر هاربر كولينز بإلغاء عقود أكثر من مئة مؤلف

من مؤلفيها وباعت قسمها الفكري المسمى " كتب أساسية " مع العلم أنه جوهرة أكاديمية. وقد كتبت النيويورك تايمز مقالة قالت فيها أن الكتّاب المتوسطين ـ أولئك الذين لا يكتبون لقوائم الكتب الأكثر مبيعا (والذين يبلغون ٩٩ ٪ من الكتاب الأمريكيين) ـ قد رفضوا الآن من قبل دور النشر الرئيسة التي فضلت الكتاب " النجوم " الذين يجعلون أسواق مبيعات الكتب تغص بالجماهير التي تتزاحم لشرائها (مثل جون غريشام وستيفن كينك وغيرهم).

لقد أصبحت حيازة الاحتكارات على الملكية الفكرية دراماتيكية، وقد نتج عنها أن حلَّ المستهلكون البلهاء محل المواطنين الأذكياء، وحدث تسطحٌ في المفاهيم العامة عند الناس. فطبقا للصحفي والخبير في وسائل الإعلام بن باغديكيان سيطر عشرون احتكارا على حوالي النصف من أحد عشر ألف مجلة تنشر في الولايات المتحدة في ١٩٨١، في حين انخفض عدد الاحتكارات المسيطرة على هذه المجلات الآن إلى ثلاثة. وفي الحقيقة إن ثلاثة وعشرين احتكارا فقط يسيطرون على معظم الأعمال في الصحف الأمريكية والأفلام والفيديو والكتب والصحف والمجلات ـ مؤسسات مثل بيرتلسمان، وجنرال اليكتريك، وبارا فاونت، وهيرسبت، وتايم ورنر. تايم ورنر الآن هو واحد من أكبر ناشري الكتب في العالم، وأكبر شركة موسيقية، وصاحب مجلات تايم، والناس، ونادي كتاب الشهر. ومع تي. سي. أي هو صاحب أنظمة تلفزيون الكيبل الذي يخدم ٤٧ ٪ من جمهور الكيبل، بما فيه ال اتش. بي. أو، والسي.إن. إن. وبالنسبة لهذه المؤسسات، كما قال وكيل أدبي حديثا، فإن بيع الكتب لا يختلف الآن عن بيع البوشار مثلا. وعندما تجعل

الاحتكارات الربح وليس أي شيء آخر القيمة الوحيدة في الحياة فإن الانهيار الفكري لأمة ما هو النتيجة الحتمية.

إننا نرى نتائج هذا في كل مكان، إذ أصبحت محلات بيع الكتب في المدن الجامعية محلات بيع للعب الأطفال، وهي تبيع أيضا نصوص المقررات الجامعية، وفناجين القهوة، وتماثيل الحيوانات. وتتكلم كارول كرايست، أعلى موظفة إدارية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي في لوحة إعلانات الشتاء الجامعية في ١٩٩٦ الخاصة باتحاد أقسام اللغة الإنكليزية عن" رفع عدد المدرسين الجامعيين بتشغيل مجموعات من المدرسين الذين يعملون كشركاء، [وعن] تقليص الاستثمار في تعليم الخريجين ".

إن الكتّاب الجادين محظوظون إذا ما تمكنوا من نشر مؤلفاتهم، لأن الأمريكان الآن قادرون على قراءة الكتب القصيرة فقط التي تشرح شعارات معينة أو إعلانات تعدهم بتحسين حياتهم بين عشية وضحاها. ويسرّع هذا الاتجاه عندهم شراء الاحتكارات لدور النشر المستقلة، مثل شراء بيرتلزمان لدار نشر راندوم هاوس في ١٩٩٨.

ولذلك فإن دار النشر بانتام ودابلدي التي يملكها بيرتلزمان تملأ السوق بكتب عن كيف تصبح غنيا، وكيف تعيش إلى الأبد، أو كيف تفقد الوزن الزائد ؛ أو تتحدث عن آخر " مكونات الحكمة " في العصر الجديد. إن معظم دور نشرَ الكتب في الولايات المتحدة هي في أيدي ستة احتكارات معظمها أجنبية. كل هذه التغيرات تعكس الحضارة التي يفرض على الانسان فيها ربح الاحتكارات والعقلية المتعلقة بهذا الربح. وبعد هذا لماذا نقرأ أو نحفظ براونينغ عندما تكون القيمة المالية للأشياء هي القيمة الوحيدة لها ؟

تسهم تكنولوجيا الميكروتشب الجديدة في عملية تحويل الأمريكان إلى أمة من المهابيل أو المخبولين وفي جعل المعرفة سلعة كأي سلعة أخرى تباع وتشترى في السوق. يخطّىء سفن بيركيرتس في كتابه "مرثيات غوتنبرغ" الانترنت لأنها تستعمل النص الالكتروني الذي يعطل التجربة الوجدانية العميقة للقارئ التي تقدمها له الكلمة المطبوعة على الورق. إن تجربة الجلوس مع الكتاب تمكّن القارئ من الغوص في عالم خاص وبالتالي اكتشاف من هو أو من هي. هناك عملية مقارنة عواطفك باستمرار مع عواطف البطل في رواية مثلا، حيث ينتابك شعور عميق عن ذاتك. إن الذي يقدمه النص الالكتروني على الانترنت، بالمقارنة مع نص الكتاب، هو تجربة أفقية سطحية تجعلك تتصفح ما تقرأ فيما يشبه الشبابيك في جهاز عرض للصور كي ترى هذه الصور من خلالها. إن هذا "الوسط " للقراءة، الذي هو النص الالكتروني على شاشة الحاسوب، يعمل ضد التعمق والتأمل الذاتي للقارئ بحيث تصبح النتيجة بعد القراءة ذات ممزقة أو معطلة، وأخيرا مزورة بفعل معلومات لا معنى لها يقصد منها التسلية. لا يوجد سياق عام للنص الالكتروني على الانترنت، وبالفعل فإن معظم الجيل ينقصه الإحساس بالتاريخ والاستمرار الثقافي والحضاري. وبشكل متزايد نحن نعيش في نظام لا وزن له "حيث كل المعلومات مهمة دون تمييز. وهكذا يتبخر البعد الذاتي ليحل محله مجموعة من القوالب الفكرية التي تساعد في تحويل ثقافتنا وبالتالي حضارتنا من" الحكمة " إلى الخواء الفكري". ويقول بيركيرتس إن "اللغة هي طبقة أوزون الروح، ومع هذا فنحن نرققها ونسبب هلاك أنفسنا ".

وأخيرا نصل إلى ظاهرة "ما بعد الحداثة"، وهي إعطاء القارئ معنى للنص، والتي هي وجهة نظر فلسفية يبدو أنها سيطرت على عقول المشتغلين بالتعليم العالي، وأصبحت جزءا من الهواء الذي نتنفسه. هذه الفلسفة هي : لا يوجد أي شيء مطلق، وكل القيم مثل بعضها فهي لا تتميز بوجود قيمة أجود من تلك، ولا يوجد فرق بين المعرفة والرأي، وأن أي نص أو مجموعة من الأفكار هي مجرد قناع لأجندة سياسية. إن هذا ينسجم تماما مع عالم تكنولوجيا الميكروتشب التي تعلي من شأن عالم غير ذي قيمة ؛ وهي أيضا طريقة عظيمة للاختباء وعدم محاولة إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المذكورة آنفا. إنها فلسفة يأس مقنعة بقناع فكري فاخر. فلسفة ما بعد الحداثة هي النسخة الفكرية للانهيار الحضاري الذي نعيش فيه. إنها، كما يقول الناقد الثقافي فريدريك جيمسون " المنطق الثقافي لأواخر عصر الرأسمالية حيث تحول العالم بأكمله إلى مركز تجاري ".

ويصف روبرت غرودين ظاهرة ما بعد الحداثة هذه في روايته "كتاب" حيث يصوّر أستاذ جامعي اسمه جورجيو موفيتا (كلمة" موفا" تعني في الإيطالية عفنا فطريا) عالما بشريا غير متناسق، ولا أخلاقي، وخاليا من أي معنى جمالي، ويمكن الإحساس به فقط من حيث كونه قوالب قوة تتراقص على وجهه مثل المجالات الكهرو- مغناطيسية المتغيرة باستمرار. هذا العالم المصاب بدوار لا يسمح بوجود أي معنى أو معرفة. فالجمال والحكمة والنظام هي مسائل عقلية فارغة، والحب والتعاطف والثقة هي كلمات عامية طنّانة، التنافس هو الحاكم المطلق، وأفضل المتنافسين هم الذين يعرفون كيف يستعملون قوالب القوة المتاحة.

إن المعنى الأدبي المتضمن في وجهة النظر هذه عن العالم معنى بسيط جدا، هو أنه لا يوجد للأدب معنى إنساني كامن إطلاقا. إن معناه هو ما أراده الناس أن يعني، أو ما أقنع بعضهم البعض الآخر به. وهذا المعيار الساخر غير المؤمن بطبيعة البشر الإنسانية (والأدب والفن بوجه عام جزء منها) لا ينطبق فقط على الأدب الحديث ولكن على الآداب الكلاسيكية أيضا. فافلاطون ودانتي وشكسبير غير جديرين بأن يدرسوا أو أن ينظر إلى أعمالهم على أنها رائعة. إنهم مثل قصور فارغة جاهزة للاحتلال من قبل جيوش المفسرين المتصارعة.

إن أوصاف طبقة المشتغلين بالتعليم العالي وبالثقافة لا توجد في الأدب فقط. ففي كتاب مذكرات متوازن ومرهف الحس "في كهف أفلاطون" لمؤلفه ألفين كيرنان، الذي كان يدرس الإنكليزية في ييل وبرنستون لعدة سنوات، يصف " التحول التكتوني " الذي حدث لتلك الطبقة خلال الفترة التي كان فيها واحدا منها. كان سبب وجوده بينهم أن طبقته اعتبرته من الرعيل "القديم والجليل". يقول: "كنت واحدا من أولئك الذين يشعرون أن أكثر غاية ترضي الإنسان في حياته هي المعرفة؛ ليس المال أو القوة أو المكانة الاجتماعية، بل فهم الناس والعالم الذي يعيشون فيه. كانت الجامعة القديمة، قبل عصر ما بعد الحداثة وما يزعم أنه عصر السياسة الصحيحة،تعزز الأهداف التنويرية التي كانت تغذيها. كان المشروع الفكري مشروعا مثيرا، لأن أعضاء الهيئة التدريسية كانوا يعتقدون بإمكانية بناء نموذج كامل للمجتمع وللحياة الإنسانية، وأن الحرية هي هنا في هذا الاتجاه. كل هذا قد ذهب إلى غير رجعة الآن."

ويقول كيرنان إن فلسفة ما بعد الحداثة جلبت لنا، ليس فقط إنكار وجود الحقيقة، بل إنكار وجود صورتها المثالية أيضا بالمعنى الأفلاطوني لكلمة صورة أو "المثال" وتعتبر الحقائق الآن عبارة عن أصنام ليس إلا، أو أشكال من الولع بطقوس دينية، وتعتبر مناهج البحث العلمي قاصرة وفيها "مشكلات عديدة" وحتى إن أعلى مستويات التعليم لا يُنظر إليها باحترام. وعندما تقول ماك كليري، وهي مدافعة مشهورة عن حقوق المرأة إن "السيمفونية التاسعة لبيتهوفن مفعمة بغضب قاتل لمغتصب نساء غير قادر على الانفلات" فإننا نرى بشكل واضح تماما كم هو المشروع الحضاري لما بعد عصر الحداثة مشروع هدام. هذا ليس مجرد فشل فكري، بل هو فشل أخلاقي أيضا.

إلا أنه، كما يعترف كيرنان، هذه ليست كل القصة. إن تركة ما بعد الحداثة سوف تكون تركة معقدة. إن الذين يكسبون النصوص معاني جديدة محقون بعض الشيء، لأن النصوص تحتمل أكثر من تفسير؛ ولأن هموم النساء والأقليات استثنيت من أن تؤخذ بعين الاعتبار بشكل نقدي؛ ولأن الأعمال الفكرية والفنية تظهر في سياق سياسي أحيانا. ولكن تبرز المشكلة عندما تترك البحث عن الحقيقة، وعندما تنكر أنها موجودة، وعندما ترفض الحقيقة التاريخية والتقاليد الفكرية، وتزعم أن كل شيء هو نص من دون أي معنى جوهري أو مرجعية. هذا ليس أقل من عدمي، انه العدمية ذاتها. وخلال حياة كيرنان الأكاديمية، استُبعِدَ البحث عن الحقيقة في الجامعات وحلّ محله " التعليم والنشر كمهنة وكعمل سياسي. "ويعلق الفيلسوف الفرنسي آلان فينكيلكراوت "يصبح كره الثقافة شيئا ثقافيا بذاته" و"تفقد الحياة الفكرية كل أهمية لها"، أو

كما عبر عن هذا أليكس دو توكفيل " عندما يتوقف الماضي عن إضاءة المستقبل، فإن الروح تسير في الظلام ".

يقودنا هذا إلى العامل (د) في قائمتنا ذات العوامل الأربعة،الموت الروحي، الذي يتداخل مع عامل انهيار القدرات العقلية والفكرية، ولكنه أكبر منه بكثير؛ انه يشتمل على "الضجة البيضاء" و"أمة البوستوك" المشار اليهما في المقدمة. ولكن من الصعب أن نرى "الموت الروحي" من داخل هذه الحضارة. وكما بيّن مارشال ماكلوهان ذات مرة، لو استطعت أن تسأل سمكة عن أهم ميزات البيئة التي تعيش فيها ، فمن المحتمل أن يكون آخر شيء يمكن أن يخطر ببالها هو الماء،لأنها تسبح فيه طوال الوقت، ولذلك فيمكن ألا تلاحظه. وبالطبع المهم هو طبيعة الماء.

وفي حالة الولايات المتحدة فالماء هو العقلية الاستهلاكية. إنها تعمل مثل عمل "الجلد"، فهي تعطي كل شيء، كعباءة تلف كل شيء. إنها بيئة كلية. ويقول كالفين كووليدج " إن شغل أمريكا الشاغل هو الأعمال التي تعني أن تقيم مشروعا يدر عليك ربحا ؛ هذا هو روح الشعب ومزاجه،هذا هو جوهرنا الحضاري". هذه العقلية المسمومة تتخلل كل جزء من المنظر العام، وإذا استطعت أن تقف في الخلف وتنظر، ستبدو لك كل التفاصيل واضحة. هناك حقيقة أن معظم الأخبار هي عن الأعمال والربح ؛ هناك جدول مستمر في انسيابه بثبات من " المكالمات الهاتفية الباردة " التي تتلقاها من شركات مختلفة تسألك إذا كنت تريد أن تغيّر شركة اتصالاتك، أن تنزع شريحة من زجاج سيارتك، أو أن تحصل على معدل منخفض للفائدة على قسطك الشهري الذي تدفعه

لشـراء المسكن. وهناك الإدراك العـام أن رئيـس الولايات المتـحـدة لـيس رجل دولة، بل مدير تنفيذي لشركة احتكارية ما. وهناك السعي وراء التسوق كتسلية لـ ٩٨ ٪ من الناس، الذين لا يفكرون أبدا أنه يمكن أن يكون هناك خطأ ما في هذا السعي. ويقول الناقد الاجتماعي جيمس تويتشل، " يندر أن يوجد مكان فارغ في حضارتنا لا يحمل مسبقا رسائل تجارية ".

ثم هناك واحد من تأثيرات الطغيان التجاري على حياتنا هو انتشار الأعمال الفنية التي، حتى لو كانت شعبية، لا قيمة حقيقية أو فنية لها، والإعلان التجاري المطول كجزء من موتنا الروحي الجماعي. ويعرف بول فاسيل في كتابه "سيئ" أو" تحويل أمريكا إلى مهابيل " الكيتش (العمل الفني الذي لا قيمة حقيقية له) ك " شيء مزوّر" غير متقن الصنع، معتوه، غير موهوب، فارغ، أو ممل يمكن إقناع كثير من الأمريكيين أنه حقيقي وجميل ومتألق وفاتن". ويأخذ لورنس ويلك وجورج بوش كمثالين واضحين، لكن هذا هو الجزء الصغير البا ئن لجبل الجليد، لأن الحقيقة هي أن الكيتش (كل شيء لا قيمة حقيقية له) هو حضارتنا. ويكتب فاسيل : " في الولايات المتحدة لا شيء يمكن أن ينجح إلا إذا ضخّم بالمبالغة وطلي بغطاء رقيق من التزوير". يرى المرء هذا في كل مكان، لأنه في صخب الضوضاء الحضارية على المرء أن يموّه فكرة ما، ويغلفها في خدعة قاسية أو صيغة زاهية لكي تلقى آذانا صاغية ". إن المضمون لا يهم أبدا، لأنه دائما نفس الشيء : الشعارات تفعل فعلها ؛ الإعلان التجاري المطول هو الحياة.

إن الواقع الفعلي،أو الحضارة، هي الوسط الذي نسبح فيه، والذي لا

يمكننا الهروب منه. و"عقل" القرن الواحد والعشرين، بالنسبة لمعظم الناس، هو الهجين العجيب لبل غيتس وولت ديزني كما لاحظ الروائيان وليام جيبسون في روايته " العصابي " ونيل ستيفينسون في روايته "تهشم الثلج". نحن نعيش في عالم من الزبل التجاري الترويجي اللانهائي الذي يحجب خواءً منظماً عميقاً في روحنا. إنه المعادل الروحي للذبحة الصدرية".

إن ظاهرة "الجلد" للعقلية الاستهلاكية الجماهيرية تبدو للعيان في كل مكان، لأننا أصبحنا أمة لا تستطيع التفكير إلا بواسطة الشعارات. تنشر بعض الكتب حول " الذين ظلّوا أحياء بعد جرائم الزنى بالمحارم "، فبين عشية وضحاها تكشف مئات آلاف النساء أنهن كذلك (بعضهن هن بالفعل كذلك). ويذهب رجال إلى "ورش للرجال" ويبكون، لأنه يقال لهم يجب أن يصبحوا حساسين. يقول جوزيف كامبل الذي كان فهمه للمثيولوجيا غيركاف إلى درجة تثير الحزن من وجهة نظر أنثروبولوجية، لمشاهدي التليفيزيون أن" يجروا وراء سعادتهم ".

ويصبح هذا غاية حياتهم لأنهم يظلون مسرورين وهم لا يدركون حقيقة أن التعلق بالقيم الروحية هو على

الأغلب ضد الميل الفطري عند الإنسان. ويصرح المعلمون الدينيون أننا نعيش وسط " نماذج متغيرة " والملايين

الذين لم يفلحوا في فهم النموذج الحالي يقرضون العبارة مثل تكرار عبارات الصلاة. وكل سنة أو كل شهر أحيانا هناك شعار جديد ينشّط الناس في تبنيه إلى أقصى مدى، ثم يسقطون هذا الشعار أخيرا ويتبنون شعاراً مثيراً آخر. إن " التفكير" الآن ليس إلا التجول في آخر حديقة فكرية.

والنتيجة الحتمية لكل هذا هي عدم قدرة الجمهور الأمريكي على التمييز بين القاذورات والجودة ؛ وفي الحقيقة، كما يقول بول فاسيل : "يعتبرون أن القاذورات هي الجودة ". وهكذا فإن قيام صناعة عصر جديد ضخمة، ناجحة ماليا جدا، ومبنية على المقدمة المنطقية "عقلك هو أسوأ عدو لك " إننا نرى المستوى الفارغ لمثل هذا الهراء في عديد من المؤلفات. روبرت فولكهام، مدرس ثانوي سابق من سياتل أخبر قراءه أن التاريخ يجب أن يستبدل بالخرافة، وأن كل شيء أرادوا معرفته في الحياة تعلموه في الحضانة. لقد كان هذا المؤلف صريحاً جداً بالنسبة لمصدرنجاحه قائلا إن كتبه كانت شعبية لأن الناس كانوا يبحثون عن أجوبة بسيطة لمشكلات معقدة.

وهناك مؤلف آخر مثل روبرت فولكهام هو ديباك كوبرا الذي نشر كتباً بعناوين مثل" الهروب من سجن العقل"، يبدو محقا في احتمال أن تأسرنا المقولات المعرفية بحيث نبتعد عن الواقع المعاش، ولكن المشكلة هي أن هذا الكاتب يبدو أنه يتوجه لجمهور لم يصل بعد إلى "سجن العقل" في المقام الأول. هناك فرق بين أن ترى حدود تقاليد عصر التنوير بعد أن تكون قد درسته لعدة عقود، وبين أن ترفضه قبل أن تتعرف عليه. وقد حضر بروس باركوت في وقت مضى، وهو كاتب ومراسل صحفي من سياتل، واحدة من ورش عمل كوبرا، التي كانت دائما تجذب جماهير كبيرة، ودوّن ملاحظاته لثلاثة أيام ثم كتب مقالة يصف فيها ما حدث في ورشة العمل. فعندما عاد إلى بيته وقرأ ملاحظاته اكتشف أنها كانت تتألف من تفاهات مبتذلة. ربما كان من العجيب أن الشخص الوحيد الذي كان يجلس دون أن يكون مبتهجا جدا لما قاله كوبرا هو هذا

الصحفي. لكن الذي يقلق أكثر هو أن فلسفة كوبرا الجديدة هذه، فلسفة العصر الجديد تكسب وقارا واحتراما بإذاعتها على القناة الثقافية في تلفاز الإذاعة القومية. هذه القناة كرمت سوزان أورمان لأنها قالت للجمهور كيف يمكن أن يصبح الإنسان غنيا.

ومن الجدير بالذكر أيضا أن تفاهات العصر الجديد، وخرافات مختلفة أخرى، وتشويهات تاريخية تنشر من قبل مؤسسات نشر تجارية كبيرة لأنها تضمن أن تبيع مثل هذه المنشورات. بينما الكتب التي تفضح زيف هذه المنشورات والخرافات، والمبنية على البحث والتقصي يمكن أن تنشر في مطابع الجامعات فقط التي نشرت ٧٧ ٪ من الكتب التي بيعت في الولايات المتحدة في ١٩٩٨. وهذا يشير إلى شكل جديد من الرقابة. وتقول سفن بيركيرتس "إن الكاتب الجدير بالقراءة هو طراز قديم" ـ إنها تتوسل كي تجد ناشرا، وعندما تجده تتوسل لكي ينتبه لها. إن الكتب الصعبة اعتمدت دائما على الشلل المخلصة، ولكن عندما تناقصت هذه الشلل وجدنا ناشرين أقل رغبة في أن يحاولوا نشر كتاب جاد. وإذا ظل الأدب حيا، فإنه يظل ملاذا لأولئك الذين يرفضون الثقافة الجماهيرية الأمريكية التافهة.

وكما يبين وليام ليش في "أرض الرغبة " فإن ظاهرة العصر الجديد ليست وليدة سبعينيات القرن العشرين. إن " دواء العقل " و" الفكر الجديد " برزا بشكل طبيعي كجزء من التطورات التجارية لتسعينيات القرن التاسع عشر، لأن الرسالة الروحية لتلك الفترة ـ أن الناس يستطيعون أن يتحكموا بمصائرهم وأن يجدوا السعادة الكاملة ـ هي رسالة اقتصادية. وبالنسبة لبواكير مجموعات العصر الجديد التي بدأت

تتشكل في أوائل القرن العشرين فقد كان الفقر وعدم المساواة موجودين في العقل فقط، وقد بادرت مجلات أصحاب الأعمال في التقاط شعارات الفكر الجديد " لا قلق بعد الآن ". لقد وزعت الدمى بشاحنات ضخمة ؛ المعلمون الهندوسيون جابوا البلاد ، وأخذ رجال الأعمال دروسا في اليوغا. وقد لاحظ تيودور دريس كم كان تداخل هذا المنظور الديني أنيقا مع عالم المال والأعمال الجديد. وطبعا ينطبق نفس الشيء على حركات العصر الجديد في سبعينيات القرن العشرين وما قبلها.

ويمكن أن يكون لكل هذا صورة موازية في عملية التطور والانتقاء الطبيعي. لقد قال عالم الأحياء ستيفن جي الذي يعمل في جامعة هارفرد إن سلالة البشر هي فرع من فروع شجرة الأنواع. وهذه السلالة موجودة على الرغم من التحديات الطبيعية الكثيرة لها ، ويمكن أن يكون التطور قد تركها وماتت. لكنها تجنبت هذا المصير آلاف المرات بمحض المصادفة. ويرى أن البكتريا والصراصير ستظل على سطح الكرة إلى وقت طويل بعد أن نكون قد ذهبنا إلى غير رجعة.

ولو حاولنا أن نطبق هذا على التطور الحضاري، لوجدنا أن البقاء ليس للأصلح بل للأكثر مكرا وخداعا. ذلكم هو الفكر الحقيقي في وضع خطر في عالم "أوبرا وتشوبرا" في عالم يشكل المهابيل والأشياء التافهة فيه مقاييس القيمة ! في نقاش لكتاب دارون " أصل الأنواع " في جريدة النيويوركر في عام ١٩٩٧ يتساءل ديفيد دينبي ما إذا كانت أشياء مثل "الفردية " و" الذوق " و " القدرة على التقييم " تستطيع البقاء في البيئة الأمريكية المعاصرة حيث تمتاز الأشياء التافهة التي لا قيمة لها بالقدرة على التكيف والبقاء لأنها الاختيار الحضاري لأمريكا.

ويقول أيضا إن " الشهرة والتهريج والوقاحة هي ذيل الطاووس الجديد ". هذه هي فترة سبنغلر الكلاسيكية حيث يتحد الانتقاء الطبيعي مع قانون غريشام (الصياغة السيئة تخرج الصياغة الجيدة من التداول). وهكذا لا يشعر تلفاز البي. بي. اس. بالإحراج بتقديمه البرامج السطحية، لأن المسؤولين فيه يعتقدون أنها ثمر الورد.

وهناك مظهر آخر لانهيارنا الروحي المعاصر هو عدم قدرتنا المتزايدة على أن نرتبط ببعضنا بأقل درجة من اللباقة والإحساس بوجود الآخر. لقد أصبح دارجا الآن ألا تستجيب لأي نوع من الطلبات إذا كان الجواب لا. وبشكل متزايد، إذا تقدم شخص للحصول على عمل وفشل في الحصول عليه، فان أصحاب العمل لا يخبرونه بأنه لم يقبل. والعاملون يطردون من أعمالهم عادة بشكل غير مباشر وترفض شركاتهم أن تخبرهم عن أسباب الطرد. لقد مضى الزمن الذي كنا نمسك الأبواب فيه لبعضنا كي نمر ؛ وألا ننزعج عندما يطلب منا أن نجيب على الرسائل. إننا نختفي من حياة بعضنا دون تفسير أو تعبير أسف. إننا نخون بعضنا ونرفض مناقشة هذه الخيانة.فظاظة السلوك وعدم التهذيب مقبول الآن لأنني الوحيد الموجود في المكان، لا أحد موجود غيري. (الوجه الآخر لهذه الظاهرة هو إحلال لطف الشركات الاحتكارية محل التهذيب: "طاب يومك" "شكرا لاختيارك أي. تي. أند. تي."...الخ) وفي أساس ذلك كله الخوف من أي نوع من المشاركة، لأن الصداقة الحقيقية تتطلب نوعا من المخاطرة والتعرض للانتقاد أو الهجوم، وكثير من الأمريكيين يشعرون بأنهم يفتقدون القوة النفسية اللازمة لذلك. الغضب المكتوم والامتعاض هو الإحساس العام المشترك، حيث يعيش الملايين في عزلة،

دون أي شكل من أشكال المجموعة من الناس التي يعيش الإنسان ضمنها، وهم راضون أن تكون شخصيات المسلسلات التلفزيونية أصدقاءهم. وقد وجدت في هذا الخصوص شيئا معبرا : ففي ١٩٩٦ بدأت بعقد مؤتمرات أكاديمية لمناقشة موضوعات مثل " تلاشي التهذيب واللياقة الاجتماعية " ـ شيء لم يسمع به حتى قبل خمس سنوات. والنهاية السوداء في آخر المطاف كانت مذبحة المدرسة الثانوية في ليتلتون في كولورادو في ٢٠ نيسان ١٩٩٩ عندما أقدم مراهقان منبوذان كانا يرتديان معطفين أسودين على ذبح زملائهما.

إلا أن هناك مظهرا مميزا آخر للموت الروحي في أواخر القرن العشرين، هذا المظهر هو انهيار الأنا العليا الفرويدية، والتي هي الجزء من العقل الذي يحاول الإبقاء على استمرار السلوك العاقل وما هو متعارف عليه اجتماعيا. وبالطبع يمكن أن تكون الذات العليا فظة وقمعية، ولقد كانت حوادث الستينيات محاولة من جانب الجزء غير الواعي والغريزي من العقل التأكيد على القيم الطبيعية (بما فيها الحس الفطري بالخير والشر) والتلقائية. ولكن على الرغم من فترة حكم ريغن، ورد الفعل على الستينيات ـ فترة العصيان التي تمثلت في رفض الناس لحرب فيتنام ولظلم الاحتكارات وردود الأفعال على التمييز ضد السود ـ لقد بقي بعد فترة العصيان رفض واسع من قبل الشباب لأن يكبروا: بقي طفولة أيديولوجية.

وكما يبين بيتر ساكس في كتابه "الجيل إكس" أنه " لدى الطلاب قدرة بسيطة على التحمل عند القيام بأي عمل جدي " وأن شعار " لا ألم، لا ربح " ليس جزءاً من قاموسهم الخلقي"." ما يهمني هو مشاعري

واحترامي لذاتي، وأتوقع من مدرسي أن ينزل عند رغباتي ". وينظر للثقافة الحقيقية الآن ـ أن تخضع لفترة تمرين وتدريب بإشراف المهنة أو الحرفة سواء كانت فكرية أو سواها ـ على أنها تخص النخبة أو السلطة. ولا سامح الله من يخبر الطالب أن عمله ركيك. فطالما نعتبر " النخبة " أو" النخبوية " كلمة وسخة، وطالما نعتبر الذات العليا قمعا خالصا، لا يمكننا أن نساعد على استمرار الحضارة، نستطيع فقط أن نرقبها وهي تنهار.

أعتقد أن تعارض القيم هذا كان وراء اتهام الرئيس كلينتون ومحاكمته اللاحقة في ١٩٩٨ -١٩٩٩. وعلى الرغم من أنني لا أتعاطف مع الجمهوريين لكنني أثمِّن غضبهم من الرئيس الذي لم تمثل الحياة السياسية له أكثر من أن تفعل ما تريد دون التعرض لأي عواقب. وقد رأى كتّاب ـ مثل جودي مان في الواشنطن بوست ومايكل أوريسكس في النيويورك تايمز، والذين لا يمكن تصنيفهم مع الحزب الجمهوري الوعّاظ الأخلاقيين اليمينيين الذين يعتبرون أنفسهم من الأقوم أخلاقيا ـ العلاقة بين بنية شخصية كلينتون وانحطاط الجمهورية الأمريكية. وهكذا فقد كتب أوريسكس في مراجعته لـ " قصة مونيكا " " إن قصة مونيكا ستكون وثيقة أصلية وأساسية بالنسبة للذين يعتبرون أن الحضارة الأمريكية تنهار على نفسها، وأنها تفرغ من قيمتها الإنسانية بالأنانية والانغماس الذاتي في الأهواء والرغبات والشهوات".

وتشتمل قائمة جودي مان بـ "الدلائل على سقوطنا" على ملاحظة أن "مدارسنا هي عار يلطخنا " و"حضارتنا هي نكتة " و " رئيسنا التنفيذي [رئيس الجمهورية] هو بذيء اللسان "، ولكن كلمة " وغد"،

الكلمة القديمة الجذّابة التي تخص فترة كان فيها إحساس أكبر بالمسؤولية، لا تصف هذا الرئيس بدقة. إن كلنتون يمكن أن يوصف بشكلٍ معبرٍ أكثر بأنه مراهق من عصر ما بعد الحداثة. ويبين المحلل السياسي جيفري توبين الفرق بين كلنتون وزميله الديمقراطي السيناتور دانيال مونيهان في أنهما أحاسيس ما بعد عصر الحداثة وعصر الحداثة على التوالي. فبينما قال لنا كلنتون كيف أننا سنستعيد مركزنا المتميز في تعليم الرياضيات والعلوم بسرعة مثلاً، قدّم لنا مونيهان معطيات تثبت أن هذا وهم، إنه موقف " إذا أردت شيئا أن يكون كذا فسوف يكون "، ووصف "الوهم" هذا ينطبق على محاولات كلينتون إصلاح برنامج الرعاية الصحية التي كانت محاولات في العلاقات العامة وليس في التخطيط السياسي الواعي لإصلاح ذلك البرنامج. ويسمي توبن هذا الشيء " تصنّع عصر جديد." والفرق الرئيس بين الرجلين كما يقول هو أنه بالنسبة لكلينتون فكرة " الشخصية " تعرف على أنها " نوع من التقمص العاطفي العائم بحرية، والذي غاية وجوده هي أن يجعل المشاعر صحيحةً وملزمة لصاحبها (مشاعر ربما يكون أو لا يكون لها أساس). بينما في وجهة نظر مونيهان عن العالم " الشخصية مبنية على التماسك الوجداني، وعلى وصف العالم كما هو، بغض النظر عن التبعات السياسية". إن مونيهان لديه ذات عليا كما هو واضح. ولكن بالنسبة لمراهق من عصر ما بعد الحداثة مثل كلينتون فإن الحياة هي مجرد كون الأشياء شعبية أو لا. وأخشى أننا سنرى قليلا من (المونيهانات) والكثير من (الكلنتونات) في الوظائف العامة خلال العقود القادمة طالما أن الحضارة الأمريكية مستمرة في الانحطاط.

إن اتحاد وجهات النظر أو المفاهيم المراهقة مع قيم الشركات الاحتكارية يمكن أن نراه في أشهر شكل فني عندنا ـ الفيلم السينمائي. يقول ديفيد دينبي : "عندما أصبحت الأفلام جماهيرية وغايتها الربح، فقد أصبحت أقل اهتماما بالعواطف الإنسانية والمسائل الفكرية". إن هدفها هو خلق شعور من الإثارة الجسدية. فقد أصبحت باستمرار مذهلة، وعنيفة، وغير شخصية، وملأى بتدافع من الصور المسعورة والشديدة الاهتياج ". البيئة الحاضنة للفلم بصوره وأحداثه وحواراته هي البيئة الاحتكارية التي تعتبر أن العلم عبارة عن تصارع مصالح ذاتية حيث تقدم مسبقا حفلات الرقص الصاخب للنقاد من قبل رجال الإعلانات. إن جماهير المتفرجين تنظر إلى المنتجات في صيغها السينمائية على طريقة هوليود ليس في مسارح فردية، كما يقول دينبي، ولكن " في المراكز التجارية بين صالات ألعاب الفيديو وباحات التزلج على الجليد في الصالات المغلقة، حيث يتشربون عقلية التصفح السريع المتعلقة بالسلع المختلفة، التي تفرضها حياة المراكز التجارية على كل إنسان". إن هؤلاء المشاهدين جياع "للحضارة" الاستهلاكية والأحاسيس الجسدية، وهم ليسوا مهتمين بالجودة الفنية. ليس هذا فقط بل إن لدى النقاد الجادين للأفلام القليل القليل ليقولوه لهم. ذلك لأنه لم يعد هؤلاء النقاد قادرين على الاستغاثة بمجموعة من القيم المتعارف عليها عند هؤلاء المشاهدين ـ إلا إذا اعتبرت الإثارة الجنسية قيمة من القيم. وهكذا فإن ديفيد ريف يشير، وهو محق في ذلك، إلى " السرعة المدهشة " " التي تصبح الولايات المتحدة بها، إن لم تكن منطقة خالية من الحضارة، فعلى الأقل مكاناً حيث الفنون والعلوم الإنسانية لا قيمة لها بالمقارنة مع التجارة، وخدمات التسلية والصناعات القائمة عليها، والدواء...".

وبشكل عام فالطريقة التي تدافع فيها حضارة الاستهلاك عن نفسها ضد كل هذه الانتقادات هي أن تسمّيها "نخبوية " وأن تقول إن "تحويل القيم الحضارية إلى قيمٍ تجارية واستهلاكية هي شيء إيجابي، إنه جزء من عملية تحولٍ ديمقراطي تسمح لكل شخصٍ بالمشاركة "، (أنا شخصياً، عندما يُسمِّيني شخصٌ ما "نخبوياً" أقول له شكراً). ويدهشني حقاً أن يسارع الأمريكان في تسمية المفكرين ـ الذين لا يملكون أي قوة ـ " نخبة" أو "نخبويين" بينما يتناسون النخبة الاقتصادية والمالية التي هي النخبة الاحتكارية. هل تستطيع أن تتصور عرض برنامجٍ تليفزيوني على غرار "تشيرز" يسخر من الثروة بدلاً من الفكر؟ ويأتي الرد على هذا التساؤل إن الحضارة الأمريكية هي حضارة جماهيرية، فهي لا تقدم كل شيء فقط للأغنياء. المشكلة هي القول إن هذه الحضارة تسمح لكل شخصٍ بالمشاركة أو" بالدخول ". الدخول إلى ماذا؟ أو المشاركة في ماذا؟

في ثلاثينيات القرن التاسع عشر خشي أليكس دي توكفيل من أن تؤدي التجربة الأمريكية إلى " إهمال الجودة من خلال الزعم بأن الهدف هو المساواة "، وقد بيّن حنّا أريندت في ما بعد أن الحضارة الجماهيرية ليست حضارة، بل هي تسلية، وأن الاعتقاد بأن مجتمعاً ما يمكن أن يصبح ذا حضارةٍ عن طريق الجماهير هو خطأ قاتل. إن معنى" تحويل الناس إلى مهابيل " هو هذا الخطأ بالذات. إن ما يزعم أنه " تحول ديمقراطي " ليس محاولةً لجعل الضعفاء أقوى قليلاً ؛ على العكس، إنه تقليل كل شيء إلى أخفض قاسمٍ مشترك واعتباره نصراً سياسياً. وعلينا أن نتذكر، كما تعبر عنه الناقدة الاجتماعية ويندي كامينر أن " القلق

على معرفة الناس القراءة والكتابة والقدرة على التفكير النقدي هو الشيء الديمقراطي فقط ". المسألة هي، كما يقول توكفيل " لا يمكن لمجتمعٍ ما أن يعيش إذا كان كل واحدٍ فيه أبله" "أو درِّب ليصبح أبله".

وبدلاً من مهاجمة الجودة لأنها كذلك، يجب أن يكون هدفنا هو نفس هدف ليوتارد المقتبس آنفاً : نحن ننشد النخبة لكل واحد. إن تعبير " تحويل الناس إلى مهابيل " هو الصيغة الكيميائية لمجتمعٍ مقدرٍ عليه الاندثار. إذن يجب أن نكون"نخبو يين" غير نادمين. والمسألة هي من" نحن "؟ ومن سيبقى بعد ثلاثين سنة مثلاً؟ ومقابل كل كتاب يناقش مسائل فكرية تقرأه أيها القارئ، هناك ملايين من القراء الآخرين الذين يشغلون أنفسهم بقراءة كتبٍ مثل " هناك غرباء بيننا " أو " احم نفسك من تعسف العاطفة " هذا إذا كانوا يجيدون القراءة أصلاً. هذا الوضع أدى بـ ديفيد ريمنيك، محرر جريدة النيويوركر الآن، أن يتساءل ما إذا سيكون هناك أي قراء في المستقبل " ليس فقط قراء الصفحات الرياضية ". لقد كتب : " ومجموعة الكتب التي لا نظام فيها مثل الكتب الأكثر مبيعاً والتي تزعم أنها تعلمك كيف تساعد نفسك، بل قراء متحمسون ومتقدو الذهن، يتجاهلون الهاتف والتلفاز لبضع ساعات، وينهمكون في قراءة كتابٍ صعوبته هي أنه لا يهدىء النفس، أو يتملق قارئاً ذا فكرٍ محدود ؛ القارئ الذي يؤمن بصدقٍ مع الذات، أن أفضل وأعمق ما تحتاجه هو كتابٌ على رفٍ من رفوف المكتبة، وأنه عندما يقرأ الكتب الموجودة على هذا الرف فإنه يغير نفسه ". ويردد دون ديلليلو هذا الرأي : " إذا تناقصت القراءة الجادة إلى العدم، فهذا ربما يعني أن ما نتكلم عنه عندما نستعمل كلمة " هوية " قد انتهى ".

ماذا يعني كل ما تقدم؟ كما اقترحت في المقدمة، إن المسار التاريخي الذي نشهده هو مسار معقد وملتوٍ، لأنه إذا كان كل هذا يشير إلى الانهيار الحضاري، إلا أنه نوعٌ من الانهيار الذي يحمل طاقةً كبيرة. يدور المال والحيوية والمشروع الجديد بسرعةٍ مدهشةٍ في فلك الحضارة الأمريكية، ولذا أراد حفنةٌ مما يسمى " النخبة " أو " النخبويون " أن يسمي كل هذا إنتاجا واسع الانتشار وإن كان بدون قيمة حقيقية، وإعلاناً تجارياً مطولاً، فهل تعني تسمياتهم أي شيء لوول ستريت أو ماديسون آفينيوأو الحشود في دور السينما؟ وكما قلت سابقاً فإن معنى الانهيار هو في عين الناظر، على الأقل في مثل حالتنا. يمكن أن يجادل المرء أنه في حالة الإمبراطورية الرومانية بدا الانهيار بالفعل انهياراً. لكنه في حالتنا يبدو الانهيار نوعاً من التجديد. وفي ضوء العولمة الجارية ـ التي يسمّيها جون غري، من مدرسة لندن للاقتصاد، فجراً كاذباً ـ يمكن أن يوصف ما نراه بدقة أكبر كتحولٍ كبير. والسؤال طبعاً هو "تحولٌ إلى ماذا؟" إن " الحيوية المصطنعة " ليست تسميةً أخرى لـ"الحضارة الصحية" والفجر الكاذب ليس فجراً حقيقياً.

إن أفضل ما قرأت عن طبيعة التحول الحضاري المعاصر المثير للفضول والذي يزخر بالمشكلات هو مقالة لروبرت كابلان بعنوان " هل كانت الديمقراطية مجرد لحظة؟ " التي نشرت في الأتلانتك منثلي في ١٩٩٧. يبين كابلان أنه يبرز الآن للوجود حكومة عالمية، هي حكومة الاحتكارات والأسواق العالمية، ويحدث هذا "بهدوء وبشكلٍ متناسقٍ، بنفس الطريقة التي تحدث بها تطوراتُ تاريخية كبيرة ". فمن بين أكبر مئة وخمسين اقتصادٍ عالميٍ، واحد وخمسون هي اقتصادات شركاتٍ

احتكارية وليست اقتصادات دول. إن أكبر خمسمائة شركة احتكارية بيدها ٧٠ ٪ من التجارة العالمية. والعقدة العصبية هذه هي المتحكم بالقوة على النطاق العالمي ". ويقول " إن الاحتكارات هي مثل المقاطعات الإقطاعية التي تحولت إلى دولٍ قومية ؛ إنها ليست أقل من طليعةٍ منظمة داروينية سياسية جديدة... إنها طليعة الدولة العالمية ". إن المشهد الاجتماعي المستقبلي يمكن أن نراه سلفاً في مدنٍ مثل أتلانتا وسينت ليويس التي تملكها الاحتكارات. إنها عبارة عن مقاطعاتٍ كرّست نفسها للأعمال الاحتكارية الكونية. وبالفعل هي لا تبدو مدناً على الإطلاق، لكنها مجموعاتٌ كبيرةٌ من " الفنادق ومكاتب الاحتكارات ذات الهندسة المعمارية الواحدة ؛ إنها أوهام السائحين يحنون إلى أرض الوطن، إنها مدن مقفرةٌ موحشة...".

ويقتبس كابلان، الخبير بشؤون المدن، من دينيس جود ، الذي يزعم أن الحياة في المستقبل ستصبح ضرباً من الحياة ضمن شركة احتكارية. ويقول كابلان "عندما تتحرر المجتمعات البشرية من الجغرافية، وعندما يفقد الوطن المعنى السياسي له، فإن الديمقراطية ستسقط بحكم الظروف والضرورة " ثم يضيف "نحن في فترة انتقالٍ تاريخية ستدوم قرناً أو أكثر، وعندما تنتهي هذه العولمة ـ إخضاع العالم لحكومةٍ واحدة هي حكومة الاحتكارات والأسواق ـ سينتهي المجتمع المدني. وعندما تتسارع هذه العولمة في الانتهاء، ستصبح الجماهير غير مبالية أكثر وأقل لوماً للنخبة، وستصرف الطبقة الوسطى، التي تنكمش وتقل بشكلٍ متزايدٍ،أموالها على اليانصيب والأندية الصحية والعقاقير المضادة للاكتئاب. وبينما تقدم الرياضات الجماهيرية التسلية للجماهير

الآن، سيصبح الذي يقدم التسلية لها نوعاً جديداً من المصارعة تسمى "القتال الشديد" الذي سيجذب الحشود المتعطشة لرؤية الدم. إن الحالة النفسية لرواد الكولوسيوم (الرومان الذين كانوا يذهبون إلى المسارح للتسلية ومشاهدة قتال العبيد) تسير جنباً إلى جنب مع عصر الاحتكارات التي تقدم التسلية بدلاً عن القيم ؛ وكما كانت الحال في روما ، نحن نتجه نحو مجتمعٍ مكونٍ من نخبةٍ لا ولاء عندها للدولة وجماهير من العبيد راضية بما يعادل خبزها اليومي ومشاهدة السيرك".

ولقد قارن شاعر البلاط البريطاني، تيد هاغز بين روما في أوائل القرن الأول بعد الميلاد وحقيقتنا التي نعيش الآن، عندما كتب في "قصص من أوفيد" "على الرغم من كل استقرارها في عهد يوليوس قيصر]يقصد الإمبراطورية الرومانية [فقد كانت في بحرٍ متلاطم من الهستيريا واليأس، منغمسةً في الملذات والمعاناة الخاصة بحلبة اقتتال العبيد، من ناحية، ومن ناحية ثانية، باحثةً عن سموٍ روحي ما..". إن الانتخابات الديمقراطية في مثل هذا العالم لا معنى لها ؛ والسياسة تقررها علاقات القوة وليس الشعب.

لذلك فالتحول الأمريكي هو جزء من تحول نظامٍ عالمي أشمل. وإذا كان القرن العشرون قرناً أمريكياً ، فإن القرن الواحد والعشرين سيكون قرناً "مأمركاً". والنظير الأيديولوجي لهذا التحول الاجتماعي الاقتصادي الشامل هو" الجلد " المذكور آنفاً، البيئة التجارية الكلية التي تحيط بعالمٍ فكري بكامله. إن المواطن سوف لا يكون مواطناً بالمعنى المقصود لهذه الكلمة الذي تعارفنا عليه، ومهما كان فإنه سيكون مسروراً فقط عندما تقدّم له التسلية (أو السمو بدلاً عن القيم).

وكما يبين كابلان هناك عقدة في هذا التحول تتعلق ببلدان العالم الثالث التي تدور اقتصاداتها في فلك الاحتكارات. ونظراً لقدرة الاقتصاد العالمي الذي تديره الاحتكارات على معالجة كمياتٍ هائلة من المعلومات، فإن أشكالاً جديدة من التقسيم الطبقي ستظهر وسيظهر معها شكل جديد من السياسة هو"الأنظمة السياسية الهجينة" في العالم الثالث التي تخلط ظلاً بسيطاً من الديمقراطية مع سيطرة الاحتكارات الشاملة. هذا الخلط بين ادعاء السياسيين بالديمقراطية وبين مصالح الاحتكارات ليس محصوراً في بلدان العالم الثالث، بل سيكون أبشع مظهرٍ من مظاهر المرحلة الكلاسيكية في سقوط حضارتنا، حيث أننا نلّوح بعلم الديمقراطية في الوقت الذي يكون محتواها هو المظاهر الأربعة التي ذكرت آنفاً لانهيارنا الحضاري. وهكذا يتضح أن الحضارة الاستهلاكية الديمقراطية الكونية يحددها عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية الصارخة، والمردود الهامشي المتناقص والتفكك والاضمحلال الفكري والروحي. وبينما أشارت هذه المظاهر فيما سبق إلى الانهيار الحضاري، فهي الآن دعامات حضارة الاحتكارات الجديدة العابرة للأمم والتي "خواؤها" هو في نفس الوقت "ديناميكيتها".

ولنتكلم بشكلٍ سياسي، كما يقول كابلان، فنقول إن " مستقبل العالم الثالث يمكن أن يكون أخيراً هو نفسه مستقبلنا نحن ". كيف سيبدو ذلك؟ يعطينا كابلان في كتابه " أن امباير ويلدرنس" لمحةً على لسان كايس بوون، الذي يعمل لشركة تليفزيونية تستخدم الكيبل في تاسكون. يقول بوون لكابلان :

"انظر حولك في الجنوب الغربي ؛ معظم المنازل التي تراها هي

منازل متنقلة. ويوجد في داخل هذه المنازل أناس لا يستطيعون القراءة، ولا يتكلمون مع بعضهم البعض، ولهم قلة من الأصدقاء والأقارب أو لا يوجد لهم لا أصدقاء ولا أقارب والذين لو تأخروا عن دفع فاتورةٍ واحدة سيتحولون إلى مشردين دون مأوى، أناس لا يستطيعون أن يضعوا الطعام على الطاولة أو يراقبوا أبناءهم. أنا أعرف أنهم دفعوا كل ما يملكون من الدراهم القليلة ليشتركوا في تليفزيون الكيبل. إنني أذهب إلى هذه الأمكنة كل يوم... وعندما أفكر بمستقبل الولايات المتحدة، فإنني أفكر ببنتٍ صغيرة رأيتها في واحدٍ من هذه المنازل المتنقلة، البنت التي ـ أستطيع أن أخبرك من تجربتي ـ ليست غير سائر البنات. إنها حوالي الثلاث سنوات من العمر. يجلسها والداها طوال النهار أمام التلفاز المجهز لعرض المسلسلات الطويلة والعروض الرياضية. تنتشر القاذورات في كل أركان المنزل. هناك مجلات تابلويد، وكتيب برامج التليفزيون، وعلب البيرة الفارغة. لا يوجد كثير من الأثاث، ولا يوجد كتب. وتنبعث رائحة كريهة من المنزل كله ".

لقد كان لكابلان تجربة ذات مرة عندما كان يستقل الباص في نيومكسيكو كنت قد خبرتها : لم يكن أحد يقرأ كتاباً ولا حتى جريدة تابلويد، وعندما تنصت، فإن كلامهم يكاد ألا يكون مفهوماً. كل هذا يشير إلى ما سيؤول عليه وضعنا في المستقبل ـ وضع واحدةٍ من بلدان العالم الثالث، لأن ممارسة الديمقراطية قد اعتمدت تقليدياً على وجود شعبٍ يجيد القراءة والكتابة، وعلى طبقةٍ وسطى، وعلى هرميةٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ مرنة. لكن كل هذه الأمور تنحسر الآن، والذي يبرز للوجود ما هو إلا "بريّةٌ من الدول المناطقية (كل منطقة صغيرة أو مقاطعة لها دولتها الخاصة)، وواحاتٌ على أطراف المدن ترتبط بالسوق العالمية "

لا حاجة للمرء أن يزور مواقف المنازل المتنقلة والتريلات ليرى الهجوم على الروح الإنسانية. لقد رأيت ذلك في المدرسة الخيرية في وسط المدينة، المدرسة التي ذكرتها سابقاً. العديد من الطلاب يتحركون في جوٍ من الضباب الذي يكاد يكون وصفه مستحيلاً؛ عندما تراه يمكنك أن تفهم ما أقول. من السهل الاعتقاد أن هؤلاء الأولاد الصغار كسالى وبلهاء، ولكن ليس هذا ما يجري أبداً. الأصح القول أنهم حُرموا من أن يكون لديهم أي حوافز، وبالتالي فقد حُرموا من أن يكون لهم شخصيتهم الخاصة بهم. وعندما تركت التعليم في هذه المدرسة كان لدي احترام عميق للطاقة التي استطاعوا الاحتفاظ بها في جوٍ ثقافيٍ قمعيٍ من الفقر والمخدرات والعنف وحبس كل أفراد الأسرة.

عندما سألت بنتاً من هؤلاء أن تعرّف كلمة "متفق مع" قالت : "مثل المعنى المعروف في السجن ". طالبٌ آخر كتب قصةً قصيرة (صفحة واحدة) عن عمله في مطعم وشوى زملاء فصله في فرن. وفي حالةٍ أخرى تعرفت على مكمن القوة عند بنتٍ في السادسة عشر من عمرها، في تمرين كتابة سيرةٍ ذاتية، عندما كتبت أنها ضربت بنتاً أخرى وأوشكت أن تقتلها لأنها شتمت ابن عمها في وقتٍ سابق.

إن العيش في هذا المستوى من البقاء على قيد الحياة، وفي مثل نوبات الغضب هذه، وفي جوٍ عاطفي مشحونٍ دائماً، لم يبق عند هؤلاء الطلاب أي اهتمامٍ بأي دراسةٍ جادة. لقد كان التعليم بالنسبة لهم مجرداً، ولم يعن أي شيء لهم. إن وجه العملة الآخر لهذا الغضب هو "الضباب" الذي أشرت إليه، نوع من الشعور أنك وسط لا شيء قبل أن تغط في نومٍ عميق. والذي كان يرافقهم طوال الوقت كجوٍ مميزٍ هو

اكتئاب حسب ما أعتقد. إنهم لا يكتبون الواجب أبداً، لأنهم لم يسمعوا المدرس يطلبه منهم. وإذا طلب المدرس منهم أن يفتحوا كتاب القراءة، فإنهم عبثاً يحاولون الوصول إليه في ملفهم حيث تتكدس الأوراق بغير انتظام. إن الاهتمام والانتباه والطموح مفاهيم غريبة عن أذهانهم، لأنهم لم يعيشوا في بيئةٍ اجتماعيةٍ تجعل من هذه المفاهيم ذات معنى، وبالتالي لا يوجد لديهم أي حوافز. إن الحافز هو الشيء الذي لا يمكن أن تعطيه لأي إنسان لأنه يتعلق بطاقة هذا الإنسان. فإذا شعر طالب ما بعدم وجود أي مستقبلٍ له، فهو لا يملك أي نوعٍ من الطاقة، لأنه لا يوجد أي مكانٍ يسمح لاهتماماته أن تنتشر خارجه. والنتيجة هي جوٌ عامٌ ضبابي. وعلى الأقل فإن نصف طلابي كانوا يفضّلون ألا أضيء المصباح الموجود على مكتبي، وأن يناموا أكثر من أن يقرؤوا أو يفكّروا. هذا لا يصف كل المراهقين السود، ولكنه حقيقة. وكما يعبّر شيللي سيتل عن هذا في كتابه " محتوى شخصيتنا " فإن غالبية السود ـ أولئك الذين لم يصبحوا من الطبقة الوسطى ـ هم وراء البيض بشوطٍ أكبر اليوم مما كانوا قبل انتصارات حركة الحقوق المدنية ". ويضيف أن " عدد أفراد الشريحة الدنيا من السود يستمر في الارتفاع بدلاً من الانخفاض".

نحن لا نسمع عن كل هذه الأمور في خطابات الرؤساء الوردية عن حالة الاتحاد. إنهم في الحقيقة يتكلمون عن الرخاء الذي يعيش به الأغنياء، وعلينا أن نكون واضحين بالنسبة للقسم الآخر من المجتمع الذين ليسوا أغنياء. في مقال في سينت أنطونيو كرونيكل في عدد ٢٠ تشرين الأول ١٩٨٥ يصف ديفيد لامبيرت، الذي هو نفسه خريج مدرسة إدارة الأعمال في جامعة ستانفورد " المنهاج المخبأ للمدرسة ك " تدمير لا

واعٍ للقيم الديمقراطية. وقد كان مقرر" الأخلاق " في تلك المدرسة عبارةً عن تدريبٍ على محاصرة أي قوى خارجية تحاول أن تحدّ من استقلالية طبقة المديرين ـ كانت هذه الأشياء الخارجية مثل أنظمة الرعاية الاجتماعية والملكية والحقوق المدنية...الخ. يدرس نخبة من رجال أعمال المستقبل مقرراً عن " كيف يعيقون عمل وسائل الإعلام، وكيف يقدّمون أنفسهم على التلفزيون ويحمون مصالح الاحتكارات]و [كيف يناورون مع الجمهور ومع الكونغرس... "وكانت أطروحات الطلاب عن مسائل مثل " لف كنال " (قنال الحب) تعاد إليهم وعليها تعليقات مثل " لماذا لم تنصح شركة هووكر كميكال أن يقاضوا الصحفيين الذين فضحوا القصة؟ "

وكان هناك سؤال في اختبار أحد المقررات " افرض أن المذكرة التي تكتبها ستحرق قبل أن تصل القسم المضاد للاحتكارات في وزارة العدل، ما العمل؟ ". لقد كان جواب لينين هو " قتل أصحاب النكت هؤلاء، الذين يرتدون الملابس الأنيقة، لأنهم يقتلون مجتمعاتنا عملياً " فعندما يجمعون رأس المال النقدي، يدمرون رأس المال الحضاري، الذي هو الرأسمال البشري ــ البشر الذين هم ثروة الأمة.

أما بالنسبة لحقبة طلاب ما قبل الفجر في الحضارة الرومانية، فكانت هناك طبقة من"الرهبان"ـ حفنةٌ صغيرةٌ من الأفراد ـ الذين رأوا أن ليس بإمكانهم عكس اتجاهات الانهيار الحضاري السائدة، ولكن يستطيعون أن يبذلوا كل ما في وسعهم للاحتفاظ بكنوز حضارتهم، والتي هي طرق التفكير وأساليب الحياة التي يمكن أن تثمّن في حقبةٍ صحيةٍ أخرى. وهناك إمكانية للاحتفاظ بكنوز حضارتنا الآن، لأن مجرد

وجود كتّاب مثل الذين اقتبستهم في هذا الجزء من الكتاب ـ مثل ديفيد دينبي أو لويس لابهام أو دون ديلليلو ـ يشير إلى أن المقاومة الحقيقية "للنظام العالمي الجديد" هي ممكنة. ويجب ألا نكون غير واضحين بالنسبة لكنوز حضارتنا ؛ كل ما نحتاج فعله هو أن نقلب عوامل الانهيار. إذا كان عدم المساواة الاجتماعية يتعاظم ويتسع مثلاً، فالمحاولة لتضييق الهوة بين الأغنياء والفقراء ـ التعاليم الاشتراكية ـ هي واحدة من أعظم كنوزنا. وإذا كانت قيم الاحتكارات تحوّل مواطنينا إلى مستهلكين أغبياء، فالتعاليم الصحية " للنخبة " الفكرية في حضارتنا ـ في التاريخ والفلسفة والأدب ـ هي كنز آخر علينا أن نقاتل من أجله ونسلمه للذين سيأتون بعدنا. وإذا تجمعت الجماهير لتشاهد فيلم " التايتنك " و" عالم وين " في دور السينما، فهناك كل عالم "تروفو" و "كوروزاوا"، الذي يمكن أن يلهم جيلاً جديداً من صنّاع السينما والمشاهدين. فمقابل كل عميد كليةٍ مغفل بالنشوة عندما يذكر "التعليم عن بعد" والذي لا يميّز بين "التعليم العالي والتسويق " هناك بضعة أساتذة وأكاديميين راغبين في الوقوف بوجه مثل ذلك العميد المغفل وأن يقولوا له إنه لا يوجد أي بديل عن الجهد الوجداني المباشر الفكري الدؤوب من قبل المعلم والمتعلم.

إن أسلوب الحياة المقترح عن طريق "الخيار الرهباني" يمكن أن يجذب نسبةً بسيطةً من الأمريكيين، ولكنني أعتقد أن إمكانية التجديد الحضاري الذي سينبثق عنه فجر جديد، هي إمكانية حقيقية، وأن عوائد الحياة للذين يهتمون بالجودة، التي تعارض كل شيء جماهيري لا قيمة له، عوائد ضخمة.

سأتكلم أكثر عن هذا في ما بعد. ولكنني الآن أريد أن أتكلم عن حالة روما، وعن دور "طبقة الرهبان" خلال فترة التحول التي شهدها انهيار الإمبراطورية الرومانية، إلى فترة نهوضٍ لأوروبا جديدة.

الجزء الثاني
الخيار الرهباني

*انظر ! إمبراطوريتك المرعبة، لقد أعيدت **الفوضى**؛*
يموت الضياء قبل كلمتك غير المبدعة:
يدك أيها الفوضوي العظيم تسدل الستار؛
ويدفن الظلام الكوني الشامل كل شيء.
ألكساندر بوب من الدانسياد

طبعاً سيكون من الصعب أن أظهر وأثبت بوضوح أن العوامل الأربعة التي ناقشتها في الجزء السابق ـ عدم المساواة الاجتماعية، والفقدان المستمر لأنظمة الرعاية الاجتماعية، والقدرات الفكرية المتناقصة، والموت الروحي ـ تسبب انهيار الحضارة الأمريكية المستمر. سوف لا نعرف ذلك إلا بعد ما يصبح هذا حقيقة واضحة، وحتى عندئذٍ سوف لا نعرفه، أكثر مما نعرف أسباب سقوط روما. مازال المؤرخون يناقشون أسباب هذا السقوط بعد ألف وخمسمائة سنة من حدوثه. وتظل أسباب سقوط روما محيرةً. لقد ارتأى المؤرخ البريطاني البارز جي. بي. باري أن الانهيار التدريجي للحضارة الرومانية كان نتيجةً لسلسلةٍ من

الحوادث الطارئة، ويبدو أن هناك إجماعا على هذا التفسير. والذي يحتمل أن يكون صحيحاً هو أن العوامل الأربعة المذكورة آنفاً هي مكوّنات حتمية لتقهقر وتحول حضارة ما، وكان هذا بالتأكيد ما حصل لروما.

خذ مثلاً مسألة عدم المساواة الاجتماعية. يقول المؤرخ ميير رينولد إنه في حالة روما فقد حصل " إفقار للجماهير من قبل نظام اقتصادي كان يوفر غنىً متزايداً لطبقةٍ صغيرةٍ من المالكين ". وكان التطور الأبرز في الإمبراطورية الرومانية منذ أوغستوس (حكم من ٢٧ ق. م.- ١٤ب.م.) هو " تركز ملكية الأرض في أيدي قلةٍ متناقصةٍ من المالكين، وغياب المزارعين المستقلين الصغار تدريجياً ". لقد كان النظام الاقتصادي هشاً ؛ استطاع أن يعيل أقليةً صغيرةً "اعتمد ازدهارها على الاستغلال المكّثف للجماهير التي كانت تعيش على حد الكفاف ".

ومن اللافت للنظر في هذا الشأن أنه بينما أخذت الإمبراطورية الرومانية في جزئها الغربي، روما، تتقهقر وتتهاوى، استمرت في جزئها الشرقي كحضارةٍ بيزنطية إلى وقتٍ طويل. كان الفارق الرئيس هو التوزيع الأكثر مساواةً في بيزنطة. ففي الجزء الشرقي كانت ملكية الأرض تعود للفلاحين الصغار أكثر مما تعود للملاكين الكبار، وهكذا فقد كان الجزء الأكبر من الناتج الزراعي يعود لهؤلاء الملاكين الصغار، بينما كان كل ناتج الأرض تقريباً في الجزء الغربي يذهب إلى طبقة ملاك الأراضي. وكان لهذه الأقلية من الأرستقراطية المالكة للأرض قوةٌ مسيطرة على إدارة الدولة حيث استعملتها لتجميع الثروة في خزائنها وأصبحت طبقةً من الأغنياء الخاملين.

إذن لا يمكن الركون إلى التفسير القائل أن سقوط الإمبراطورية الرومانية يعزى إلى الغزوات البربرية، لأن الخلل كان في بنية الإمبراطورية منذ الأصل. وكما يبين مايكل غرانت في كتابه " سقوط الإمبراطورية الرومانية " " كان النظام الاقتصادي معداً لأن يصبح أغنى النبلاء أكثر غنىً حتى أصبح يثير الضحك والاستغراب في القرن الخامس. لقد كانت الضرائب المفروضة لتعزيز الجيش باهظةً جداً ولاسيما على الفقراء. واستطاع الحكام الرومان أيضاً أن يدمروا الطبقة الوسطى التي كانت العمود الفقري للإمبراطورية". كانت هذه الطبقة كما يقول غرانت هي التي حافظت على حضارة العالم القديم متماسكةً، ولكنها أخذت تتقهقر وتضمحل في القرن الرابع. ثم اختفت في القرن الخامس، ولم تعاود الظهور في ايطاليا إلا بعد نهوض العائلات التجارية في أواخر القرون الوسطى.

خذ الآن عامل المردود الهامشي المتناقص. يقوم جوزيف تينتر بعملٍ جيدٍ مرةً أخرى عندما يوضح كيف أن سياسة روما في التوسع الجغرافي والعسكري لم تعد قادرةً على الاستمرار، وأخيراً انهارت. ففي القرن الثالث كان كل دينار يحصّل من الضرائب يصرف على تعزيز الجيش والجهاز الإداري لدرجة أن الدولة كانت تجنح نحو الإفلاس. والدينار الذي كان يتكون من ٩٢ ٪ من الفضة في عهد نيرون، أصبح يتكون من ٤٣٪ من الفضة في أوائل القرن الثالث. وقد شهد القرن الثالث تزايداً متعاظماً لأعداد الجيش والبيروقراطية الحكومية وتدنياً كبيراً في قيمة العملة وبالتالي تضخماً كبيراً. فقد ازداد عدد القوات من ٣٠٠٠٠٠ في سنة ٢٣٥ ب. م. إلى ٦٠٠٠٠٠ بعد ٧٠ سنة فقط. وهكذا فإن

الاستثمار في التعقيد وتضخيم وسائل القوة لم يكن فقط دون مردود، بل وداميأ للدولة ومجففاً لقدراتها. وفي أواخر القرن الخامس أصبحت روما إمبراطورية بالاسم فقط.

ومن ناحية عامل الانهيار الروحي والفكري فقد كان الانهيار لا يمكن تجنبه في تلك البيئة المشوّشة والمرتبكة، ولاسيما أن الحياة الاقتصادية للمدن قد دمّرت. وقد كان هدف الإمبراطورية، لعدة قرون، أن تجعل كل الناس هيلينستيين أو رومانيين ـ أن تنقل للناس علوم ومُثل الحضارة الإغريقية الرومانية. ولكن مع تعمق الأزمة الاقتصادية فقد برزت عقلية جديدة عند الجماهير مبنية على الدين ومعادية للإنجازات الحضارية الراقية. وبالإضافة إلى ذلك، وكما هو الحال في أمريكا المعاصرة، فإن الجهود الفكرية كانت مصممةً لتقدم التسلية للجماهير، إلى الدرجة التي انخفض فيها مستوى الحياة الفكرية إلى أدنى حد. وطبقاً لمؤرخ روما العظيم ام. آي. روستوفتسيف، فقد كان هذا من أوضح معالم العالم القديم في العصر الامبريالي : أشكال بدائية من الحياة تغرق الأشكال العليا. لأن الحضارة مستحيلة دون تسلسل هرمي من الجودة. وعندما تصبح الجودة ضحلةً وتتحول إلى ظاهرةٍ جماهيرية، فإن أيامها تصبح معدودةً. "إن الظاهرة الأساسية التي تميز مسار التقهقر والانحلال" يقول روستوفتسيف " هي الاستيعاب التدريجي للطبقات المثقفة من قبل جماهير العامة والتبسيط الذي يترتب على ذلك لكل النشاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحياة الفكرية، والتي نسمّيها تحول العالم القديم إلى عالمٍ بربري ".

لقد مارس الدين دوراً مهماً جداً في هذه التطورات. ففي القرن

الثالث، إن لم يكن قبله، كان يسود اعتقاد عند العديد من المسيحيين أن الثقافة ليست ضروريةً للخلاص، وأن للجهل قيمةً روحية إيجابية (يمكن أن نقول نسخة أولية من فوريست غامب). لقد شهد القرن الثالث ازدياداً حاداً في التصوف والاعتقاد بإمكانية الحصول على المعرفة عن طريق الإيمان والتعبير الروحي. ويقول تشارلز رادينغ في كتابه "عالم صنعه البشر" إن القدرة المعرفية على مقارنة وجهات نظر مختلفة (الواضحة تماماً في كتاب أوغسطين "اعترافات" مثلاً) قد اختفت تماماً في القرن السادس. ويقول إنه " حتى في القرن الرابع، كان القليل الذي ظلّ على قيد الحياة من الفلسفة اليونانية والرومانية مختلطاً بالسحر والخرافات (التي نرى الكثير منها في معتقدات العصر الجديد أو فيما يعتقد قسم الفلسفة في الكثير من المكتبات).

وفي الحقيقة فقد هُجرت دراسة اليونانية، وبالتالي دراسة العلوم والفلسفة بشكلٍ كامل. وفي القرن السادس كانت العقلية السائدة عقلية إيمانٍ بالخرافات والمعجزات والغيبيات عامةً حيث أنه كان ينقص الناس القدرة على معالجة الأفكار المجردة. وعندما نشر بويثيوس أعماله الفلسفية، زعم معاصروه أنها كانت تُعنى بعلوم السحر والتنجيم، وقد اتهم بأنه منجّم وساحر. وهكذا، يعلق كارل ساغان في كتابه "العالم الذي ترتاده العفاريت" على معرفة التشريح والجراحة في هذه الفترة والنهوض المقابل للاعتماد على الصلوات والشفاء بالمعجزات (والتي هي منتشرة على نطاقٍ واسعٍ في الولايات المتحدة الآن) بما فيها استعمال التعاويذ والرقى والتمائم والحجب.

لقد بقيت الفلسفة والعلوم نسخةً مشوّهةً فقط عن الحضارة

الكلاسيكية اليونانية الرومانية. وفي سنة ٦٥٠، يقول بيير ريشيه، كان طلاب العلم في غول " مدركين لدورهم كآخر المدافعين عن الحضارة الكلاسيكية التي ميّزتهم عن البرابرة ". وفي أسبانيا حاول ايزيدور اشبيليا استعادة اللفظ اللاتيني الصحيح، ولكن رجال الكهنوت سخروا من جهوده. ويقول رادينغ "يصعب تصور انهيار كامل للحضارة الكلاسيكية أكبر من هذا الانهيار الذي كان قاب قوسين أو أدنى من تدميرٍ شاملٍ لكل المكتبات ".

ومن المؤكد أن مستويات القراءة والكتابة لم تكن عاليةً في العالم القديم. ويلاحظ ويليام هاريس في كتابه "القراءة والكتابة القديمة " ارتفاعاً في عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين ٢٥٠ - ١٠٠ ق. م. وانخفاضاً في هذا العدد من ٢٠٠- ٤٠٠ ب. م.، ويبدو أن بورجوازية ذلك العصر كانت تحافظ على حضارةٍ متنورةٍ لكن أصابها الوهن في هذه التواريخ . ونرى تراجعاً في نخب المدن وفي النقوش الحجرية. وكان تفشي الأمية في الإمبراطورية الرومانية واسعاً، ولاسيما بعد القرن الثالث. كان هناك تراجع في توفر النصوص مثلاً، وقد شهدت الفترة تحولاً حضارياً أساسياً تمثل في فقدان الوعي بالإنجازات التاريخية الماضية في كتابة التاريخ وفي الفلسفة وفي الأدب. وكان من الصعب الحصول على أعمالٍ مشهورة مثل أعمال سيشرون حتى في سنة ٤٠٠ ب. م.

وفي نهاية القرن السادس كان قلةٌ من رجال الفكر والمثقفين في الغرب اللاتيني مثل غريغوري أوف توورز (٥٣٨ ب. م.) بالكاد يستطيعون كتابة جملٍ مترابطة متناسقة. ونعرف من كتبه أن إملاءه كان

فيه أخطاء كبيرة، وأن سبكه للجمل كان ركيكاً، وأن حججه كانت بدائيةً. وقد كانت كتابته مختلفةً كثيراً عن كتابة بويثيوس، ولم تستغرق وقتاً طويلاً لتصبح شيئاً عاماً. فمن سنة ٦٠٠ - ١٠٠٠ ب.م. نسي معظم الناس كيف يقرؤون ويكتبون ويفكرون، وفي الحقيقة نسوا أنهم نسوا. ويقول رادينغ انه كان هناك عجزعن تناول النصوص بشكلٍ نقديٍ، حتى بين" الأنوارالقائدة " للحضارة الأوروبية، مثل ألكوين أوف يورك في القرن الثامن. لقد اقتصر طلب العلم على جمع الاقتباسات أو الاستشهادات والحقائق ؛ والتفسيرات ومحاولات تقديم حجج الإقناع التي استعملها طلاب العلم في أعمالهم قلما شابهت النصوص الكلاسيكية التي أعجبتهم. ولم تعاود الظهور نقاشات طلاب العلم الحقيقية ،أو التفاعل المنطقي بين الأفكار ووجهات النظر حتى القرن الحادي عشر، عندما ارتأى بيرنغار أوف توورز أن كعكة القربان المقدس لا يمكن أن تصبح فعلياً جسد المسيح. وفي الحقيقة فإن الجو العقلي العام للقرن الثاني عشر لم يكن مختلفاً عن جو الستة قرون التي سبقته إلا في كونه عبارة عن نقشٍ خفيف البروز ترينا مقارنته مع القرون السابقة كم كانت القرون الوسطى قروناً مظلمة.

وهكذا فقد انطفأت الأنوار التي يضرب بها المثل في أوروبا الغربية. إن التشابه بين انهيار الحضارة الرومانية وانهيار الحضارة الأمريكية ليس تماثلاً أو تطابقاً، لكنه مقلق بالفعل. وعلى الرغم من أن اندثار حضارتنا، كما قلت سابقاً، بالضبط لأنه يحدث تحت قناع التحول "الديناميكي" إلا أنه يحتوي على عناصر شبيهةٍ باندثار الحضارة الرومانية. إن عوامل " الإعلان التجاري المطول " والجهل، والإفلاس

المحتمل، وعدم المساواة الاجتماعية الفظيع، عوامل طاغية وهي تقود إلى الموت الروحي - الفتور وعدم المبالاة والشكلية الكلاسيكية - كل هذه العوامل لا يمكن تجنبها. ومن هنا فإن السؤال الحقيقي الذي يجب أن نفكر في الإجابة عليه هو: في حالة روما، كيف نهض طائر الفينيق من الرماد بعد ستة قرون؟ بعد قرونٍ من الركود، ما الذي جعل حضارة الغرب اللاتيني خياراً قابلاً للحياة مرةً أخرى؟ وإذا استطاع الأوروبيون أن ينهضوا، لم لا نستطيع نحن، وبسرعةٍ أكبر؟ ماذا يتوجب علينا أن نفعله لنحافظ على حضارتنا خلال العصر المظلم القادم، ومن سيقوم بذلك؟

قبل أن نستطيع الإجابة على هذه الأسئلة، يمكن أن نستعين بمعرفة مصادر المحافظة على الحضارة بين ٥٠٠ و ١١٠٠ ب. م.، وما هي الفوارق التي أحدثتها هذه المصادر في اليقظة الحضارية لأوروبا الغربية بين الوقت الذي بدأت فيه عند نهاية القرن الحادي عشر والوقت الذي أخذت تترنح فيه هذه اليقظة صعوداً وهبوطاً إلى أن بدأت النهضة الإيطالية والثورة العلمية .

إن الرأي التقليدي - الذي هو صحيح جزئياً على الأقل - هو أنه خلال القرنين السادس والسابع، عندما كانت الأنوار تنطفىء، بدأت الأديرة، ولاسيما الأيرلندية، تخفي الشذرات الذهبية من الإنجازات الفكرية للحضارة الرومانية، وبدرجةٍ أقل، للحضارة اليونانية. وفي سنة ٧٠٠ ب. م.، كما يقول المؤرخ البريطاني هغ تريفور روبر "كان العلم والثقافة الأوروبية قد هربا إلى مستنقعات أيرلندة" وبينما كانت أوروبا تتعرض لغزواتٍ قوطية وعربية ومن قبل الفايكنكز، فإن بضعَ مدارس

مثل مدرسة الـ " فيزابل بيد " (بين حوالي ٦٧٣ ٧٣٥) كانت تعمل في دير "جارو" في نورثامبريا. لقد حافظت مثل هذه المدارس أو الأديرة على المعرفة الكلاسيكية، حاملةً بذور الحياة الغربية "من خلال الشتاء الكالح للعصور الوسطى المظلمة ".

وفي القرن السابع أقيم في " غول " فقط مئتا دير جديد. ويقول المؤرخ م. ل. ليستنر في كتابه "الفكر والأدب في أوروبا الغربية" "لقد أنتجت الأديرة الأيرلندية رجالاً متميزين أثروا تأثيراً عميقاً على الفكر والأدب في أوروبا الغربية ". لقد امتد عملهم التبشيري إلى سكوتلندا والبر الأوروبي، وتوافد الطلاب زرافاتٍ ووحدانا إلى هذه المناطق. وأصبحت الأديرة التي أسسها الراهب الأيرلندي "كولومبا" في داري وأيونا مراكز مهمةٍ للدراسة. وفي أوائل القرن السابع، أسس الراهب "آيدن" في أيونا ديراً جديداً ومركزاً ثقافياً في ليند سفرن (وهي جزيرة صغيرة مقابل ساحل نورثامبرلاند).

لقد كان القرنان السابع والثامن أيضاً فترة تجريب في تصميم الكتب والعمليات الفنية في صنعها، وقد نشر الطلاب الأيرلنديون هذه الأساليب الفنية في أوروبا كلها، الشيء الذي كان له أثر عميق على الثقافة والحضارة. وقد انتشرت المخطوطات والكتب بفضل غرف النسخ، وفي ما بعد، بفضل مكتبات الكاتدرائيات التي كان العديد منها يمارس شكلاً من أشكال إعارة الكتب داخل المكتبة.

ما الذي كان يجري في الأديرة؟ لقد كانت القراءة الدينية داخلها تأخذ شكل برنامج قراءة " الكتب العظيمة". كانت، كما كان مفروضاً، تقدم ثقافةً أدبيةً للرهبان. ويجب أن يضاف إلى هذا دور مدارس الأديرة،

وغرف النسخ، والمكتبات. وعلى الأقل نظرياً، فقد كانت المدارس تعلم الثلاثية (الفنون الثلاثة التمهيدية : النحو والبلاغة والمنطق، والتي يتبعها الفنون السبعة في مدارس العصور الوسطى)، والرباعية (الحساب والهندسة والموسيقى والفلك). وبينما كانت غرفة النسخ تعمل كدار نشر، حيث كانت تنسخ الأعمال الكلاسيكية ويبدع المبدعون مخطوطاتهم، وهكذا فقد كانت هذه المواد تملأ المكتبة.

لقد شكّلت هذه الكتب والمخطوطات أهم مجموعات الكتب بين القرنين الثامن والثاني عشر. وبالتدريج، كما يقول ديفيد ناولر في كتابه "الرهبانية المسيحية" "أصبحت الأديرة مراكز تنويرٍ وحياةٍ في عالمٍ بسيط، راكدٍ وشبه بربري، لحفظ، وفي ما بعد، لنشر ما تبقى من الحضارة القديمة". ويقول المؤرخ البارز تشارلز هومر هاسكنز أيضاً إن هذه الأديرة كانت "مجموعةً من الجزر في بحرٍ من الجهل والبربرية، وقد حافظوا على الحضارة من الانقراض في أوروبا الغربية في الوقت الذي لم تتحرك أي قوى أخرى من أجل تلك الغاية ".

إن المشكلة الوحيدة في هذا السيناريو هي أن التاريخ لا يسير دائماً في خطٍ مستقيم، ودور الأديرة ليس استثناءً. فإذا حافظت هذه الأديرة على العلم والثقافة والحضارة القديمة، فقد فعلت ذلك في إطار التخلص مما اعتقده الرهبان زائداً في تلك الأعمال التي نسخوها. وحتى إن توماس كاهل يعترف في كتابه "كيف حمى الأيرلنديون الحضارة" أن هناك احتمال قيام الرهبان بنسخ تلك الأعمال دون درايةٍ بمحتواها. وهنا يكمن درس موضوعي يتعلق بعدم سير التاريخ على خطٍ مستقيم، والذي هو ميزة ديالكتيكية يتميز بها. يحذرنا هذا الدرس أننا لو فكرنا

بتقديم توصيات للقيام بنهضة ما في القرن الثاني والعشرين مثلاً، فعلينا أن ندرك سلفاً أن هناك احتمالاً وارداً دائماً هو أن الأمور ربما لا تجري كما خطط لها أن تجري، ولا يوجد ضمانات أبداً. وبمثل هذا الاعتبار لننظر الآن بدقة إلى دور أديرة القرون الوسطى في الحفاظ على حضارة العالم القديم.

هناك واحد من أشمل البحوث في هذا الشأن وهو كتاب بيير ريشي "التعليم والثقافة في الغرب البربري" الذي يتكلم عن الفترة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى النهضة الكارولينجية القصيرة في القرن الثامن. وتبرز ثلاثة أمور من هذه الدراسة : الأول، لا يوجد حدٌ زمنيٌ فاصل بين نهاية نمط حضاري ما وبداية نمط آخر. ليست المسألة أن روما انهارت فجأةً في ٤١٠ أو ٤٧٦ ونهضت أوروبا العصور الوسطى فجأةً. لدينا هنا نمطٌ متحول ـ إنه استمرار بعض الأجزاء من الحضارة القديمة بالحياة إلى جانب ظهور أجزاء من الحضارة الجديدة. في ٧٥٠ كانت أوروبا تعيش في القرون الوسطى، ولكن بعض البقايا من العالم القديم كانت موجودةً في الجو العام.

الأمر الثاني : الانهيار والتجدد الحضاري عملية تدريجية، وقد ظهرت دون ملاحظة نمط هذا الانهيار أو نمط هذا التجدد. وهذه الأجزاء لم تكن مرتبطةً ببعضها، وقد ظهرت بشكلٍ مستقل دون معنىً واضحٍ لظهورها. ثم ظهرت ومضات لامعة ـ قلةٌ قليلةٌ من طلاب علم مستقلين مثل جون سكوتوس ايريجينا (القرن التاسع) ـ ولكنها لم تترك أي أثر، متلاشيةً بشكلٍ غير مفهوم مثلما ظهرت.

والأمر الثالث : إن الأديرة التي حافظت على علم وحضارة العالم

القديم كانت فعلياً معارضةً لمعظمها ـ لمعظم الأعمال التي نسخها الرهبان، وهكذا فقد حفظتها (حفظها الرهبان) في شكلٍ دينيٍ، ولكن على حساب جزءٍ لا يستهان به من محتواها. وكنتيجةٍ لهذا فإن مساهمتها (مساهمة الرهبان) في نهضة القرن الثاني عشر وما بعده كانت مساهمةً ضبابيةً، على الرغم من أنها حقيقية.

وقد نوّهت مسبقاً إلى هذا الموضوع، جزئياً على الأقل، في إشارتي إلى تشارلز رادينغ الذي يقول إنه في ٦٠٠ حتى المثقفون البارزون لم يكونوا قادرين على التفكير مثلما كان يفكر مثقفو العالم القديم أو مفكرو القرن الثاني عشر. لقد حدث انقطاعٌ ما في العقلية أو الأرضية الفكرية. ويقول رادينغ إن هذا الانقطاع هو " استبدال العقل الذي يفكر بالعقل الذي يقلّد". وهكذا فإن غريغوري ١ (غريغوري العظيم)، هو واحد من المفكرين البارزين في القرن السادس، الذي لم يدرك مفهوم " التعمد " في فعل شيءٍ ما. (أن تفعل شيئاً ما عمداً أو عن قصد). فبالنسبة له، كما كان بالنسبة لازودور أوف اشبيليا ومعظم مثقفي ذلك العصر، بمن فيهم الرهبان، لم تكن الأفكار طرقاً للنظر إلى العالم، أو تحليل قضيةٍ ما، ولكنها "موضوعاتٍ" قائمةً بذاتها.

ويقول رادينغ إن مثل هؤلاء الناس ربما لم يفهموا مرامي ومضامين النصوص دون أي سؤالٍ عما إذا كان ما نسخوه له معنى أو أنه ناقض بعض المراجع. وفي الحقيقة كان كثير من الرهبان "البنيديكتيين" قد دخلوا الأديرة كأطفال جلبهم آباؤهم وأمهاتهم إليها. وقد تألف طلب العلم من تجميع الاقتباسات والاستشهادات والحقائق التي لم تستعمل لتدعيم أفكارٍ معينة فقط، بل لجعل هذه الأفكار غير ضرورية أيضاً.

وهكذا فإن المحاكمة المنطقية، أو التفكير المنطقي الذي كانوا يستعملونه لا يشبه التفكير المنطقي الذي كان يستعمله مفكرو العالم القديم الذين كانوا يكنون لهم الاحترام الكبير. فقد أوصل الرهبان كتابات بويثيوس إلى القراء، لكنهم لم يستجيبوا لما كان يقوله بالفعل. إن ريشيه يوافق على هذا ويؤكد أنه على الرغم من ظهور النهضة الكارولينجية بالفعل من ٧٧٠- ٨٥٠، إلا أنها كانت تقليداً من التقاليد الأبوية لآباء الكنيسة، ولم تكن نهضةً أصيلة.

وهكذا، يبدو أن المبادئ الفكرية المتميزة، والتعريفات العلمية والمنطق ضاعت بالنسبة لقراء القرون الوسطى. وكما يحدث اليوم، فإن عالم العصور الوسطى هو عالم " يونغ " العاجز عن الاستيعاب والتفكير المنطقي. وبتعبيرٍ آخر، كان فهم العالم يعتمد على الخرافة والسحر، وكانت التوليفة العقلية توليفة رموز وتشبيهات وصور. ويقول ديفيد ناولنر إن أكثر ما حافظ عليه الرهبان كان محفوظاً في مخزنٍ بارد ولم ينقل من مكانه، وكان تركيز الرهبان البينيديكتيين عل التراتيل الدينية ودراسة الكتاب المقدس. ويقر هاسكنز أنه بينما كانت المكتبة ومدرسة الدير موجودتين، كانت مراكز العلم الحقيقية قليلة جداً. وكانت الفنون الليبرالية السبعة عرضيةً إلى حدٍّ كبير، وباختصار، كانت الحياة الفكرية رتيبةً ومملةً.

على أية حال إن رأي ريشيه ليس مبنياً عل مفهوم تغير في القدرات المعرفية، عل الرغم من أن ما حاول توضيحه لم يكن متناقضاً مع تشارلز رادينغ. رأيه هو أن الأديرة، ومنذ القرن الرابع، لم تكن مدارس للدراسات الدينية، بل للتدريب على الزهد والتقشف، وقد ظلّت

كذلك إلى حدٍ كبير. والدراسات المسيحية، أي دراسة اللاهوت، كانت تحظى باهتمامٍ كبير حتى القرن الخامس، ولكنها انتهت بعد ذلك. ولم يكن لبويثيوس أي أتباع، وقد حزن على جهل معاصريه، بينما اعتبر الرهبان ورجال الكنيسة أن الفلسفة مصدر هرطقة.

وفي سنة ٥٠٠ كانت الأفكار المثالية الرهبانية تضم فكرة تعارض العلم والثقافة مع الثقافة المسيحية. وكانت الفكرة من إقامة مدارس الأديرة إحداث قطيعةٍ مع الثقافة الكلاسيكية، وتدريس "علم" التأمل الزهدي. وهكذا نستطيع أن نشير إلى غرفة النسخ في الدير كمكانٍ للمحافظة على الحضارة. ولكن نسخ المخطوطات كان تمريناً يدوياً أكثر منه تمريناً عقلياً، وكان الاهتمام منصباً على الخط وليس على الفلسفة.

إن الدير العظيم الذي أسس نحو ٤١٠ على جزيرة سينت هونورات (مجموعة جزر ليرنز في الجزء الغربي من المتوسط، كان مركزاً" نسكياً "بشكلٍ خاص، وأصبح مثالاً يحتذى لأديرة كثيرة غيره. وقد أسس القديس بينيديكت مثلاً دير " مونت كاسينو " لنفس الغاية. لقد كان الغرض من إقامة الأديرة هو أن يقطع الرهبان علاقاتهم بعالم الحضارة القديمة، وقد شقّ رؤساء الأديرة الطريق. وبتعبيرٍ آخر كان الهدف هو " التلقيح بكلمة الله. " وقد كانت عادة القراءة الشخصية حتى بالنسبة للمثقفين صعبةً جداً. وعلى أية حال كانت معظم القراءة في الكتاب المقدس وفي أعمال آباء الكنيسة، ولكن، مرةً أخرى، يشكك ريشيه في أن يكون الرهبان قد فهموا هذه النصوص بالفعل.

كانت قراءة النحويين الكلاسيكيين في "التفسير" الذي هو علم مسيحي بالمعنى الذي فهمه أوغستين. لكن قراءة الدير كانت شيئاً

مـختلفاً، كـانت جزءاً مـن عـلاج " زهدي" وكـان الهـدف منهـا " صـفـاء القلب". إن تعريف غريغوري أوف تورز للفنون السبعة الليبرالية، كما يقول ريشيه "يحمل شبهاً بسيطاً فقط بالحقيقة " وكان يعتبر الدير الذي أسسه كاسيودوروس في فيفاريوم في كالابريا أكبر حدث فكري في النصف الثاني من القرن السادس، لكن التوجه كان توجهاً زهدياً أيضاً في المقام الأول، والتيار الإنساني الذي رعاه كاسيودوروس انتهى بموته. إلا أنه عندما بدّدت مكتبة الدير في ما بعد، أسهم هذا الأدب (المتعلق بتيار كاسيودوروس الإنساني) في تجديد الدراسات في الغرب. ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة لايزودور أوف اشبيليا، الذي تأثر القلة فقط بعمله في وقت متأخر كنتيجة لانتشار المخطوطات والكتب.

ويمكن أن نرى النمط الزهدي في كل مكان. ربما كانت ليندسفرن مركزاً دينياً مهماً ولكن لم يهتم هذا المركز بالثقافة الكلاسيكية ؛ ولم يكن ما جلبه الرهبان الأيرلنديون ككولومبا إلى " غول " دراسةً عقلية. وقد رفض كل من كولومبا وأيدان في ليندسفرن العلم والثقافة الكلاسيكية، وحاولا غرس الرغبة في تأمل الكتاب المقدس والتفكير به. ويتألف كتاب "حياة القديس كولومبا " الذي كتبه تاسع رئيس لدير أيونا ، الراهب أدومنان، من قصص المعجزات، مع أن مؤلفه قد كرّس معظم حياته للعمل الأكاديمي والبحث العلمي. ونستطيع أن نستشف أن معظم روتين كولومبا اليومي كان يتألف من قراءة الكتب ونسخ المخطوطات، ولكن هدف هذا النشاط كان الدين والطقوس الدينية. وقد خاف من الفلسفة رجل مثل "بيد" لأنها تؤدي إلى الهرطقة، واعتبر الأدب الدنيوي هدّاماً. إنه لم يستكشف مؤلفات العالم القديم كأعمالٍ

أدبيةٍ أو فلسفية ؛ بل عل العكس، فبالنسبة له، كما كان الحال عند الرهبان الآخرين، لم يكن هناك أي معرفة خارج دائرة الإيمان. ويقول ريشيه إن رجال الكهنوت الأنكلو- ساكسون لم يعرفوا إلا القليل من اللاتينية أو لم يعرفوها أبداً، وكانوا في الحقيقة جهلةً مثل عامة الناس.

إذن اختفت الحضارة المكتوبة في ٨٠٠ وقد ظل بمقدور نخبةٍ قليلة الوصول إلى الحضارة الفكرية. ويقول ريشيه إن الكارولينجيين اعتقدوا أنهم اكتشفوا من جديد أعمال المؤلفين القدماء، ولكنهم فعلياً كانوا يقرؤون ورثة هؤلاء المؤلفين، كما أشرت سابقاً. ولم يكن الكارولينجيون مهتمين بالفلسفة أو البحث العلمي الحقيقي، بل أن يعجبوا آباء الكنيسة مثل كاسيودوروس وايزودور. لقد استطاع العلم والثقافة الأصيلان الظهور فقط عندما تضاعفت المدارس في ما بعد، وعندما أعيد نسخ الأعمال القديمة من مخطوطاتٍ أدق من السابقة.

إلا أن هذا الشكل المشوّه للمحافظة على الحضارة القديمة خدم غرضاً مهماً. لقد نسخت المخطوطات، وازداد عدد المكتبات والكتب التي نسخت. وقد جعل الانتشار اللاحق لكل هذا تجديد العلم والثقافة ممكناً. وقد شكّل التأمل في الكتاب المقدس أساساً للبحث الفكري اللاحق. وعندما ترسّخت " الثورة المعرفية " (كتاب: " تغير العقلية " لرادينغ) التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر ـ والتي كانت جزءاً من التجديد الديني ـ كانت المادة القديمة متوفرةً عل الأقل، لينظر إليها الآن بعيونٍ جديدة. وعند هذا الحد فإن استرجاع النصوص وإعادة إحيائها تزامن مع إعادة إحياء وإنقاذ العادات الفكرية الأصيلة.

لذلك كان على النصوص أن تظل هناك حتى تظهر نهضة القرن

الثاني عشر، وقد استطاع رهبان العصور المظلمة أن يحافظوا عليها، حتى ولو لم يفهموها تماماً، وعلى الرغم من حقيقة أن غرضهم كان زهدياً وليس فكرياً. وعندما كتب رئيس الدير البينيديكتي غويبرت أوف نوجنت في ١١١٥ سيرةً ذاتية، تمكن من التعرف على زميلٍ له كطالب علم ومفكر في شخص أوغستين. ولكن هذا هو نصف قصة الإحياء الثقافي والحضاري.

ما هو التحول المعرفي للقرن الثاني عشر، وما هي العوامل التي مكّنته من الظهور؟ يبقى المؤرخ تشارلز هومر هاسكنز عميداً لدراسات القرن الثاني عشر حتى بعد سبعين سنةً من وفاته، والذي وصف كتابه "نهضة القرن الثاني عشر " محتوى السؤالين السابقين. لقد أكد هاسكنز على أهمية دور الحضارة الكلاسيكية في النهضة الفكرية في أوروبا، ولكنه أعطى الأهمية الأكبر لدور المؤثرات التي أتت من خارج الغرب اللاتيني، المترجمين من اليونانية والعربية مثلاً. وبرأيه فإن نهضة القرن الثاني عشر بدأت بتأثيرٍ ما من الحضارة المسيحية اللاتينية وتأثيراتٍ حضاريةٍ أخرى. وبعد سبعين سنة فإن الصورة تغيرت قليلاً ؛ معظم الباحثين في تلك الفترة يرون أن الاهتمام بالحضارات الأخرى أكبر لأنها نتيجةٌ لنهضة القرن الثاني عشر وليس لأنها سبب لهذه النهضة. لأن النصوص ـ سواء أكانت من الحضارة القديمة أم من إسبانيا المغربية (العربية الإسلامية) لا تستطيع بذاتها أن تبدأ بأي شيء. فالنوعان من النصوص ـ "الداخلي" و"الخارجي " ـ قد وجدا قبل ظهور الحضارة الأوروبية دون أن يمارسا هذا النوع من التأثير. لماذا كان القرن الثاني عشر متلقياً لهذه النصوص فجأةً؟ إن النصوص هي شرط ضروري للتجديد الحضاري، ولكنها غير كافية.

ما حذفه هاسكينز في عرضه هو دور بعض التغيرات الدينية في جعل المواقف من العلم والثقافة ممكنةً. وبتعبيرٍ آخر لقد عرض هاسكينز "نهضةً دنيويةً". وكما أرى في " الوصول إلى الوعي" إن إدراك القرن الثاني عشر للتجديد الديني كان يفترض نموذجاً جديداً من الوعي، الذي كان جزءاً متنامياً من الشعور بالشخصية الفردية، وبالحياة الخاصة للفرد وإدراكه لذاته.

وبمتابعة ملاحظات تشارلز رادينغ عن الغياب " الرهباني " لمفهوم القيام بفعلٍ ما عمداً أو قصداً في أوائل القرون الوسطى، يمكن أن نلاحظ أنه لم يكن للكنيسة أي اهتمامٍ في حالة ارتكاب الخطيئة، في سبر وجدان مرتكب الخطيئة. كانت الكفّارة أو العقوبة الذاتية تتكون من التعويض أو الإصلاح السلوكي، ويمكن لمرتكب الخطيئة أن يطلب من طرفٍ ثالث القيام بذلك، إذا أراد أو أرادت. المهم هو تنفيذ العقوبة. لم يكن هناك اهتمام بما أصبح يعرف في ما بعد (القرن الثاني عشر) "بالندم الداخلي"، حيث كان يطلب من مرتكب الخطيئة أن يبحث في روحه ويرى خطيئته. لم يفكر عقل القرون الوسطى، بما فيه الكنيسة، حسب هذه الاعتبارات.

وبنفس الطريقة لا يوجد إشارات إلى التجربة الروحية المباشرة، كالتي كانت تشاهد وتوصف من قبل شخصياتٍ مثل تيرتوليان أو أوغستين. لقد كان الإيمان ببساطة عبارةً عن طقسٍ من الطقوس وعقيدةً دينية. وفي حالة القانون أيضاً، لم يكن هناك أي نقاشٍ لقصد المجرم، ولكن فقط للفعل الإجرامي (الجريمة نفسها). وقد تغير كل ذلك اعتباراً من ١٠٥٠ فصاعداً. فبدأ القانون مثلاً يؤكد على العلاقة بين

"القصد" (تعمد فعل شيء) والأخلاق، وللمرة الأولى في عدة قرون، ظهرت الهرطقة فجأةً. وبدأ المهرطقون بإنكار فاعلية الطقوس الدينية مجادلين أن أشياء مثل "التعميد" تتطلب إيمانا داخلياً لتكون ذات فعالية. وقد سمّوا "الاعتقاد التقليدي" " أقنية بدون ماء ". ثم بدأت المجتمعات الرهبانية تستيقظ لفكرة " الداخلية " أو " الالتزام الشخصي الشديد ".

لقد أصبح الحب الرومانتيكي الذي كان نادراً فيما سبق عبارةً عن "حركة " في جنوب فرنسا، والمرايا، التي اختفت من الاستعمال بشكلٍ شبه تام في القرون المظلمة، أصبحت شعبيةً ثانيةً. في ١٢٠٠ كانت جريمة القتل "بخبث" تعامل بعقوبةٍ خاصة ـ جريمة رقم ١، كما يسمّيها المدعون الأمريكان الآن. لقد كان هذا الاهتمام المتعاظم "بالاستبطان" (فحص المرء لذاته لمعرفة دوافعه) مؤسساتياً وفردياً. لقد أصبحت المعصية أو الإثم موضوعاً عاماً، وأخذ القسيس دور المشرف على الاعتراف، أو الناصح الروحي. وقد كتب القسيس فرانسيس أن الراهب يجب أن يقدم الخدمة طواعيةً، وليس كما أصّر بينيديكت في القرن السادس، كنوعٍ من الفعل الميكانيكي المنعكس.

وقد عاودت الظهور في القرن الثاني عشر الفنون التشكيلية الفردية، التي كانت شائعةً في العالم القديم ثم غابت في ما بعد. ولم يهبّ الناس للانخراط والمشاركة في الحروب الصليبية لولا حصولهم على تجربة جديدةٍ من الوعي الداخلي والالتزام الديني الشخصي. الفكرة هي أن الاهتمام بالحياة الفكرية الحقيقية ـ بما فيه تقدير الأعمال الكلاسيكية والترجمات من اليونانية والعربية ـ لم يكن بالامكان أن يحدث دون

معاودة ظهور الذات المهتمة بهذه الأشياء، ويبدو أنه أصاب تلك العملية نوع من الانقلاب الروحي أو السيكولوجي في مركزها.

لا نجافي الحقيقة إذا قلنا انه لا أحد يعرف لماذا حصل مثل هذا الانقلاب بحيث جعل المجتمع يهتم بمثل هذه الأمور. وكل الذي نستطيع فعله هو الإشارة إلى سلسلة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت موازيةً لها والتي قد تكون السبب أو النتيجة : تجدد المراكز الدينية، ولادة طبقة وسطى من جديد كانت قد تدهورت في القرن الخامس، توفر مصادر جديدة لدعم المراكز الفكرية الجديدة. ولا نعرف لماذا توفرت مصادر الدعم هذه. لكن المؤرخ ر. ساذرن يقول إنه صار هناك عدد كبير من الأشخاص المهتمين بمهارات جديدة ومعرفة سبل التقدم الشخصي والتعلم الفردي. وقد ظهرت الحاجة لمثل هذه المهارات لشغل المراكز العالية في الكنيسة والحكومة والإدارة، مثلاً. وقد بدأ الطلاب بالبحث الدؤوب عن المدرسين الأكفاء، وعن نصوص جديدة وأساليب جديدة للفهم.

لقد احتاجوا إلى كل ذلك من أجل دراسة القانون والطب والطبيعيات، وأرادوا أن يتعلموا كيف يجادلون ويحللون. ويكتب جون بولدوين شيئاً شبيهاً قائلاً إن نهضة القرن الثاني عشر كانت ثورةً في التعليم، عندما حاولت المدارس في المدن تحدي مكانة المدارس الكنسية في الأديرة، وقد تحولت مدارس المدن هذه في ما بعد إلى جامعات بعد ١٢٠٠. وقد أشار مؤرخون آخرون إلى العالم الجديد النامي - عالم "اتركه يعمل، اتركه يمر"، وعالم النمو الاقتصادي السريع في الحرف والتجارة والأعمال. ومنذ ١١٠٠ وما بعدها حدث توسع في الملكية

الخاصة للأسرة، وبرزت حاجة خاصة لعمل المهنيين والاختصاصين مثل الكتبة المدنيين، وكتاب العدل والمحامين. وقد جعلت هذه الحاجة إحياء الدراسات اللاتينية ضرورياً لأن العقود التجارية والمواثيق وقرارات المحاكم والسجلات مكتوبة كلها باللاتينية. وفي مقالة عنوانها "الكلاسيكية والأسلوب في الأدب اللاتيني " تقول جانيت مارتن إن حيوية القرن الثاني عشر تتبدى في جودة ووفرة الأدب اللاتيني. وقد بدأت أوراق البحث والكتيبات والنشرات التي تشرح أصول الكتابة والإنشاء في الظهور نحو ١٠٧٠.

وقد قلّد الكتاب الجدد بشكلٍ واعٍ أسلوب الكتاب اللاتين مثل سينيكا وسالات وسيشرون وكونتيليان، ووصلت هذه الكتابات إلى مستوىً رفيع من الجودة. وقد ازدهر الشعر اللاتيني أيضاً خلال هذه الفترة ازدهاراً رافقه اهتمام بالدقة النحوية وبمدى التأثيرات التي يتركها الشعر على الناس.

لو كان كتابي هذا كتاب " عصر جديد " أو فيلم هوليودي، لكان أبسط بكثير. عندئذٍ أستطيع القول، انظروا ، لقد سقطت روما. لقد انطلق كل أولئك الرهبان (يقودهم، في نسخة الفيلم أرنولد شوورزينيغر) في كل الجهات يحافظون على الحضارة ويحمونها ، وقد أدّى ذلك إلى نهضةٍ في ما بعد ؛ لذلك فالذي نحتاجه هو أن نشكل طبقةً رهبانية جديدة لنفعل الشيء نفسه اليوم وننقذ أمريكا. ربما هناك بعض الصحة في هذا ، ولكن الدراسة الموضوعية في هذا الجزء من الكتاب توضح أن التاريخ لا يسير في سياقٍ بسيط من السبب إلى النتيجة. إن الكلمة المعبرة في هذا المجال هي كلمة كارل ماركس "يصنع الناس تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه كما يريدون

بالضبط، كل واحد منهم له نواياه ومقاصده وأهدافه الخاصة، ولكن النتيجة النهائية لا تكون كما توقع أو خطط له".

إن الدروس المستقاة من روما وأوروبا القرون الوسطى ليست دروساً واضحة المعالم. وإذا كانت ظاهرة الخيار الرهباني ستعيد نفسها في القرن الواحد والعشرين، فهي لن تكون بنفس الطريقة كما كانت في السابق، وهذا جيد. وبعد كل هذا، إذا كان لدى رهبان القرون الوسطى أغراض زهدية، وحافظوا على النصوص التي لم يفهموها في أغلب الأحيان، فسيكون هذا نموذجاً غريباً لطبقةٍ رهبانيةٍ تقلدهم اليوم. حتى إنه لا يمكن للمرء أن يجادل أن عملية المحافظة على علم وثقافة الحضارة القديمة العرضية، وقد كانت كذلك، ساعد على تأخير ظهور نهضة القرن الثاني عشر. ولا أعتقد، من جهةٍ أخرى، أن المؤسسات والتشريعات ستكون أفضل عربةٍ للاحتفاظ بالحضارة ونقلها للأجيال اللاحقة، لأننا نتكلم في آخر المطاف عن عاداتٍ فكرية وعقلية فردية لا يمكن ولا يجب أن تنتقل عبر مجموعةٍ من البنى والتراكيب. وإذا أردنا أن يكون مثل هذا الانتقال فاعلاً، فيجب أن يكون تلقائياً وطبيعياً، يجب أن يكون جزءاً من الهواء الذي نتنفس.

لدى المؤسسات والتشريعات طريقة ذكية لقتل كل ذلك. (قتل المظاهر الحضارية التي يتوجب علينا أن نحافظ عليها من أجل أن تنتقل فيما بعد للأجيال اللاحقة). وعندما أقول إذن إنني متفائل بخصوص الإمكانات المعاصرة للخيار الرهباني، فإن هذا القول لا يمثل إلا تخميناً من جانبي، وربما هو تفكير عاطفي ؛ والتاريخ يظل مخلوقاً غريباً ولا يمكن التنبؤ بتغيراته. ولكنني أعرف بشكلٍ أكيد أننا إن لم نحاول

المحافظة على الشيء الجيد في حضارتنا، يمكننا أن نطمئن إلى أن إمكانية تجديدنا الحضاري معدومةٌ تماماً. وبغض النظر عن التواءات وتعرجات القرون الوسطى، فإن توفر التركة اليونانية الرومانية، بالشكل الذي كانت عليه، كان الشرط الضروري، وإن لم يكن كافياً لوحده، للتجديد الحضاري اللاحق الذي بدأ في القرن الثاني عشر.

وبالنسبة لإحياءٍ حضاريٍ مستقبليٍ، فسيعتمد الكثير منه على الالتزام بالفردية، الشيء الذي تعرض للذم كثيراً في السنوات الأخيرة. ونسمع كلاماً كثيراً عن أن الفردية سيئةٌ جداً، وأننا نحتاج إلى أن نفكر بعقلية المجموعة. المسألة هي أن "المجموعة " تهتم بالتماثل والانسجام وليس بالعمل الجماعي الحقيقي. وهناك اتجاه في الولايات المتحدة الآن نحو الذات، وهو اتجاه تحاول ثقافة الاحتكارات والتكنولوجيا الجديدة أن تجعله سخيفاً. وبمحاذاة هذا - وكما حدث في أوائل القرون الوسطى - إننا نشهد انحلالاً وتفككاً وتراجعاً في قدرة الفرد على التركيز على ذاته من أجل تثقيف نفسه والقيام بشيء ما بالنسبة لما يجري حوله، وفقداناً أو تشويهاً لقيمة المحاكمة العقلية الفردية وللإنجاز الفردي. كل هذا هو عامل أساسي في تفكك وانحلال الثقافة الأمريكية، التي هي، وعلى الرغم من قبول الرأي العام لهذا التوصيف، ثقافة القطيع، وليست ثقافة مجموعٍ من الأفراد. وهكذا، يكتب عالم الاقتصاد السياسي كينيث مينوغ " إن الهجوم على الفرد الذي أصبح موضةً، يرقى إلى أن يكون " مشروعاً لسد الباب بوجه الحيوية الخلاقة للعالم المعاصر". إذن من المظاهر المهمة للخيار الرهباني الجديد هو رفض هذا المشروع، مشروع العمل في "المجموعة" (والتي هي مجموعة الاحتكارات)، ورفض العمل المؤسساتي للاحتكارات و" شرعنة " ما تراه خادماً لمصالحها.

إن راهب اليـوم ملتـزم بأن يعي ذاته بشكلٍ جـديد، وملتـزم بأن يتجنب تفكير المجموعة، بما فيه الثقافة المضادة للاحتكارات أو للثقافة الاستهلاكية. وسوف لا ينفع الخيار الرهباني أن تكون الطبقة الرهبانية الجديدة "طبقة" من أي نوعٍ كان. وكما يشير الاستشهاد من ي. ام. فوستر على الصفحة ٩ فإن قوة مشاركة ومساهمة هذه الطبقة في عملية التجديد الحضاري تكمن في ابتعادها عن العمل المؤسساتي. وهكذا فإن بطاقات العضوية والشارات (سواء أكانت حقيقية أم مجازية)، ولغة الطليعة أو الطبقة الطليعية والخط الحزبي المنسجم مع هذا، والمنظمة - كل هذا هو الضد الأكيد لكل ما يعنيه الخيار الرهباني.

نحن لا نريد أن نقيم معاهدنا أو لجاننا الخاصة بنا؛ ذاك سيكون قبلة الموت. ويرينا ريتشارد اليس في كتابه "الجانب المظلم لليسار" كيف تحولت الحركات السياسية الطليعية، بما فيها الحركات التي تهدف إلى حماية البيئة وإقرار حقوق المرأة، إلى حركاتٍ مثاليةٍ خيالية، ثم أخيراً إلى حركاتٍ تضطهد الناس، ولكنه يقر أن هذا هو اتجاه يميني أيضاً. المسألة هي أن هذا هو ميل " للمجموع " أو لما يسمى "عقل المجموعة " أو العقل الجماعي. إذن كلما كان النشاط فردياً، كلما ابتعد عن عيون العامة، كلما كان وسيصبح باطراد فعّالاً. أنا لا أقول أنه لا يتوجب على أصحاب القناعات المشتركة أن يقيموا علاقاتٍ فيما بينهم، ولكن أن يجعلوا هذه العلاقات غير رسمية. وكما يلاحظ كينيث مينوغ "إن الغربيين الذين يؤمنون بفاعلية النشاطات الفردية لديهم القدرة على العمل المشترك تفوق قدرة الحضارات المنظمة على أسسٍ جماعية ".

وأخيراً، وكما أشرت سابقاً، لدينا ميزة رئيسة نتفوق بها على شكل

القرون الوسطى الأصلي للخيار الرهباني، وأعتقد أنها يمكن أن تسّرع عملية التجديد الحضاري : هذه الميزة هي أننا نعرف على ماذا نحافظ من الحضارة الرأسمالية، ولماذا. وعلى العكس من رهبان القرون الوسطى، إننا لا نقرأ نصوصاً لا نفهمها ، ولا نطالب بإتباع طرق تفكير وأساليب حياةٍ مغايرةٍ للنتيجة التي قصدناها. وبينما لا يعني هذا أن ما نعمله سيكون ذا أثرٍ مباشر ـ أو ربما لا يكون له أي أثر ـ ولكنه سيعطي وضوحاً لهدفنا وسيجعل نشاطنا مفيداً. وسأتكلم عن هذا أكثر في الجزء الرابع من هذا الكتاب. لكنني أريد أن أعرض الآن استطراداً قصيراً وأقول بضع كلماتٍ عن الخيار الرهباني في الأدب. ومع أن هذا الموضوع ليس كبيراً، فهناك بضعة مؤلفين في أدب الخيال العلمي استطاعوا تمييز النمط الذي أشير إليه، وحاولوا أن يستخلصوا مراميه التي تخصنا الآن.

فاصل
شهادة الأدب

.... مخاوفنا من "عصر مظلم" جديد تتلاشى فيه الحضارة نفسها التي عرفناها أو تنحصر في جزرٍ صغيرةٍ تحفظها من الاندثار من أجل الأجيال اللاحقة.

جورج ستاينر من "بلوبيرد كاسل"

إن المهنة الممكنة للخيار الرهباني في عصر ما بعد الحداثة هو موضوع رواية ولتر ميلر عن المستقبل. الرواية هي "ترنيمة دينية من أجل لايبوفيتز" والتي أصبحت من أشهر روايات الخيال العلمي. تبدأ القصة في القرن السادس والعشرين بعد الميلاد، والأخ فرانسيس، راهب في "أخوية" (نوع من تنظيمات للرهبان) القديس لايبوفيتز (سيتم ضمه إلى مجموعة القديسين بعد قليل)، يقوم بالصلاة والصيام الكبير عشية العيد في صحراء يوتا في الولايات المتحدة. وعند التنقيب في بعض الآثار، يتعثر في ملجأ ذريٍ تحت الأرض يعود لمنتصف القرن العشرين - فترة ظلام ما قبل الفجر في عصر التنوير. ويجد هناك صندوقاً معدنياً صدئا وفيه بعض الأوراق، التي، وبشكلٍ يثير الذهول، تخص القديس لايبوفيتز نفسه.

لقد أزاح فرانسيس الستار عن مخلفات القديس. الأرضية التاريخية لهذا المشهد هي أرضية حربٍ ذرية حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين. لقد دفع رعب هذه الحرب الشبان المتبقين إلى النهوض ضد القلة من العلماء والباحثين بين ظهرانيهم. وأخيراً قام حشدٌ من الرعاع الذين كانوا فخورين بتسمية أنفسهم " مغفلين " ؛ كل واحدٍ من هذا الحشد كان يقرأ ويكتب. وقد بدا أن اسحق ادوارد لايبوفيتز كان فنياً، أو ربما مهندساً كهربائياً. (تزعم الأسطورة) أنه هرب إلى ديرٍ بينيديكتي للمأوى. وقد أصبح قسيساً هناك وأسس أخوةً جديدة في ما بعد مكرسةً لحماية الحضارة من المغفلين، وللاحتفاظ بها من أجل الأجيال القادمة. وكان الرهبان في هذه "الأخوة "إما مهربي كتب إلى الصحراء الجنوبية الغربية وقد دفنوها، أو "حفظةً" يحاولون حفظ مجلداتٍ بكاملها، تاريخيةً وأدبية وعلمية عن ظهر قلب. ومن المخزن الهائل للمعرفة الذي كان موجوداً في القرن العشرين، أنقذت فقط بعض البراميل من الكتب، وقد قتل لا يبوفيتز نفسه من قبل حشدٍ من الرعاع أثناء مهمةٍ لتهريب الكتب. وقد استمر الرهبان، على أية حال، خلال القرون الستة التالية، في نسخ الأشياء الجديرة بالتذكر، حتى يحين الوقت الذي تفضل البشرية فيه النور على الظلام.

إن المشكلة في كل هذا النشاط التأليفي والنسخي مثل المشكلة في القرون الوسطى الأوروبية ـ إن الناسخين لم يكونوا يعرفون ماذا كانوا ينسخون بالفعل. مثلاً كانت الأوراق التي اكتشفها الأخ فرانسيس تضم قائمة تسوق من السوبرماركت كان قد كتبها لايبوفيتز بعجلة (مذكراً إياه أن يشتري باستورامي وبعض المأكولات الأخرى)، مع مسودة

لتصميم دارة كهربائية سميّت "جهاز تحكم ترانسيستور" للوحدة رقم ٦ب. ويستمر فرانسيس خلال الخمس عشرة سنة اللاحقة في إنتاج نسخة معدلةٍ لهذه الدارة على ورقٍ رقيقٍ للتجليد، وبحروفٍ ذهبية. وبنفس الطريقة فقد نسخت نصوص الجبر في القرن العشرين وزينت بأوراق الزيتون، كما زينت الجداول اللوغاريتمية بصور الملائكة. ويقول البابا فيما بعد للراهب فرانسيس "لولم تقم بمثل هذا العمل لكان فقدان العالم لذاكرته فقداناً كلياً"

أن تصبح مثل هذه الرسوم التوضيحية للترانسيستور وقائمة مشتريات الأطعمة الشهية والمقبلات نصوصاً مقدسة، فهذه كتابة ساخرة جميلة وليست خارج موضوع ما نتكلم عنه. إن ميللر بعمله هذا يمهد، ليس فقط لتشارلز رادينغ، بل لأولئك الباحثين الذين يقولون إنه احتفظ بالحضارة الكلاسيكية بشكلٍ غير مقصود. ويكتب ميللر أن هذه المعرفة لم يكن لها محتوى، إلا أن: "مثل هذه المعرفة لها بنية رمزية خاصةً بذاتها، ويمكننا ملاحظة تفاعل الرموز. وعندما نلاحظ طريقة حبك نظامٍ معرفي مع بعضه، فإننا نتعلم على الأقل أصغر مقدارٍ من معرفة المعرفة حتى يجيء - يوماً ما أو قرناً ما - قوةٌ توحيدية للأجزاء المعرفية لهذا النظام المعرفي ويوحدها. لذلك لا يؤخذ الزمن بعين الاعتبار أبداً. إن الأشياء الجديرة بالحفظ والتذكر كانت هناك، وقد أعطيت لأولئك الرهبان ليحتفظوا بها حتى لو استمر الظلام لعشرة قرون أخرى، أو حتى عشرة آلاف سنة".

وكما يتضح فإن الانتظار من القرن العشرين يستغرق اثني عشر قرناً. وينتقل المشهد إلى القرن الثاني والثلاثين، وتبدأ نهضة جديدة في

الوقوف على قدميها. والرئيس الحالي لدير " أخوة لايبوفيتز، " دوم بولو، يفكر في هذا قليلاً في مقطعٍ يعتبر مركزياً لطبيعة الخيار الرهباني الدياليكتيكية، " لقد احتفظ بشعلةٍ صغيرةٍ للمعرفة في الأديرة لمدة اثني عشر قرنا ؛ والآن فقط أصبح هناك عقول جاهزة لتضيء وتتوهج. قبل وقتٍ طويل، وخلال آخر عصرٍ عقلي، ادعى بعض المفكرين الذين كانوا يفتخرون بأنفسهم أن المعرفة الصحيحة لا يمكن تدميرها، وأن الأفكار لا تموت وأن الحقيقة خالدة. وقد فكر دوم بولو أن ذلك صحيح. وقد فهم أن للعالم معنى موضوعياً هو عقل العالم غير الأخلاقي أو هو تصميم الخالق.

"لكن مثل هذه المعاني هي معاني إلهية وليست معاني الإنسان. وقد ظلت هكذا حتى وجدت تجسيداً غير مكتمل، أو انعكاساً معتماً، دخل عقل ولغة وحضارة مجتمعٍ بشريٍ ما. وقد تمكن المجتمع البشري من أن ينسب القيم لهذه المعاني لكي تصبح صحيحةً بالمعنى البشري داخل الحضارة. لأن الإنسان كان حاملاً للحضارة كما كان حاملاً للروح ، لكن حضاراته لم تكن خالدةً، ويمكن أن تموت في سلالة واحدة أو عصرٍ واحد، وعندئذٍ فقد تقلصت الانعكاسات والتصوّرات الإنسانية للحقيقة، وقد سكن كل من الحقيقة والمعنى، غير مرئيين، فقط في عقل الطبيعة الموضوعي وفي عقل الله الذي يفوق الوصف. الحقيقة يمكن أن تصلب، ولكن في الحال، ربما، تبعث من جديد ".

ثم يتابع ميللر " كانت الأشياء الجديرة بالتذكر مليئةً بالكلمات القديمة، والصيغ القديمة، والانعكاسات القديمة للمعنى، مبتعدةً عن عقول كانت قد ماتت منذ زمنٍ بعيد، عندما ذهب نوع مختلف من المجتمع إلى

عالم النسيان. وقد بقي القليل من ذلك المجتمع الذي لا زال فهمه ممكناً. وقد بدت بعض الأوراق بدون معنى مثل كتيب صلوات لكاهنٍ شاماني (كاهن هندي أحمر يعتقد أن بامكانه مداواة المرضى بالرجوع إلى عالم خفي للآلهة وأرواح الميتين من القبائل الرحل). بينما احتفظت أوراق أخرى بجمال زينتها وبترتيبٍ أوحى بوجود معنى فيها، كما توحي المسبحة لواحدٍ من القبائل الرحل بأنها عقد".

" إن الأخوة الأوائل في " أخوة " ليبوفيتز حاولوا أن يثبتوا ملاية الوجه التي عليها صورة المسيح عل وجه حضارةٍ مصلوبة؛ لكن الملاية انسلخت عن وجه تلك الحضارة وبانت عليها صورة لوجه جليلٍ قديم، وكانت هذه الصورة مطبوعةً بشكلٍ خفيف، وغير كاملة، وصعبة على الفهم. لقد حافظ الرهبان على هذه الصورة، وهي الآن باقية على قيد الحياة من أجل العالم إذا أراد أن يتفحصها ويحاول تفسيرها. إن الأشياء الجديرة بالتذكر لا يمكن بمفردها أن تولد إعادة إحياء للعلم القديم وللحضارة القديمة، لأن قبائل الإنسان ألجبت الحضارات. وقد أمل دون بولو أن الكتب يمكن أن تساعد ـ يمكن أن تبين الاتجاهات وتعطي تلميحاتٍ إلى علمٍ واضحٍ جديد. وقد حدث هذا مرةً من قبل...."

لقد أدى البحث في وثائق أخوة لايبوفيتز من قبل واحدٍ من العلماء الجدد ـ نوع من الشخصيات التي رسمها ليوناردو دافينشي ـ بهذا العالم إلى تقديره العالي لعلم وحضارة القرن العشرين. وهو يرى أن العديد من اكتشافاته هي بالفعل إعادة اكتشاف، ولا يوضح مللر (أكثر مما يوضحه تشارلز هومر هاسكينكز) كيف برزت عقول، لأول مرةٍ بعد

اثني عشر قرناً، واستطاعت أن تقرر حقيقة هذه الوثائق والأوراق والأعمال والأشياء الجديرة بالتذكر. ثم يتابع هذا العالم الجديد سيره. وفي الجزء الأخير من الكتاب، الذي يحدث في القرن الثامن والثلاثين، نرى النتيجة، حضارة تكنولوجية ودنيوية.

ولسوء الحظ فإن القالب القديم يظهر من جديد. وعبقرية هذه الحضارة المنبثقة من جديد تجلب دمارها. وتظهر الحرب النووية مرةَ أخرى، ويهرب بعض أخوة لايبوفيتز في سفينةٍ فضائية إلى مستعمراتٍ في أجرام أخرى مصطحبين معهم الأشياء التي يمكن تذكرها. وتصبح السفينة الفضائية ديرهم، ويصبح الفضاء الخارجي صحراءهم أو برّيتهم الجديدة. وسوف يرسلون أخيراً رحلاتٍ فضائية إلى مستعمراتٍ فضائية أخرى، حيث يوجد رهبان في مراكز للنسخ، سوف ينسخون، مرةً أخرى، مادةً لا يفهمونها، وسوف يحفظونها لدورةٍ جديدة من التنوير. وبالنسبة لميللر إن العملية التاريخية متكررة الحدوث بالقوة ؛ ولا يوجد بديل لدورة الإنسان هذه ـ دورة المجتمع البشري ـ اللانهائية من التقدم والإخفاق.

" اصغ، هل نحن بلا معين؟ هل هو قدرنا أن نفعل هذا مرّات ومرّات؟ ألا يوجد لدينا خيار آخر إلا أن نقوم بدور طائر الفينيق في تتابعٍ لانهائيٍ من النهوض والسقوط؟ آشور، بابل، مصر، اليونان، قرطاج، روما ،إمبراطوريات شارلمان والأتراك كلها طحنت وتحولت إلى تراب وجرّفت مع الملح كما يجرّف الثلج. إسبانيا ، فرنسا ، بريطانيا ، أمريكا _حرقت وانتهت إلى عالم النسيان عبر القرون. وثانيةً، وثالثةً، ورابعةً. هل هو قدرنا يا إلهي أن نربط ببندول ساعتنا المجنونة، عاجزين عن إيقاف نوسه؟ "

إن الحرب النووية الشاملة، طبعاً،هي هنا أداة ووسيلة أدبية، ليست متطلباً أو شرطاً أساسياً للتفكك الحضاري المعاصر. وبالفعل يستطيع المرء أن يجادل أن الحضارة الاستهلاكية للاحتكارات ترقى إلى نوعٍ من الهجوم النووي على الفكر. إن القضية أعمق من هذه الوسيلة، وأعتقد، أنها أعمق حتى من نظرية تينتر في المردود الهامشي المتناقص، أو فكرة سبنغلر عن الموت والروح. إن ميللر" يموضع " علاقة جدلية بين المعرفة والإيمان، متبعاً خط الخطيئة الأولى : ازدياد المعرفةالدنيوية والسيادة والسيطرة تنتج أخيراً التكبر والخيلاء، وفقدان المعنى وتدمير الذات، وعندئذٍ يتبع هذا عصر مظلم، لكنه، وبشكلٍ ظاهري التناقض، يحمل في داخله بذور الذكاء الدنيوي الذي ستنميه طبقة من الرهبان في ما بعد، عن قصدٍ أو غير قصد.

كان المثال الأول على الخيار الرهباني في الأدب هو رواية ولتر ميللر "ترنيمة دينية من أجل لايبوفيتز "، والمثال الثاني هو رواية دي برادباري " فاهرنهايت ٤٥١ ". لقد أشرت سابقاً إلى النسخة السينمائية لهذه الرواية، ولكن من المفيد أن نتكلم عن النص الروائي نفسه، الذي، مع العلم أنه ظهر في ١٩٥٠ ، ولكنه كان يتكلم بتبصرٍ عن المستقبل. ومع الأخذ بعين الاعتبار أن الرقابة المباشرة على الكتب أصبحت غير ضرورية بتأثير "العولمة" حيث إن معظم الناس توقفوا عن القراءة، فإن معظم ملامح مجتمع المستقبل الذي تحدثت عنه هذه الرواية هي ملامح مجتمعنا، أو ربما ليست أبعد من عشرين سنة عنا.

وكما أشرت آنفاً، إن مجتمع رواية " فهرنهايت ٤٥١" يحرّم الكتب بالقانون ويغمس نفسه بدلاً عنها في تسلية الفيديو، التي هي نوع من

"الزِن الاليكتروني" حيث نسي التاريخ واللحظة الراهنة فقط هي التي لها اعتبار. والشخصية الرئيسة، "غاي مونتاغ " هو رجل إطفاء، عمله هو تحديد مكان وجود المرتدين الذين يصادرون الكتب وإلقاء القبض عليهم، وحرق هذه الكتب. لقد قام بهذا العمل لمدة عشر سنوات، وكانت حياته تافهةً لكنها هادئة. لقد بدأ يتكلم مع كلاريس، بنت الستة عشر ربيعاً التي تسكن بجواره. لقد سمّيت "مضادةً للمجتمع" ولكنها قالت "يعتمد هذا على ماذا تعني عندما تقول"اجتماعي" أليس كذلك؟" إنها تخبر مونتاغ أن الدروس التي تتلقاها في المدرسة الثانوية فارغة من أي محتوىً حقيقي، وأن دراستها في المدرسة عملية خطرة على أي حال. تقول (عن الطلاب) " إنهم يقتلون بعضهم. لقد أطلقت النار على ستة من أصدقائي العام الماضي فقط ".

وعندما تتسكع كلاريس في سكك الأنفاق أو محلات شرب الصودا ، تكتشف أن الناس لا يتكلمون عن أي شيء: إنهم يسمون عدداً كبيراً من السيارات والثياب وبرك السباحة ولا أحد يقول أي شيء يختلف عما يقوله الآخر. تقول أن عمها أخبرها أنه كان للطلاب مسؤوليات عندما كان جده على قيد الحياة، ولم يقتل أحد في المدرسة، وكان عند الناس أشياء قيمة يتكلمون عنها ". وعلى أي حال تعترف بأن لا يوجد لها أي أصدقاء حقيقيين، وهي توصف بأنها "غريبة الأطوار" ولكن لا يوجد أحد يمكن أن تصادقه، لذلك ما الفرق؟

ومن خلال صلته بكلاريس، يبدأ مونتاغ بقراءة بعض الكتب التي يصادرها ، وهو يدرك، حسب لغة ولتر ميللر، أنه محاصر من قبل المغفلين. إنه يمرض ولا يستطيع أن يذهب إلى عمله. وأخيراً يزوره رئيسه

بيتي، الذي يعرف شيئاً عن التاريخ الحضاري بشكلٍ يثير الفضول، ويتخذ على عاتقه أن يخبره كيف أصبحت مهنتهم ؛ إنه يخبر مونتاغ "الحقيقة هي أن مهنتنا لم تتقدم إلا عندما بدأ التصوير. ثم بدأت الصور المتحركة في أوائل القرن العشرين ثم الراديو ثم التليفيزيون وصار للأشياء جماهير، أي أحب الناس اقتناءها ؛ ولأن لها جماهير، أصبحت بسيطةً أكثر... أصبحت الأفلام والإذاعات والمجلات والكتب في متناول كل الناس وأصبحت عاديةً ومألوفة مثل قطعة حلوى...".

"كل شيء كان مصمماً لكي يباع بسرعة، ويجب أن يكون لكل شيء نهاية سريعة، حتى أصبح النمط الحضاري أخيراً : الخروج من الحضانة إلى الكلية ثم العودة إلى الحضانة. " تحولت الحياة إلى شعارات، وعضّات قاسية ؛ وكان الهدف زوبعة العقل، (وضعه في زوبعة بحيث لا يستطيع التفكير أو البحث عن الحقيقة). بشكلٍ يلائم دور النشر والمستغلين والمذيعين. ثم يتابع : " لقد اختصر الزمن اللازم للتعليم في المدرسة، وارتخى النظام، وسقطت الفلسفة والتاريخ واللغة. لقد أهملت الإنكليزية وهجاؤها بالتدريج، وأخيراً جهلها أصحابها تماماً.. لماذا نتعلم أي شيء سوى ضغط الأزرار وتحريك المفاتيح الكهربائية وتركيب أو فك الصواميل و البراغي؟ ".

" لقد أصبحت المجلات خليطاً جميلاً من الفانيلا ونشا الحلوى، وحوّلت الكتب إلى ماء لجلي الصحون، وكنتيجة لهذا، فإن مراقبة المطبوعات لم تعد ضروريةً، إذ عملياً لم يعد هناك من يشتري الكتب. وأصبحت التكنولوجيا واستغلال الجماهير وحيدين في الساحة. وأصبحت كلمة "رجل فكر" كلمةً قذرة. وأخيراً شرّعت مراقبة المطبوعات وحرق

الكتب كفكرة لاحقة، كعملية " مسك الختام " للتأكد من أن عملية الحط من قيمة كل شيء وتتفيهه صارت كاملةً، وأنه لا أحد يختلف عن أي واحدٍ آخر، لذلك فالكل يمكن أن يكونوا سعداء ".

ويعبر مونتاغ فيما بعد عن قلقه لفيبر، أستاذ جامعي للغة الإنكليزية كان قد طرد من عمله قبل أربعين سنةً، عندما أجبرت آخر كليةٍ للفنون الليبرالية أن تغلق أبوابها بسبب تناقص عدد الطلاب والدعم المالي. (ولسببٍ غريب، فإن كلية فيبر لم تنل شرف السبق في اكتشاف فكرة تحويل منهاجها إلى نشا للحلوى أو ماءٍ للجلي.) ويخبره فيبر أنه، نعم، يمكن أن يحدثوا فصولاً سرية لتعليم التفكير والقراءة، لكن ذلك "سيقضم الحواف". السرطان متقدم جداً بالنسبة لمثل هذه الإجراءات التافهة :" إن حضارتنا تفتت نفسها إلى قطعٍ صغيرةٍ متطايرة في الجو. ابتعد عن قوة جذب مركزها ". ويؤكد فيبر أيضاً على تحليل بيتي، مضيفاً أن عمل رجل الإطفاء الآن لا حاجة له، إنه للتسلية مثل عمل السيرك، لأن الجمهور العريض توقف عن القراءة بمحض إرادته ". ويقول " أتذكر الجرائد وهي تموت مثل الفراشات الضخمة، ولم يرد أحد أن تعود. لم يشتق لها أحد ".

وينسحب مونتاغ أخيراً إلى خارج المدينة، حيث يقوم بتحديد أمكنة الناس الذين يختبؤون في الغابات، ويحاولون حفظ الأعمال الكلاسيكية عن ظهر قلب، ثم يدرّسونها لأطفالهم، هذا هو طبعاً قلب الخيار الرهباني، ويلخصه برادبري كما يلي :

"يوماً ما وفي سنةٍ ما [عندما] يمكن أن تعاد كتابة الكتب، سيطلب من [أهل الغابة]، واحداً واحداً أن يتلوا ما يعرفونه وسوف نطبع

ما يتلونه حتى يحل عصر مظلم آخر، لكي نقوم بفعل الشيء نفسه ثانيةً. ولكن هذا هو الشيء العجيب عند الإنسان : لا تفتر عزيمته ولا يقلع عن تكرار هذا، لأنه يعرف جيداً أنه مهم وجدير بأن يكرر ".

إن المسألة بالنسبة لبرادبري إذن هي أيضاً متكررة الحدوث في دورات متعاقبةٍ : الحضارات تنهض وتسقط، ووجود طبقة من الرهبان ضروري دائماً للاحتفاظ بكنوز الحضارة المتهالكة واستعمالها، مثل البذور لتلقيح حضارةٍ جديدة. وخلال هذه العملية فإن الرهبان يبدعون حياةً ذات معنى لهم، ويقومون بنشاطاتٍ تجلب لهم منافع شخصيةً مهمة مثل أهمية النتيجة التاريخية المحتملة لمثل نشاطاتهم هذه.

ومثالي الأدبي الأخير يركز على مسألة القوة التي تؤثر عل هذه الدورات الحضارية المتعاقبة، وليس على حفظ المنتجات الحضارية من أجل الحفظ، مع أن هذا الحفظ موجود بالتأكيد، مرةً أخرى، على شكل معرفةٍ دفينة. تصور ايرا ليفن في كتابها "هذا اليوم التام" (١٩٧٠) مجتمعاً يبعد عنا ثلاثمائة سنة في المستقبل، على غرار كتاب هيكسلي "عالم جديد شجاع " حيث ارتقت الهندسة الاجتماعية إلى أعلى درجة. لا يوجد مشكلات في هذا المجتمع لأنه، بمعنىً أساسي، لا يوجد ناس. وفي هذا الوقت، كان هناك ما يكفي من تغيرٍ في المسألة الوراثية وفي إعادة البرمجة النفسية (تحقق ذلك باستعمال العقاقير) لتحويل الجماهير إلى بشرٍ آليين راضين. نخبةُ تكنولوجيةٌ صغيرة، في مركز التحكم والسيطرة المسمى يو. إن. أي. أفلح في خلق حياة مستقرة تامة للجميع، مدينة فاضلة هي بنفس الوقت كابوس (من وجهة نظرنا) وكما هو الحال في " فهرنهايت ٤٥١"، لدينا مجتمع فقد كل تنوعٍ وفردية. إنه، بمعنى

من المعاني، مشفى عقلي كبير حيث من الضروري أن يأخذ كل واحدٍ جرعةً يوميةً من المهدئات ويضع حول معصمه حلقة تعريف بالهوية تشرف على تحركاته. هذا يضمن أن يظل أي تفكيرٍ مبدعٍ أو مستقل مكبوتاً، وتبقى القوة السياسية في أيدي النخبة التكنولوجية لل يو. إن. أي. يبدو ذلك كله مثل مدينة ملاهي (للاحتكارات). ومن الواضح أن ليفن رأت مجتمعنا في ١٩٧٠ متجهاً في ذلك الاتجاه (وهو توقع أقل غرابةً مما كان قبل ثلاثين سنة حسبما أعتقد). إن بطل الرواية، تشب، يصبح غير مخدوعٍ بعالم اليو. إن. أي. لمجموعةٍ من الأسباب المعقدة، ويتعلم كيف يخدع نخبة أصحاب التحكم والسيطرة التكنولوجية كي يخففوا من جرعته اليومية المهدئة. وعندما يصفى فكره من التشوش، يقابل بضعة أفرادٍ آخرين عثروا مصادفة بإمكانية الحصول على الحرية والتخلص من الذهول وبدأوا يعيشون حياة مزدوجة.

يدخلون خلسةً إلى متحف ما قبل اليو. إن. أي. الذي يسجل في سجلاته معلوماتٍ عن عالم التنوير المفقود والذي كانت السيادة فيه للإبداع والفن والاختيار الفردي. يقلب تشب وزملاؤه في نصوص وأوراق المتحف القديمة ويحاولون رسم صورةٍ لما كانت عليه الحياة قبل اليو. إن.أي. وبعد عددٍ من التعرجات والالتواءات المطولة، يقرر تشب أن الحل الوحيد لمشكلة النوم المغناطيسي للحضارة والسيطرة السياسية لنخبة ايو. ان. أي. هو الإمساك بهذه السيطرة والتحكم وتدمير عالم اليو. ان. أي ونخبته التكنولوجية المسيطرة. وعلى طريقة ايان فليمينغ، يقوم رجل، مع مجموعةٍ تلاميذه المختارين، بالمعركة الكونية المطلوبة، ويقف وجهاً لوجه أمام الشر المجسد في حكام اليو. ان. أي ؛ هذا الرجل يدعى وي (وعمره أكثر من مئتي عام).

ويتضح أن دورة العصيان والوصول إلى الخيار المشترك كان موجوداً لمدةٍ طويلة. أعني أن المجموعة الحاكمة تزعم إنَّ أي واحدٍ ذكي بما فيه الكفاية لكي يخرج من شبكة مراقبتها الدقيقة، ويتوصل إلى حقيقة الماضي، ويهاجم مركز السيطرة، يجب أن يكون شخصاً ذكياً بشكلٍ خارق ـ واحداً منهم في الحقيقة. ومن هنا فإن وي يعرض على تشيب أن يقدم له القوة،كنوعٍ من دخول تشيب إلى نادي وي. ويقول تشيب " يفرح الإنسان إذا امتلك القوة، إذا سيطر وتحكم، إذا كان الشخص الوحيد. هذه هي الحقيقة المطلقة. لقد أغري جزء من تشيب دائماً بهذا الإغراء، لكن هجومه لم يكن أخيراً على اليو. إن. أي، ولكن على القوة نفسها.

وحتى لو أدار المتنورون اليو. إن. أي، فهو يرى أنه لو كانت استراجيته استبدالاً للأشخاص، لكان قد تحول بالتالي إلى وي. المسألة هي أنه لا توجد استراتيجية استبدال. لذلك تنتهي القصة بملاحظة مثيرة للفضول، من وجهة نظر الحضارة عل الأقل. إلا أن هناك عالماً مفقوداً من المعرفة تتم استعادته ؛ وكما قلت، إنه عالم تنويري. إن الفكرة التي تحاول ليفن أن تشرحها من خلال هذه الدراما التي تعرض الراهب والثائر هي أن حياة "الالتقاء التوافقي" ليست حياةً أبداً ؛ وأن مصادر حيوتنا الحقيقية تكمن في تقاليد ـ ربما عبَّر عنها فولتير أفضل تعبير ـ من الشك العلمي الصحي، والإبداع الفردي، والاختيار الحر. هذا، وليست الحياة المنظمة حول القوة، هو الذكاء أو العقل أو الفكر الحقيقي، الذي جعل تشيب يبتعد عن فرصة أن يصبح" وياً" جديداً. وتكتب ليفن " أن معرفة الحقيقة ستكون نوعاً مختلفاً من السعادة ـ أعتقد أنها نوع مرض ومقنع أكثر، حتى لو اتضح أنه نوع محزن. أشك في أن فولتير كان

بإمكانه أن يعبر أفضل من هذا. الفكرة هي أن هذا النوع فقط من الصدق يمكن أن يكسر دورة "استراتيجية الاستبدال"

ولكن، كما هو الحال في "هذا اليوم التام " ليس واضحاً أين سيتركنا هذا. وسأعود إلى مشكلة القوة عند خاتمة الكتاب.

وليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت الحضارات، أو، بشكلٍ أعم، الأنظمة العالمية، تتبع بالضرورة منطق ازدهارٍ واضمحلال، ولماذا توجد مثل هذه الحركة الدورانية التعاقبية من التمدد والتقلص. لقد كان ميللر، كما رأينا، مهووساً بهذا التساؤل، الذي تمكن صياغته على النحو التالي: هل تملك المجتمعات نوعاً من الآلية التي تكشف بها، خلال مسار التمدد والاتساع، حقيقةً عظمى ثم تدفعها إلى الدرجة التي تتضاعف عندها وترجع إلى ذلك المجتمع على شكل كذبة؟ إذا كانت هذه هي الحالة، فهذه الآلية يمكن أن تخبرنا الكثير عن القوى المحركة للسقوط الحضاري وإعادة البناء في القرن الواحد والعشرين.

الجزء الثالث
ديالكتيك (جدل) التنوير

كانت تلك الإيماءة المطلوبة لتحويل حفنةٍ من الفاصوليا ء التي لا ضرر لها إلى نباتاتٍ نمت فيما بعد حتى فاقت الفاصوليا ء الطبيعية. إن الشركة الاحتكارية ذات المسؤولية المحدودة، آخر تجربةٍ نبيلة، تجلب نتيجةً لا يمكن التكهن بها للمستفيدين منها. إن نجاحها فاق كل توقعٍ عقلاني، حتى أصبحت شيئاً فشيئاً المسعى الوحيد المتبقي للجنس البشري.

ريتشارد بورز من "الربح "

في الظروف الحالية، تصبح هبات القدر مصائب....ويصبح التقدم تراجعاً.

ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو من "جدل التنوير"

هناك الكثير الذي يجب أن يقال عن الحضارة قبل إصابة التنوير بالدوار.

رونالد رايت من "قصة رومانسية علمية"

كانت مسألة لماذا تبدو الحضارة الغربية محكومةً بتذبذبات متكررة الوقوع نقطة التركيز الأساسية في بحث خاص أجراه عالم الاجتماع البارز بيتيريم سوروكين، الذي قدّم نتيجة بحثه في عملٍ من أربعة مجلدات نشر خلال الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤١. إن "القوى الاجتماعية والثقافية المحركة" هو مؤلف مثل مؤلفات ميللر وبرادبري، يشير إلى تبصرٍ مخيف عن وضعنا الحالي، ولاسيما مع الأخذ بعين الاعتبار أنه كتب في ثلاثينيات القرن العشرين. يرى سوروكين أن الحضارة بشكلٍ عام تقع في فئتين أساسيتين يسمّيهما : فئة "تخيلية" وفئة "حسيّة" (تدرك بالحواس). ويزعم أن الحضارات التخيلية أو التصورية هي حضارات روحية أو زهدية في طبيعتها، وتركز بشكلٍ أساسي على تغيير الحياة الداخلية للإنسان، بينما الحضارات الحسية، مثل حضارتنا، هي حضارات مادية، مؤسسة على تكييف الإنسان للعالم الخارجي (الطبيعة التي هو جزء منها). الأولى لاهوتية، بينما الثانية علمية أو عقلية. ويعتبر سوروكين أن هناك نوعاً آخر من الحضارات يقع بين الاثنين هو حضارات مثالية، والتي تشتمل على تركيبٍ متناسقٍ للإيمان مع العقل والتجريب.

هذا الشكل، برأيه، هو نادر، وقد كان سائداً في الغرب خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد في اليونان، وفي أوروبا الغربية بشكل تقريبي من ١٢٠٠ - ١٣٥٠ بعد الميلاد. ويقول سوروكين إن الفترة التخيلية الكلاسيكية ظهرت بين ٥٠٠-١١٠٠، عندما كان الإيمان طاغياً في النسيج المسيحي للمجتمع " وإذا شعر الفلاسفة والناس عامةً في أي فترةٍ من العقلية الغربية بأنهم يمتلكون الحقيقة، فقد حدث

هذا الشعور في هذه الفترة، حيث لم يكن هناك أي شك، أو تساؤل، أو تردد، أو نسبية، أو تحفظ ". لقد كانت الحقيقة ذات وحدةٍ متراصة وتناغمٍ كلي ومرتكزةً على اللاهوت. ولهذا نحن نرى القليل من الاكتشافات العلمية بين القرن السابع والحادي عشر، حيث انتقلت العقلية السائدة إلى ما وراء العالم الحسّي وضُمّنت الحقيقة بلغةٍ رمزية. وعندما عاودت التجريبية الظهور أخيراً في أواخر القرن الحادي عشر، فقد تلتها فترةٌ من الوحدة العضوية. وكما كان في الفترة اليونانية الأقدم، لم تنحصر المعرفة في مجالٍ واحد أو مصدرٍ واحد. ويقول سوروكين إن توماس الاكويني كان يحتل موقعاً عالياً في الفترة الوسيطة المتأخرة ؛ وقد أبدع مزيجاً من المعرفة الحسيّة والعقلية والدينية. ولكن هذا المزيج الضعيف لم يدم طويلاً. فقد كسب التجريب أرضاً صلبةً أكثر، ومع النهضة وما بعدها فقد دخلنا فترةً أثبتت أنها عكس المركزية اللاهوتية المتراصة السابقة. وفي أوائل القرن العشرين، بدأت علامات الإعياء والتدمير الذاتي تظهر على هذه الحضارة، ويقترح سوروكين أن مرحلةً حضاريةً تخيلية جديدة بدأت ولادتها.

إن هذا التأرجح النوسي (البندولي) بين الطرفين الديني والعلمي، برأي سوروكين، يشكل مصيراً جدلياً. وما يفترض أنه فترات من التماسك الحضاري المتناسق والمتوازن التي هي قليلة وسريعة الزوال، تظهر فقط عندما يتفكك عصر من الإيمان، كالذي حدث في حالة نهضة القرن الثاني عشر. إنها لا تظهر عندما ينهار عصرُ حسي (يؤمن بالمحسوسات)، بل عندما يعود المجتمع إلى الإيمان. ويقول إن هذا النمط يشير إلى أنَّ عصراً من الإيمان ينبلج، وسوف يصبح سائداً

ومتطرفاً، ثم سينتهي مساره وأخيراً سيفسح المجال لانبلاج عصرٍ حسّيٍ آخر من جديد.

هذا لا يختلف كثيراً عن رأي ولتر ميللر، باستثناء أن ميللر لم يستطع أن يفسر سبب حدوث هذه الظاهرة. لكن بالنسبة لسوروكين إن آلية هذا المصير الجدلي آلية داخلية. ويعتقد أيضاً أن هذا هو الحال لأن كلاً من هذه الأنماط الحضارية يحتوي على جزءٍ فقط من الحقيقة، وفي أشكالها المتطرفة - وهي التي ما نحصل عليه بشكلٍ حتمي - تحتوي على غير الحقيقة أكثر مما تحتوي عليه من الحقيقة. وهذا يفسر كيف أن البندول ينوس إلى الأمام وإلى الخلف.

المضادات التي تطغي عليها عقليات أحادية الجانب تسقط ضحيةً لضيق أفقها. إن عدم توفر الحقيقة بشكلٍ كامل يستثير رد فعلٍ معاكساً قوياً أيضاً، وهكذا دواليك. فلسفياً، هذا التحليل فيه الكثير من الأشياء المشتركة مع جدل أرسطو وهيجل، حيث ينظر إلى أي حقيقة على أنها تحتوي على بذور نفي نفسها (وحدة وصراع المتضادات). ومن هنا، ومع مرور الزمن، فإنها تنتج نقيضها. وهكذا يستمر التاريخ في تكرار نفسه، ولكن ليس بشكلٍ متماثلٍ، بل بشكلٍ مختلفٍ عما سبقه. فنحصل عل تنوعٍ مستمرٍ لا يتوقف في المسائل التي تعاود الظهور.

إن المظهر الخارق لتحليل سوروكين هو أن نبوءاته عن القرن الواحد والعشرين بدأت بالظهور مسبقاً. فهو يتنبأ أن الحد الفاصل بين الشيء الصحيح والشيء الكاذب سوف يتآكل ويصبح غير واضح، وأن الضمير أو الأنا العليا ستختفي لصالح مجموعات المصالح الخاصة، وسيصبح

الإكراه والاحتيال القاعدة السلوكية ؛ وسوف تتفكك الأسرة ؛ وسوف يبهت ويتضاءل الإبداع الحقيقي. وسوف نحصل، كبديلٍ عن هذا الإبداع الحقيقي، على عددٍ وافرٍ من المفكرين الزائفين ؛ وسيصبح نظام المعتقدات أو النظام الإيماني خليطاً عجيباً من فتات العلم والفلسفة والسحر. وفوق كل شيء - يتوقع سوروكين هنا نهوض الأعمال الفنية التي، على الرغم من شعبيتها، لا يوجد لها قيمة فنية - ستصبح الضخامة الكمية بديلاً عن التحسن النوعي. وبدلاً عن الأعمال الكلاسيكية، سيكون لدينا الأعمال الأكثر مبيعاً ؛ وبدلاً عن العبقرية سيكون لدينا الأسلوب الفني. وستحل المعلومات محل الفكر الحقيقي. سوف يتلاشى الأمن، وتحل بعد ذلك الكارثة. وستصبح الحضارة تافهةً وفارغةً من المضمون بشكلٍ متزايد حتى يحدث أخيراً رد فعلٍ أو تطهُّر عاطفي ما، ثم تظهر حضارةٌ تخيلية من رماد الحضارة الحسية القديمة.

وعلى الرغم من أن عرض سوروكين هذا يشجع على البحث العلمي، إلا أنه يحتوي على عددٍ من الملامح الملتبسة. واحدٌ منها هو أنه يعتبر الانتقال إلى الحضارة التخيلية شيئاً إيجابيا، على الرغم من حقيقة أن آخر تجسيد لهذه الحضارة التخيلية كان حضارة العصور المظلمة الأوروبية، وعلى الرغم من اعترافه أن هذه الفترة كانت عصر عقيدة. ثانياً، إن تقييمه " للتحول" النقطة التي أصبحت الحضارة الحسّية عندها سيئة، هو تقييم ذاتي ومبكر جداً- ١٣٥٠ بعد الميلاد. من المؤكد أنه ضاع الكثير مع نهوض الحضارة العلمية، ولكن عندما يُسمّى عصر النهضة والثورة العلمية عصرَ تراجع، نقول إن هذه التسمية أولى أن تكون من قبل شخصٍ آخر، من الذين يشاركون في التعصب القاسي ضد

الحداثة (مايكل فوكولت مثلاً). إن الفترة من ١٣٥٠ - ١٨٥٠ كانت بالتأكيد الفترة الأكثر خصباً وإبداعا في أوروبا. ولكن يبدو سوروكين محقاً بلغة القوى المحركة الجدلية الفعّالة. فالذي يبدأ محذراً، هو نفسه الذي يصبح خائفاً عندما يحين الزمن. إذن علينا أن نتابع مفهوم المصير الجدلي هذا بطريقةٍ موثوقة أكثر.

إن مسألة " الذي حدث خطأً " حيّرت عدداً من المفكرين ونقّاد التكنولوجيا الكبار في القرن العشرين مثل مارتن هايدغر وجاك ايلول، ولكن قد عُبّر عنها بشكلٍ كثير التفصيل في عمل مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعي ـ ولاسيما مدرسة ماكس هوركهايمر وثيودور ادورنو، والذي يمثل هذه المدرسة في أمريكا، هربرت ماركوس. في كتاب " جدل التنوير "، يعرِّف هوركهايمر وأدورونو المشكلة بوضوح كبير، مجادلين أن فكر عصر التنوير تحول ببطء إلى العلمية والايجابية. في هذا الإطار العام للأشياء يُنظر إلى كل شيء على أنه موضوع خارج عن الذات ؛ ويعتبر الشيء الذي يمكن قياسه وتجريبه فقط هو الشيء الحقيقي. إن وجهة النظر المنطقية لهذا الاعتبار هي وجهة نظرٍ تكنوقراطية بحتة، هي رؤية لعالم يدار بشكلٍ آلي. إن جدة وقوة فكر عصر التنوير الحقيقيتين كانتا في العنصر النقدي لهذا الفكر. ولكن عندما أصبح هذا الفكر أداةً بيد النظام الاجتماعي والسياسي السائد، بدأ يقلب القيم الايجابية التي اختير ليدافع عنها إلى " شيء سلبي ومدمِّر "

لذلك، مع أن الحرية السياسية كانت ملازمةً لفكر عصر التنوير، فإن هذا الفكر احتوى على بذور نقيضه. لأن الحداثة انبثقت أخيراً في المجتمع التجاري. وقد أصبحت هذه الحداثة فكراً ميتافيزيقياً بجدارة.

ويختتم هوركهايمر وأودورنو " يصبح المستهلك أيديولوجية الصناعة الترفيهية، التي لا يمكنه الهروب من مؤسساتها ". وفي الحقيقة أن "النفعية" هي الفلسفة الحقيقية المنتشرة في المجتمع الأمريكي، الذي يعتبر أن قلةً قليلةً فقط من الأشياء ذات قيمةٍ بذاتها ولذاتها.

إن آراء مدرسة فرانكفورت فيها الكثير مما يستحق الثناء، كتشخيصٍ للقرن العشرين وربما للكثير من القرن التاسع عشر أيضاً. المشكلة هي أنها وسَّعت تحليلها ليشمل الثورة العلمية، وأحياناً رجعت بهذا التحليل إلى عقلانية اليونان القدماء. وهكذا فإن هربرت ماركوس في كتابه " الإنسان ذو البعد الواحد " يتّهم فكر القرن السابع عشر بكونه " عقلياً وهادفاً بشكلٍ متأصلٍ "، وأنه، بشكلٍ متأصل أيضاً، مضادُ لأي قيم، ما عدا قيم العلم والتكنولوجيا ، التي ترتدي، كما يقول، قناع الحيادية. ويقول إن العلم يتناول الأشياء المجردة فقط والمعالجة العقلانية للبيئة ؛ وهكذا فهو يقلل من شأن كل شيء ليصبح ذا قيمةٍ (أدواتية).

يوجد طبعاً بعض الصحة فيما يقوله ماركوس، فبذور المأزق المعاصر مدفونةٌ في (طرائقية) عمرها أربعمائة سنة. إن هذا التحليل يتجاهل "الجو العام" أو " روح العصر" الذي كان يعمل به مفكرون مثل وليام هارفي وغاليليو. فقد كانت "أرسطية " الكنيسة والعلم الوسيط (علم القرون الوسطى)، في أواخر القرن السادس عشر، أقل من "هراء" متحجر. كان غالن (القرن الثاني ب. م.) مازال يطغى على الطب ؛ وكانت فكرة مركزية الكرة الأرضية تبدو جذابةً أو طريفةً. وقد أصبحت كل أطر الجدل باستعمال القياس المنطقي والمحاكمة الاستنباطية تافهةً

وسخيفةً ؛ ولذلك فقد كان اكتشاف، ليس مجرد حقائق جديدة، بل طرقٍ جديدة كاملة للتفكير واكتساب المعرفة، بالنسبة لمفكري القرن السابع عشر، مثل تنفس الأوكسجين النقي فجأةً بعد عصورٍ من العيش تحت الماء. لقد كانت تلك الاكتشافات تحريريةً إلى حدٍ كبير، وقد مُزّقت أخيراً المفاهيم السياسية المتعلقة بالحق الإلهي والمجتمع الطبقي.

وبالفعل كانت الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية مستحيلتين بدون المفهوم العلمي عن العالم الذي كان فولتير وتوماس جيفرسون وريثيه المنطقيين. هذا المفهوم العلمي عن العالم جعل الناس يريدون الانعتاق من سلطة الماضي،

فدبّت الحياة من جديد في المجتمعات الأوروبية، مثلما تدبُّ الحياة عند استنشاق الأكسجين النقي في التشبيه السابق.

وعلى أية حال، هذا الكتاب ليس المكان المناسب لمراجعة تاريخ الثورة العلمية ؛ فقد قام بذلك العديد من المؤرخين، وبتفاصيل شاملة. ولكن اسمحوا لي بتقديم بعض الاستشهادات من مصدرٍ واحد هو كتاب فرانسيس بيكون "نوفوم أورغانون" (١٦٢٠) لأعطي القارئ فكرةً عن الجو الجديد الذي أحدثته هذه الثورة في الفكر، وهو الشعور بضرورة الإفلات من اليد الميتة للماضي والقدرة على التنفس بعد جهدٍ جهيد.

كتب بيكون : "هناك سببٌ عظيمٌ وقويٌ جعل العلوم لا تتقدم إلا قليلاً [حتى الآن]. هذا السبب هو أنه من غير الممكن أن يسير الإنسان في طريقٍ لا يعرف الهدف من سيره فيه. إن هدف العلوم هو تزويد الإنسان باكتشافاتٍ جديدة وقدراتٍ جديدة". (المثل ٨١)

"لأن الحقيقة تُسمّى بنت الزمن وليست بنت المرجعية". (المثل ٨٤)

"لا يوجد أمل إلا بولادةٍ جديدة للعلم ؛ أعني، الارتفاع به من مجال التجربة إلى مجال البناء الجديد، الذي لم يفعله أحدٌ حتى الآن". (المثل ٩٧)

"إن غايتي هي أن أحاول وضع أسس، وتوسيع حدود قوة وعظمة الإنسان بثباتٍ أكبر". (المثل ١١٦)

"لأنني أبني في فهم الإنسان صورةً حقيقيةً للعالم، وليست حسب ما يصور له عقله، والتي لا يمكن بناؤها، دون دراسةٍ نقديةٍ مفصلةٍ وذكية وتحليلٍ وتشريحٍ للعالم". (المثل ١٢٤) وأخيراً هذا البيان الرنّان من "الباراسيف" : " لأن التاريخ [الطبيعي] الذي أريد أن أقدمه يجب أن يكون واسعاً وشاملاً للعالم. ويجب ألا نصّغر العالم كي نفهمه (الشيء الذي جرى فعله حتى الآن)، بل أن نوسع فهمنا وإدراكنا لنتمكن من فهمه ".

هناك شيء رائع في هذه التصريحات التي ترفع من زخم الاتجاه الإنساني في دفاتر ليوناردو دا فينشي أو في كتابات بيكو ديلاً ميراندولا (خطبة عن سموٍّ الإنسان). يقول بيكون إننا نستطيع فعل ذلك ؛ نستطيع أن نحرر أنفسنا من المعوقات الأرسطية والقرون الوسطى ونأتي إلى عصرنا الخاص بنا. " لأن الاكتشافات الجديدة يجب أن يبحث عنها في الطبيعة، ويجب أن نسترجعها من ظلام العصور القديمة". وبذلك التوكيد تحقق الانتصار للطريقة العقلية التجريبية في البحث العلمي، وصارت الحقيقة تعتمد على التحليل والتجربة والبرهان. عليك أن تبرهن على ما تقول، لا أن تعول على الدين أو المرجعية، وقد أصبح هذا معيار التنوير (لقد صرَّح عمانوئيل كانت: " يجب أن تجرؤ على

التفكير [الحر] "والحداثة بشكلٍ عام. وهذا موجودٌ في قلب الديمقراطية البرلمانية، والنظام القضائي الغربي، وفي فهمنا للتطور البيولوجي والعالم الخارجي. إذا تركنا ذلك سننتهي.

أين الخطأ إذن؟ المشكلة ليست في الطريقة العلمية بذاتها، التي بدونها لا يمكن لأي ديمقراطيةٍ صحيحة أن تُمارسَ إلا في اندماجها في (الطريقة العلمية)، وتطورها داخل الإطار العام للحضارة الصناعية التكنولوجية، والآن التجارية الاحتكارية الكونية.هل جعل العلم تلك الحضارة ممكنةً؟ طبعاً. لقد كان العلم ضرورياً ولكنه غير كافٍ. هل هو معادلٌ لتلك الحضارة؟ لا، على الإطلاق.

القصة هي أن التكنولوجيا عملت للعلم أكثر مما عمل العلم لها. وقد كانت الثورة الصناعية هي التي وضعت الثورة العلمية على الخريطة، وهي التي ـ بادئةً بإنكلترا ـ نسجت العلم في حياة الأمة. وهناك كمٌ واسعٌ من الأدب الذي يعالج هذا الشيء، ولكن أشهر مثالٍ على هذا هو صياغة القوانين الخاصة بالقوى المحركة الحرارية. في ١٨٤٠ كان المحرك البخاري أساس الاقتصاد الصناعي الجديد في بريطانيا العظمى. لقد أصبحت الطاقة كميةً يمكن تسويقها، وبرزت الحاجة لإيجاد معادلٍ ميكانيكيٍ لهذه الطاقة يمكن قياسه. كم من العمل نستطيع إنجازه لكل وحدةٍ حرارية نحرقها؟ وبدأ المهندسون مثل جيمس جول يقيِّمون المحركات حسب قدرتها على رفع الأثقال، ما أدَّى بجول (مع العديد من العلماء الآخرين)، مثل سادي كارنو في فرنسا، إلى أن يصيغ أول قانونٍ للقوى المحركة الحرارية، أو قانون حفظ الطاقة. وباختصار، لقد كان التجريب هو الذي أفاد النظرية وأغناها، وليس العكس.

وبشكلٍ عام فإن الإبداعات التكنولوجية في هذه الفترة من عملية الإقلاع الصناعي كانت من نتاج المفكرين غير المتعلمين. فقد اخترع جون كي، نسَّاج وميكانيكي، "المكوك الطائر " في ١٧٣٣. وقد اخترع جيمس هارغريفز، نسَّاج ونجَّار "دولاب الغزل الدوَّار"، في ١٧٦٥. وكان ريتشارد أركرايت، (حلاَّق) قد ابتكر النظام المائي لتدوير دولاب الغزل، وقد حصل على براءة الاختراع في ١٧٧٠. ثم جاءت جهود الميكانيكي ساموئيل كرومتون لاستعمال هذا النظام المائي الذي ابتكره أركرايت، في تشغيله مع دولاب الغزل. وكان ادموند كارترايت، الرجل الذي ابتكر النول الآلي، يدرس الأدب في أكسفورد في ١٧٨٥ ولم يكن لديه أي ثقافة علمية، لكنه استأجر نجاراً وحداداً ليساعداه في عمله. وقد اكتشف بيتر أنيونز، مراقب عمال في مصنع حديد، وبمفرده، ثم ساعده فيما بعد هنري كورت، رجل متقاعد من البحرية، عملية تحويل الحديد السائل إلى حديد مطاوع قابلٍ للطرق والسحب، بإضافة عاملٍ مؤكسدٍ له. لم يكن لدى أيٍ من هذين الرجلين أي معرفةٍ بالكيمياء وعلى أيةِ حال، كان من غير الممكن أن تكون كيمياء القرن الثامن عشر قد ساعدتهما في أي شيء. كان ما فعلاه هو وضع مركبّاتٍ غنية بأكاسيد الحديد في فرنٍ ليخرج الفحم من الحديد المصهور بتشكيل ثاني أو كسيد الكربون ؛ لكن ذلك كان بمحض المحاولة والخطأ. وقد اكتشف الأكسجين قبل هذا بعدة سنوات فقط، ولم يدركا تماماً أن ثاني أكسيد الكربون كان يطلق أثناء عملية صهر فلّز الحديد. ولم تكن أسماء بريستلي ولا فوازييه معروفةً لهما، وقد استطاعت الكيمياء في القرن التاسع عشر أن تفسِّر كيفية تحويل سائل الحديد عند صهر فلّزه إلى حديدٍ مطاوع جاهز للاستعمال في الصناعة.

ونلاحظ أنه في كل هذه الحـــالات لم يســـهم العلم في تطور التكنولوجيا والتصنيع في المراحل الأولى من الثورة الصناعية. وقد ولدت كيمياء التسميد مثلاً في أربعينيات القرن التاسع عشر على يد جوستون فون لايبغ.

ومع ذلك كان هناك استثناء واحد ممكن : اختراع المكثِّف المنفصل من قبل جيمس وات. لقد احتاج المشتغلون بالمناجم إلى شيءٍ يسوق المضخات لكي يجففوا هذه المناجم، للحصول على الفحم والنحاس والقصدير. فقد اخترع حدّاد اسمه توماس نيوكومان أول محركٍ يعمل بالضغط الجوي ليحول الحرارة إلى عمل. ولكن لم يكن هذا المحرك فعالاً أبداً، لأن الأسطوانة الأساسية فيه التي تحدث الفراغ لدفع المضخة كانت تحمى بسرعة وتبرد بسرعة وتبدد الوقود. كانت مساهمة وات أنه ابتكر اسطوانةً منفصلة للتكثيف لكي تظل الأسطوانة الرئيسة ساخنةً دائماً. لكن هذه الابتكار لم يكن عملية محاولة وخطأ. لقد كان وات مبتكراً للأدوات العلمية ، وقد رسم رسوماً توضيحية لقياس حجم الضغط لتقدير كمية البخار التي يمكن أن يكثِّفها مقدار محدد من الماء. وقد اكتشف أن تحويل البخار إلى ماء بدرجة حرارة ٢١٢ فهرنهايت ينتج عنه مقدار من الحرارة لم يكن متوقعاً، وقد أخذ هذه النتيجة إلى الكيميائي جوزيف بلاك في جامعة غلاسكو. أخبره بلاك عن الظاهرة المعروفة بالحرارة الكامنة، التي هي مطلوبةٌ في عمليات تغيير حالات المادة (جليد إلى ماء، ماء إلى بخار،أو العكس). لقد فسَّر ما شرحه بلاك اكتشاف وات، لكنه لم يجعله ممكناً. لقد كان الاكتشاف نفسه الشيء الذي أوضح له وجوب ابتكار اسطوانة منفصلة لتكثيف البخار، وبالتالي لتقليل الوقود، وقد أنكر وات أي اعتمادٍ على بلاك في ابتكاره.

لكن الخط الفاصل بين التكنولوجيا والعلم في مثل هذه الحالة ليس واضحاً تماماً، لأن وات لم يكن ميكانيكياً غير متعلمٍ واكتشافه سلوك الحرارة كان نظرياً بقدر ما كان تطبيقياً تكنولوجياً. والأكثر من هذا أن تطور الطاقة البخارية اعتمد على أفكارٍ كانت شائعةً في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بخصوص المفاهيم المتعلقة بالضغط الجوي، التي كانت موضوعاً جذاباً في الدوائر العلمية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اعتمد ابتكار وات على الطريقة العلمية، إن لم يكن على النظرية العلمية البحتة ؛ لأن ابتكاره له مظهرٌ كميٌ تجريبيٌ ونظري، والذي هو المحور الأساسي لمفاهيم القرن السابع عشر عن البحث في الطبيعة.

على أية حال، لقد كان ذلك الصورة التاريخية الفعلية لما حدث ؛ بينما اعتماد التكنولوجيا والصناعة على العلم الأساسي في القرن العشرين هو حقيقة مسلم بها. لا أحد، مثلاً، يستطيع أن يتصور اختراع الترانسيستور دون استعمال معادلات ماكسويل (النظرية الكهرو- مغناطيسية). وخلال القرن العشرين اتحد العلم والتكنولوجيا والصناعة بشكلٍ فعَّالٍ في مشروع متناسقٍ، وقد أصبح مركز البحث العلمي هو مركز القلب لهذا المشروع، لهذا التطوير والصناعة والتوسع الاقتصادي. ومجرد النظر إلى قائمة مجلة فور تشن بال ٥٠٠ شركة يثبت ذلك. المطاط، الفولاذ، التليفزيون، إنتاج السيارات، صناعة البرامج والمعلومات _وتشمل القائمة أشياء أخرى كثيرة.

لم يكن انتصار الرأسمالية نجاحاً لدراسة غاليليو عن الأجسام الساقطة من برج بيزا (تجربة لم تجرِ فعلياً، على أية حال)، ولكن يبدو واضحاً تماماً أنه عندما عملت الأمم الغربية ببرنامج بيكون، التطبيق

الذكي للدراسة النقدية للعالم وتشريحه، فقد كانت النتيجة النهائية اتساع النشاط التجاري والتكنولوجي حتى شمل كل أركان المعمورة. وانسجاماً مع هذا فإن هوركهايمر وأدورنو يميزان بين "عصرتنويرٍ جيد وعصر تنويرٍ سيئ". الأول هو عصر العقل، عالم هيوم وفولتير، والذي أعطانا مفاهيمنا عن التحليل النقدي. والثاني هو الهاجس الذي يجعل كل شيء له علاقة بالكم والسيطرة والطغيان على الطبيعة. لقد ازداد سلطان الإنسان على الطبيعة ـ ونسمّي هذا تقدماً ـ وازداد أيضاً اغترابنا عن بيئتنا وعن عالم المعاني والأفكار والقيم. وهذا اغتراب أجبرنا بدوره على محاولة امتلاك سيطرةٍ وسطوة أكبر على الطبيعة، الشيء الذي أدّى بدوره إلى اغترابٍ أكبر، وهكذا دواليك. وأصبح "التقدم" أخيراً عبارةً عن تمرينٍ في الإحباط ؛ أصبح ما شخَّصه عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر " تخلصاً للعالم من الوهم"، و"القفص الحديدي" للمجتمع الصناعي. وتحت كل ذلك، كما يقول كتاب مدرسة فرانكفورت، هناك عالم خيالي عصابي لا واعٍ، إنه حلمٌ بالسيطرة المطلقة على كل شيء.

هذا يعني في زمننا أن علب الكوكا كولا يجب أن تخترق أبعد القرى في أفريقيا، مع محطات التلفزة الفضائية وأحذية نايك للجري. هذا هو " الجلد " الذي أشرت إليه سابقاً، الظاهرة التي لا يوجد فيها ولا بوصة مربعة واحدة من الحياة الأمريكية أو "المؤمركة" التي لا تقصف بالرسائل التجارية.

إلا أن بيكون وغاليليو لم يعيشا في عالم هجوم وسائل الإعلام الخاطف الذي لا ينتهي وعالم التخمة التجارية، ولو استطاعا أن يعودا

إلى عالمنا لاستنتجا أنهما وقعا في مستشفى مجانين. إن الخط الفاصل بين شكوى بيكون من اليد الميتة للفلسفة واللاهوت في القرون الوسطى إلى الحماس الأمريكي المخبول والمسعور، مثلاً، للكشف عن برنامج الحاسوب " ويندوز ٩٥ " قبل بضع سنوات، ليس خطأً مستقيماً، أبداً، وكما قلت، لا يكمن أن يوضع عند باب العلم.

القصة ليست بالحقيقة قصة تاريخ أفكار. ما نحتاج أن ننظر إليه إذن هو نهوض حضارة تجارية احتكارية جعلها العلم ممكنةً ولكنه بالتأكيد لم يسببها. وأفضل دراسةٍ لهذا الموضوع، برأيي، على الأقل بما يتعلق بالولايات المتحدة، هي كتاب وليام ليتش "أرض الرغبة" : تجارةٌ، قوةٌ، وظهور حضارة أمريكية جديدة. هذا، مع كتاب جيمس بينيغر "ثورة السيطرة والتحكم : الأصول التكنولوجية والاقتصادية لمجتمع المعلومات " يزودنا بصورةٍ واضحةٍ جداً للروابط بين العلم التطبيقي والرأسمالية الصناعية، ويرينا كيف أن قيم وأيديولوجية التسويق والاستهلاك نجحت في الطغيان على أمريكا في القرن العشرين. إن السيطرة الاحتكارية الكونية هي أبعد نقطةٍ لكل هذه العملية، وهي ما سمّيناه "عالم الاحتكارات" ؛ هذا العالم والطريق السريع والمغَالى فيه للمعلومات هي النتائج المنطقية للقرن الواحد والعشرين.

يقول ليتش إن اقتصاد الولايات المتحدة كان اقتصاداً زراعياً قبل ١٨٨٠ ؛ كان معظم الأمريكيين يعملون في المزارع، وكانت معظم الأسواق في مناطق مختلفة (مناطقية)، ومعظم الأعمال مملوكةً من قبل أفراد. في ١٨٧٠ كان متوسط عدد العمال في أي مصنع أقل من عشرة. وبشكلٍ عام، كانت الحضارة زراعيةً وجمهوريةً ودينية.

لقد تغير كل هذا بين عشيةٍ وضحاها. خلال السنوات بين ١٨٩٠ - ١٩٣٠ انقلب هذه البلد بواسطة ما يمكن أن يعتبر حضارة أجنبية، حتى أصبحت هذه الحضارة الجديدة حضارةً طاغية. وقد زحفت الاحتكارات والبنوك إلى الحياة اليومية بسرعة البرق، مصحوبةً بعالمٍ من المتاجر الضخمة، وسلسلة المتاجر الموزعة في مدن معظم الولايات، ومحلات الطلبات البريدية (أن تطلب البضائع بالبريد)، وقد وصف هذا التطور بشكلٍ رائعٍ في الأدب من قبل ستيفن ميلهاوتزر في روايته "مارتن دريسلر". لكن لم يكن هناك أي إجماعٍ عليه. لقد أحدث هذا التطور مجموعاتٌ تجارية بالتعاون مع نخبٍ أخرى كانوا قد نذروا أنفسهم لجمع الأرباح على نطاقٍ واسع ومتزايد إلى أن طردت هذه الطريقة من النظر إلى العالم كل نظرةٍ أخرى للحياة الرغيدة وحلّت محلها. فكانت النتيجة هي مجتمعٌ مشغولٌ بالاستهلاك و "حضارة من الرغبات التي خلطت بين الحياة الرغيدة والبضائع ".

ويعترف ليتش أنه يوجد سلف في عصر التنوير لكل هذا، وهو الفكرة المثالية لطلب المعرفة " وكل شيء جديد"، لكن الرأسمالية صادرتها وأقفلت الباب عليها. "الجديد" صار يعني عدداً أكبر من السلع. والتصنيع السريع الذي حدث بعد ١٨٨٥ حدث بسرعة الإعصار، وكان تبادل المال والبضائع قد قلب الوعي الأخلاقي والجمالي. وبدأت المتاجر الضخمة والفنادق ودور الملاهي تظهر نقاطاً بارزةً في المنظر العام، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان ينظر للشراء كطريقٍ للسعادة، وأصبح المال مقياس كل شيء، بما فيه الصداقة والدين.

وقد شمل جزءا من هذه الحركة "دمقرطة" الرغبات، المفهوم القائل

إن كل الناس لهم حقوق متساوية في الحصول على الراحة ورغد العيش وإن هذا هو معنى الحياة في المطاف الأخير. وقد برزت فنون الإعلانات التجارية لدعم هذه التطورات الجديدة، وبعد ١٨٨٠، صارت تعرض هذه الإعلانات في واجهات الدكاكين، ومعارض الأزياء ؛ وقد برزت الإشارات الكهربائية على لوحات الطرق. لقد استخدم اللون والزجاج والضوء لتعميم هذه الرسالة الجديدة. وأصبح الهدف هو توسيع الأسواق وجني الأرباح، وأصبحت مدنٌ مثل نيويورك "ملاذاً ضخماً للمضاربات التجارية" ويكتب ليتش :

" لم تطوِّر أي بلدٍ في العالم فن الإعلان التجاري مثلما طورته الولايات المتحدة، وكما طورت نموذج الفصل الدراسي لتعليم المضاربات التجارية، وشكل الدارات الكهربائية للمؤسسات المختلفة، أو التنوع في التجهيزات الروحية. لقد كانت الولايات المتحدة أول بلدٍ في العالم تمتلك اقتصاداً مكرَّساً للإنتاج على نطاقٍ واسع، والأول في خلق المؤسسات الاستهلاكية الجماهيرية التي نهضت واحدةً تلوَ الأخرى لتسويق وبيع البضائع المنتجة بكمياتٍ كبيرةٍ جداً".

هذه المؤسسات، بالإضافة إلى المؤسسات التجارية والأسر صاحبة المتاجر الضخمة مثل واناميكرز وفيلدز و ستراوس ساعد في تشييد أقوى حضارةٍ استهلاكية في العالم وإعطائها حياةً دائمة.

لقد جعل العلم التطبيقي والتكنولوجيا كل ذلك ممكناً عندما بدأت ثورة تصنيع البضائع الصناعية. فقد ارتفع إنتاج الزجاج والمصابيح مثلاً،من ٨٤٠٠٠ طناً في ١٨٩٠ إلى ٢٥٠٠٠٠ طناً في ١٩١٤. وقد شهد العصر أدواتٍ جديدة وآلاتٍ تقوم بالعمليات الإنتاجية دون توقف،

بالتزامن مع استغلال مصادر طاقةٍ جديدة؛ الفحم، البخار، الغاز، والكهرباء. وقد تسارع الإنتاج إلى مستوياتٍ عالية على نطاقٍ واسعٍ جداً، وقد اكتمل بناء السكك الحديدية الخاصة بالنقل في ١٨٩٥، وقد زاد الهاتف والبرق من سرعة حركة البضائع والأموال. وقد برزت مؤسساتٌ عملاقة : دوبونت (كمصنِّع للمتفجرات)، يو. اس. ستيل، ستاندارد أويل. وقد جعل مصباح تنغستون ذو الخمسمئة وات فتح متاجر ضخمة ممكناً ـ مثل مارشال فيلد وماكي ـ وإنشاء ملايين الدونمات من مساحات البيع. وقد ازدهرت إعلانات اللافتات الكهربائية بعد ١٩٠٠، وفي ١٩١٥ أصبحت الولايات المتحدة تستهلك ٥٠ ٪ من الصفائح الزجاجية المصنَّعة في أنحاء العالم. وقد كتب الصحفي جيمس روني في رحلةٍ في أنحاء الولايات المتحدة في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، أنه بغض النظر عن الكساد، كان الشيء الطاغي في البلد "النظام الصناعي المتقدم تكنولوجياً إلى درجة الأحلام، والذي يعتمد على المضاربات وتركز رأس المال والتخصص".

هذا عالمٌ {الجيد} فيه يعادل البضائع و{القيمة} تعادل التسويق ـ العالم الذي نقبله على علاّته ونعتبره أمراً مسلماً به. وكما يقول ليتش، إن الاعتقاد الشعبي الآن هو أن مثل هذا النظام هو نظام تحرري ويستجيب للحاجات {الحقيقية} لكل البشر. وحسب جيمس بينيغر، فإن هذه التطورات لم تكن فقط نتيجةً للعلم التطبيقي، ولكن أيضاً للطريقة العلمية التطبيقية، والتي يسمّيها ماكس فيبر {العقلنة}. وكما يعرفّها جوليان فروند في " علم الاجتماع عند ماكس فيبر" {العقلنة} هي "تنظيم الحياة من خلال تقسيم وتنسيق النشاطات على أساس دراسةٍ لعلاقات

الناس مع بعضهم، ومع أدواتهم وبيئتهم بهدف إنجاز فعاليةٍ وإنتاجية أكبر. "

ويقول بينيغر، إن الذي حدث هو أن تسخير الطاقة البخارية قد زاد من عملية الإنتاج وطوفان السلع إلى درجة أنها أصبحت تهدد بأنها تفوق قدرة التكنولوجيا على احتوائها أو مواكبتها. ففي ١٨٩٠ مثلاً ارتفع الإنتاج الأسبوعي لفرن صهر المعادن من سبعين طناً إلى أكثر من ألف طن. لذلك فقد كان الاندفاع مستمراً لضبط المجتمع والاقتصاد حسب معايير موضوعية للتمكن من إدارتهما. وهكذا، فإن الولايات المتحدة قسِّمت إلى أربع مناطق توقيت أساسية في ١٨٨٤ ؛ وأصبحت تسيطر على الماكينات الصناعية بأدواتٍ تعطي تغذيةً راجعة آلياً ؛ وفي ١٨٩٠ استعمل الكرت المثقوب لتسجيل المعلومات المتعلقة بإحصاء السكان في جداول إحصائية. وقد نشر ونسلو تيلور كتابه " مبادئ الإدارة العلمية " في ١٩١١، ودشَّن هنري فورد خط التجميع المتحرك في ١٩١٣. وقد شهدت ثلاثينيات القرن العشرين البدء في استعمال المحاسبة في الدخل القومي، والأنظمة العشرية في الحسابات الاقتصادية، والتحليل الداخلي والخارجي للاقتصاد، والبرمجة الخطية، ونظرية اتخاذ القرار بناءً على الإحصاءات المتوفرة.

وقد بدأت أيضاً السيطرة البيروقراطية على الاستهلاك الجماهيري في هذه الفترة. فنحن نرى تكنولوجيا العلامة الإنتاجية، والتغليف (تغليف السلعة) من أجل المستهلك، والإعلانات التجارية، التي أعطت أرباب الصناعة طريقةً للسيطرة على بائعي الجملة وعلى جماهير بائعي المفرق الجدد. وأصبح الإعلان الإدارة العلمية للرأي العام. وظهرت في

الصحف أقسام روتوغرافير في ١٩١٤، وإشارات النيون للإعلان في ١٩٢٣، وأخيراً الدراسات المتعلقة بالنسخ، والتسويق الاختباري للسلع، وطبعاً، الإذاعة. ويرجع تطور تكنيك التغذية الراجعة (رجوع المعلومات إلى الذي يقوم بالإعلان) إلى ١٩٠٠. في ١٩٣١، كتب الفيلسوف جون ديوي في كتابه الرائد "الفلسفة والحضارة" أن الثورة العلمية العظيمة ستأتي عندما يستعمل الناس بانتظام الطرق والإجراءات العلمية للسيطرة على العلاقات الإنسانية وعلى اتجاه الآثار الاجتماعية للأدوات التكنولوجية الواسعة...".

وقد حدث هذا، فقد نما الجهاز الصناعي العلمي الذي يعطي المعلومات بشكلٍ كبير بعد الحرب العالمية الثانية. ويقول ليتش إن الأموال التي تصرف الآن على اللون التجاري والزجاج والنور تصل إلى بلايين الدولارات، وتبث المحطات التليفزيونية الرغبات (الإعلانات) التجارية إلى كل قرية في العالم. لدينا الآن أربعة بلايين قدم مربع من الأرض - فكّر بهذا - مخصصة للمجمعات التجارية الضخمة، والفرد الأمريكي المتوسط يقصف بالترغيب عن طريق الهاتف والبريد ووسائل الدعاية والإعلان الجماهيرية ليشتري ويشتري ويشتري.

إن إعصار حضارة الأعمال ابتلعت كل شيء في أيديولوجيا استهلاكية، وجعلت من قيم السوق القيم الوحيدة في الوجود. لقد سمّاها الكاتب ايدموند ولسن " الخداع الضخم الأبله " في سنة ١٩٢٩، ويرى الكثيرون أن الأمور ساءت أكثر منذ ذلك التاريخ.

لكنني، وقبل أن أبدو كقارعٍ لناقوس الخطر، عليّ أن أسأل، هل هذا علم، أو ادعاء بالعلمية؟ عندما نشر جيمس كليرك ماكسويل كتابه

"الحكَّام" في ١٨٦٨، أول تحليل نظري لآليات ووسائل السيطرة والتحكم، كان ما نشره بالفعل علماً. عندما يخترق الحكَّام مجتمعنا كله، على شكل آليات تغذية راجعة تحلل المعلومات على نطاقٍ واسع، فهذا يعني أننا نواجه "التنوير السيئ" الذي تكلم عنه هوركهايمر وأدورنو. لكن المشكلة ـ ويعترف هوركهايمر وأدو رنو بهذا الشيء ـ أن " الجيد " و"السيئ " ليسا منفصلين إلى الدرجة التي نتصورها ؛ وقد حدثا تاريخياً كصفقةٍ متكاملة. وهناك، كما قلت سابقاً، نوع من العلاقة الجدلية بينهما. وهكذا يكتب جوليان فروند أن " العقلنة المتزايدة وإخضاع الأشياء للفكر يقلبان الجدل في العالمين الداخلي والخارجي إلى فراغٍ حقيقي وإلى وفرةٍ خيالية " - "أرض الرغبة الخاوية " التي يصفها وليام ليتش بتفصيلٍ كبير. العامل الجدلي هو أنه لا نستطيع العيش بدون معرفة عقلية، ولكن ما حصل تاريخياً هو أن العقلانية تحولت إلى تسويغٍ وتبرير من قبل رأسمالية غارقةٍ في العلم إلى علمٍ أعيد خلقه على الصورة التي تريدها الرأسمالية.

بالإضافة إلى هذا، رافق الثورة الصناعية ارتفاع في عدد السكان، الذي نتج عنه التصنيع المتزايد، والتحول إلى حياة المدينة، وهكذا دواليك، الأمور التي تطلبت كلها الإنتاج والتوزيع الواسعين والحاجة المصاحبة لهما إلى الضبط والسيطرة. إلا أنه، وبفرض توفر متسع من الوقت لدينا، من المشكوك فيه أن نكون قد أنجزنا "تنويراً" "جيداً" من دون "تنوير" "سيئ". إن نقد المجتمع المعاصر لكونه مضاداً للعلم، يميل لأن يكون لا عقلانياً ورومانتيكياً، ويقع في مطب رفض العلم ـ الذي، برأيي، هو شيء مبرر، ولكنه أيضا، وربما لأنه حتمي، في مطب رفض الطريقة التجريبية.

إن هذا اختيار مخيف علينا أن نقوم به، ولهذا رأى فيبر المجتمع الغربي متأرجحاً بين العقلنة والقدرة الخارقة على صنع المعجزات. لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد اختيار نستطيع القيام به. وعلى أية حال، من هو الـ "نحن" الذي سيقوم به؟ إن كل الحضارات هي عبارة عن صفقات متكاملة، و "اللخبطة" التي نحن فيها حدثت كما حدثت، حيث اجتمع في كلٍ واحدة : العلم وادعاء العلمية، والحياة الاستهلاكية مع الفضول الطبيعي، وتفاهة الأعمال الفنية على الرغم من شيوعها مع تناقص ٍ في القيم أدّى إلى عبادة السلع وكأنها أصنام (صنمية السلع).

إن السؤال الحقيقي هو: إلى أين يسير هذا النظام؟ (النظام الرأسمالي) إلى أين يمكن أن يتجه في القرن الواحد والعشرين عندما تستنفد كل هذه الجدليات نفسها ؟ تقول المؤرخة جانيت أبو لغد إن "الأنظمة العالمية " لا "تفشل"، إنها " تعيد بناء نفسها" ولاسيما عندما تتفكك القوى المحركة للتماسك، الذي هو الشكل الخاص لنظامٍ عالميٍ ما ، فيحدث شيء أكثر تعقيداً من التراجع البسيط. "الأجزاء القديمة تستمر في العيش، وتصبح المواد التي تتطور منها عملية إعادة البناء " لكنني أريد أن أضيف أن هذه الأجزاء لا تستمر بالعيش بنفس الطريقة، ولا تقوم بنفس الوظيفة. وهذا تناول أذكى لمسألة التغير الواسع النطاق من التغير البسيط المتمثل في " الصعود والهبوط " كما يقول روبرت كابلان في مقالته حول الديمقراطية في مجلته " الشهرية الأطلسية " في ١٩٩٧.

ولكن هناك المفاجأة الجدلية : إذا تحولت الديمقراطية أو انقلبت إلى شيء آخر، إذن ستعاني أوروبا والولايات المتحدة من نفس مصير

الحضارات القديمة. أعني أن روما اعتقدت نفسها التعبير الأخير عن الحضارة اليونانية، الذي هو الصورة المثالية للجمهورية، بينما نؤمن نحن أننا آخر تعبيرٍ عن الديمقراطية، وأننا لجلب الحرية والحياة الأفضل للبشرية. وينهي كابلان مقالته بملاحظة رمزية قائلاً: " نحن نحفظ توازننا لنحول أنفسنا إلى شيء ربما هو مختلف تماماً عما نتخيل ". وليس من الصعب، على ضوء تحليله، أن نملأ الفراغ. فعندما بدأت روما في تجسيد المثل اليونانية، بدت مختلفةً تماماً ـ أي بدت عكس الحضارة اليونانية ـ خلال فترة انهيارها. والذي بدأ كموضوعٍ له محتوى استمر فقط كظلٍ لا محتوى له، بينما ناقض أخيراً هذا الموضوع ظله المتحول. وبالنسبة لنا، يقول كابلان، سوف "نبيع" الديمقراطية للأنظمة المهجنة التي، سترتدي قناعاً ديمقراطياً لأسبابٍ اقتصادية، بينما حقيقتها السياسية شيء مختلف تماماً، وخلال فترة ارتدائها للقناع، سنصبح نحن أيضاً نظاماً هجيناً (نحن نسرع في هذا التحول إلى النظام الهجين). وسوف تصبح الديمقراطية بالنسبة لعامة الناس المغفلين والمطوقين، لا شيء أكثر من الحق في التسوق، أو الحق في اختيار وندي أو برغر كينك، أو في التحديق في شاشة ال سي. إن. إن. والاعتقاد أن معلومات التسلية هذه هي الأخبار الفعلية التي نريد سماعها.

إن سيطرة الاحتكارات، وانتصار الديمقراطية الكونية أو الحياة الاستهلاكية المبنية على النموذج الأمريكي، هو انهيار الحضارة الأمريكية. لذلك هناك تحول على نطاق واسع يحدث فعلياً، لكنه تحول يجعل النصر لا يتميز عن الانحلال والتفكك.

وهناك الأمثلة العديدة التي يمكن تقديمها لنوضح هذه العملية؛ وكما

لاحظنا من قبل إن التعليم العالي واحد من أوضح الأمثلة. تحتفظ الجامعات بهالةٍ من {النخبوية} (بالمعنى الإيجابي للكلمة) ؛ وينظر إليها كأمكنةٍ لأكثر الفكر تقدماً في هذه الأرض، أمكنة حيث الرجال والنساء أحرار في دراسة العلوم والإنسانيات، وهكذا فهم يتناولون أرقى العناصر الحضارية. وتزيّن الشعارات اللاتينية الكثير من هذه المدارس التي تتباهى "بالنور" و"الحقيقة". لكن الحقيقة مختلفة تماماً عن هذا، حيث إن الآلاف من هذه المؤسسات تتبنى سياسات قبول فعلية باسم الديمقراطية. إن " دمقرطة الرغبة " تعني فعلياً الحق لأي واحدٍ أن يدخل الكلية، والغرض هو الحصول على عملٍ بعد التخرج ؛ وفي عالمٍ تعليمي مصنفٍ الآن تحت قيم الأعمال، يحضر الطلاب إلى قاعات الدراسة، وبمباركة إدارية، وهم يعتقدون أنهم عبارة عن مستهلكين يشترون بضاعةً ما.

وفي هذا الإطار، إذا وجد واحد من الهيئة التدريسية في الكلية يحاول توطيد تقليد من تقاليد تدريس الإنسانيات كتجربةٍ لتنمية الذوق وللسمو الروحي، ويستثير طلابه لأن يفكروا بعمق بالقضايا المعقدة ـ إن مثل هذا الأستاذ سيثير الهيئة الإدارية على تقييمه بشكلٍ سلبي، وسيقول له العميد من الأفضل أن يبحث عن عملٍ في مكانٍ آخر. إن معارضة البعد النفعي الخالص للتعليم يعتبر أمراً غريباً ويوسم صاحبه "بالنخبوية " (يا للرعب). ولكن الحقيقة هي أنه لا يمكن وجود تعليمٍ ليبراليٍ حرٍ حقيقي بدون هذه المعارضة. ويقول راسل جاكوبي في كتابه "الحكمة المذهبية" إن "التفكير والقراءة والفن تتطلب حيزاً ثقافياً وحضارياً، ومنطقةً حرةً خاليةً من القلق والتلهف على جمع الثروة وعلى

ما يسمَّى "الحياة العملية " وتتطلب بعض السكينة والفراغ لأن التعليم والثقافة الليبرالية الحرة تنكمش دون توفر تلك الشروط ".

ويلاحظ بيل ريدينغ في كتابه "الجامعة أثرٌ بعد عين" لسوء الحظ، أن هذا الصوت يتلاشى بسرعة، ويجادل أن هذا يرجع إلى ظاهرة "العولمة" التي تقوض مشروع التنوير الأصلي. لقد نظر "التنوير الجيد" إلى التعليم كاستمرارٍ حضاريٍ وتطورٍ للفكر النقدي ؛ وفي هذا الإطار فان الأستاذ كان لاعباً أساسياً. إن "التنوير السيئ المعلمن" (من العولمة) ينظر إلى التعليم كتعبيرٍ عن مفهومٍ بيروقراطيٍ تكنولوجيٍ عن "الامتياز" أو " الإدارة الكلية للجودة " ولذلك فان اللاعب الأساسي هو الموظف الإداري وليس المدرس. ويمكن أن تبدو الجامعة كمؤسسة لتقدم الثقافة العالية، ولكن محتواها وتنظيمها هي احتكارية (خاضعة للاحتكارات)، والنتيجة هي أن روح الابتكار في التعليم يُحط من قدرها بشكلٍ كبير. وقد كتب آدم سميث في كتابه " ثروة الأمم " أن " الأثر السيئ الآخر للتجارة هو تقلص عقول الناس وعدم قدرتهم على الارتقاء، وكرههم للتعليم والثقافة وإهمالهم لهما".

لقد كان لدي فرصةٌ لرؤية هذه الاتجاهات في أسوأ حالةٍ لها عندما عملت في كليةٍ للتعليم عن بعد قبل عدة سنوات. (التعليم عن بعد اتجاه شائع في التعليم الآن). يبدو على السطح - أقصد من دليل الدراسة المنشور - أن هذه الكلية ذات سمعةٍ طيبة، وكان ذلك ما جذبني للعمل فيها. ثم اكتشفت بعد وقتٍ قصير أن ممارسة التعليم الفعلية فيها كانت شيئاً آخر مختلفاً. مثل الرئيس كلينتون، لم يكن لهذه الكلية أية هوية حقيقية ؛ كانت نوعاً من الخلق الاحتكاري (أوجدتها الاحتكارات)

مدفوعة ً بالبلاغة الشعبية وراضيةً أن تماثل نفسها مع أي شيء يعتبر أكاديمياً في الطليعة. لقد كانت نسبة كبيرة من الطلاب موظفي شركات احتكارية يحاولون تطوير مراكزهم الوظيفية بإضافة رمز شهادة الدكتوراه إلى أسمائهم. ولأن هذه الكلية تؤدي عملها من خلال الرسوم التعليمية، فإن طلابها يدعون " بالمتميزين " وهكذا، كان من المستحيل على الكلية أن تطبق المعايير الأكاديمية الحقيقية، لأن هذا يهدد وضعها المالي. ولذلك سادت الأيديولوجية القائلة أن أي مرجعيةٍ أكاديمية هي سوء استخدام للسلطة، وإن أي أستاذ لديه أي مفهوم عن المسؤولية الأكاديمية الجادة يسقط فوراً من أعين الطلاب ليحل محله آخر ـ وهنا ك الكثير منهم ـ لا يطالبهم بأي مطالب فكرية. ولما كان يتوجب على المعلم أن يجذب المتعلم لكي يستمر في وظيفته، كان من الأنسب له ألا يطلب الكثير من طلابه. وحسبما أعتقد، كان يقبل معظم المتقدمين إلى هذه الكلية، وكانت مقابلات القبول مزيفةً : وفي حالة الطالبين الذين رفضت قبولهما (وهذا معناه أنهما كانا سيئين بالفعل) فلقد قبل واحد منهما بشكلٍ أو بآخر، وأعيدت مقابلة الآخر مرتين. وكانت الدرجات المطلوبة للنجاح في الوحدات الدراسية التي أكملها الطالب تتلخص أساساً في الأجوبة " نعم "، و " ليس بعد " لذلك فالطلاب المثابرون، وبغض النظر عن كفاءتهم، حصلوا أخيراً على درجة الدكتوراه.

وبالنسبة للقسم الذي كنت أدرس فيه، فلم يكن واضحاً كيف كان يحصل الأستاذ على وظيفته، باستثناء كونه يلائم المجموعة. وكانت الجدارة أو الأهلية، في أحسن الأحوال، عاملاً ثانوياً، وكان عدد لا بأس به من الأساتذة غير مؤهلين : ليس فقط جاهلين بشكلٍ يثير الدهشة

والذهول، بل معادين للفكر بشدة في نظرتهم، ومستهزئين بأي تعبيرٍ فرديٍ منافٍ لعقل الجماعة. وهكذا لقد سُخر مني لأنني استعملت تعبير "مفكك" وقد هوجمت لقراءة جورج ستاينر. وعندما أشرت مرةً إلى فرانسيس بيكون في اجتماع لأساتذة الكلية، بدا أنه لم يكن لدى زملائي أية فكرة عمن كنت أتكلم. هذه "الرياضة الروحية" كما كانت تدعى (اجتماعات المدرسين) احتوت على جرعاتٍ كبيرة من الكلية التقليدية وفيها نكهة طقوسٍ دينية تربط المجموعة مع بعضهم. وقد كلمني عميد الكلية مرةً على انفراد قائلا إنني سأقوم بعملٍ فاضل إذا مدحت الكلية علناً أثناء الاجتماعات ـ اقتراح يذكرني بالثورة الثقافية الصينية. وعند مراجعة عمل الطلاب، أصابني الذهول من درجة الضعف التي وصل إليها هذا العمل، ومن تدني المستوى المطلوب من هؤلاء المرشحين لنيل درجة الدكتوراه، ومن حصولهم على درجة النجاح بتلك السهولة.

وعند حضوري لسماع الدفاع عن أطروحة أحد الطلاب، اطلعت على المثالب والأخطاء الكبيرة الموجودة في الأطروحة، ولكن روح النظام في الكلية اقتضت ألا تَنْبسَ ببنت شفة. وعند حضوري قراءة أطروحةٍ أخرى تبين أنها إفراغ لمادةٍ سابقة في قالب جديد. وتبين أن الإشارة إلى نقص الأصالة في الأطروحة لم يكن مقبولاً. وكان العديد من الأطروحات في هذه الكلية منغمسةً في الذات : أم غير متزوجة في الخامسة والأربعين لنقل، تبحث في تجارب ومحن الأمهات غير المتزوجات في أواسط الأربعينيات من أعمارهن، وكانت أصول البروتوكول في الكلية تقتضي ألا تدعو الطلاب " طلاباً " ؛ لأنهم كانوا "مشاركين في التعليم " وكان

هذا صحيحاً بمعنىً عجيب، لأن هذه الكلية كانت حالةً كلاسيكية للعميان الذين يقودون العميان.

لقد تصورت هذه الكلية نفسها منظمةً "ثوريةً" تعبر عن رفضٍ تامٍ للحضارة السائدة ؛ لكن إذا كانت هذه الحضارة هي الحضارة التجارية الاحتكارية، فهذه الكلية هي أفضل ممثلٍ لها. إن رفضها المتعصب هذا لم يستهدف العدو الحقيقي، وقد قامت بتمثيل هذه الحضارة بأمان : أصولية نسوية، تهديم فكر ما بعد الحداثة (نظرية إعطاء القارئ معنىً للنصوص، نظرية الأنظمة (التي لم تكن معرفةً بوضوح)، والنسبية الأصولية (هذه مقولات حضارة الاحتكارات). لقد كان ذلك "الجانب المظلم من اليسار كما قال ريتشارد ايليس، وقد كانت الكلية ذلك الجانب ؛ لقد كانت شموليةً بشكلٍ كبير. كل شيء كان يعوم في عالمٍ من القيم المتساوية، باستثناء العقائد المختلفة التي ذكرت آنفاً، التي هي الحقيقة. كان بعض الأساتذة يثيرون الاستغراب ويعتنقون مبدأ "الذي تقوم به المجموعة" هو الذي يؤدي إلى الخلاص. ويزعمون أنهم من رجال فكر ما بعد الحداثة، الذين يعتبرون حياتهم عبارةً عن "نصوص" يعيدون ابتكارها باستمرارٍ وثبات كي يخفوا خواءهم المتأصل. وكما يمكن أن تتخيل يمكن أن يختلف معهم أي واحد، أو مع هذه النظرة غير الفلسفية، وفي هذه الحالة فهم يخافون منه، وينفونه دون تهمة، وأخيراً يكرهونه.

لقد كان كثيرٌ من الأكاديميين في هذه الكلية يعبدون " التعددية الحضارية " ـ موقف فكري صحيح سياسياً وآمن ـ إلى درجةٍ مرضيَّة، وقد شاهدت مرةً محاكمةً كانت نوعاً من الطقوس التي تمارس في

محاكمات موسكو الشيوعية، حيث اعترف كثير من هؤلاء الأكاديميين "بخطاياهم" العنصرية، حتى إن بعضهم بكى. (وقد كتب ييتس " أسوأ الناس مفعمون بعواطف شديدة") وأخيراً كتب الطلاب والأكاديميون مسودةً لوحدةٍ دراسية (مقرر جامعي) سيطلب من كل الطلاب، لكن كان هناك وجهة نظر واحدة ممثلةً في صفحاتها. لقد صادقت الهيئة الإدارية عليها بحماس، وبعد مغادرتي الكلية، صار يطلب من كل عضو في الهيئة الأكاديمية أن يبرز ما يثبت أنه مؤمن بالتعددية الحضارية ـ نوع من المكارثية المعكوسة. أتذكر العميد وهو يقول مرةً إن عدم الإيمان بهذه التعددية الحضارية عبارة عن عائقٍ أمام الرجال المحتشمين، لأن ذلك سيشوش على النضال الأيديولوجي الحقيقي الذي يتوجب على الحركة النسوية أن تقوم به.

لقد تركت هذه الكلية بشعورٍ من الراحة، ولم أنظر إلى الخلف أبداً. لكن كان لا يزال هناك شيء ما يخطر في بالي، لأن المسألة هنا لم تكن مسألة كلية صغيرة تتقنع بقناع مؤسسة تعليمية، مع أن تلك الكلية كانت عبارةً عن شيء يثير السخرية. ففي مدح المدرسين لأنفسهم الذي بلغ حد الابتهال، كانوا يتباهون أنهم يمثلون ثقافة المستقبل؛ وأخشى أنهم كانوا محقين في ذلك. لأن هذه الكلية يمكن أن تكون مختلفةً بالدرجة عن نموذج الكلية أو الجامعة السائد في الولايات المتحدة. ويمكن ألا تكون مختلفةً جداً بالنوعية. وأعتقد أنك أيها القارئ، لو كنت طالباً أو أكاديمياً، فإنك تلاحظ عناصر من كليتك في وصفي لهذه الكلية. وكما تبين لنا مهنة ألفن كيرنا ن بوضوح، أنه، حتى مدارس مثل ييل وبرنستون سقطت ضحيةً للتضخم في منح الدرجات للطلاب، وللحضارة

الاستهلاكية، ولفكر ما بعد الحداثة، ولما يعتقد أنه السيئ الصحيح سياسياً، وما شابه.

وهكذا ففي كتابها " بيان المعتدل العاطفي " تقول الفيلسوفة سوزان هاغ إنها تجد في الجامعات الأمريكية اليوم "جوقةً من الأصوات الثورية التي تعلن أن البحث العلمي غير ممكن، وأن كل <المعرفة> المفترضة هي تعبير عن القوة، وأن مفاهيم مثل الدليل (أن تجد الدليل أو البرهان لإثبات صحة مسألةٍ ما)، والموضوعية، والحقيقة، ما هي إلا هراء أيد يولوجي ".

وبما يخص "التعددية الحضارية " تقول، إن محاولات إلحاق عددٍ أكبر من النساء وأمريكيين من أصول ٍإفريقية في التعليم العالي ـ محاولات تستحق الثناء طبعاً ـ " ويبدو أنها شجّعت على اعتبار الحقيقة والدليل أو البرهان والعقل أدواتٍ لاضطهادهم (النساء والأمريكان السود) : فكرةٌ مأساوية بقدر ما هي غريبة ". وهي تقتبس أمثلةً على نوبة غضب الحركة النسائية المسعورة (الباحث الذي اعتبر كتاب" المبادئ الأساسية " لنيوتن "كتيباً في الاغتصاب" مثلاً)، والمجادلات الأكاديمية حول وجوب أن تكون الثقافة الجيدة والسياسة المناسبة متماثلين، والتأكيدات " أن الحقيقة والموضوعية عبارةٌ عن أساطير" ـ نوع التفكير الذي اعتنقته كليتي المذكورة. كل هذا، كما قلت، منسجمٌ تماماً مع النظام الرأسمالي في عصر ما بعد الحداثة. أضف إلى هذا التعليم عن بعد،الحط من قدر المعايير الأكاديمية، وتملق وتزلف الإدارات الجامعية لقوى السوق (للمطالب الاستهلاكية)، فسيكون لديك وضع لا يبتعد كثيراً عن وضع كليتي المذكورة، حتى لو كان أقل

تدين وتعبد وهستيرية. لذلك يمكن أن تكون هذه الكلية فعلياً ممثلةً لتعليم المستقبل وثقافته؛ الذي يعني أن التعليم والثقافة لا مستقبل لهما.

والمجال الآخر الذي تباهت هذه الكلية بأنها تتمسك باعتناقه هو التعليم عن بعد. أخشى أن يكون هذا الاتجاه سرطاناً ينتشر في كل التعليم الجامعي، وأنه يمثل تحويل التعليم العالي إلى تجارة. ولكن يوجد، بدءاً من كتابة هذا الكتاب، حركة ارتجاعية (أن يصيب السوط ضاربه بعد إصابة المضروب به) ضد هذا الاتجاه، وقد وثّق المؤرخ ديفيد نوبل بعض أشكال فشله : رفض الجامعة الحكومية في كاليفورنيا لعرض من الاحتكارات (ميكروسوفت و إم.سي أي.، وهافز أيركرافت، وفوجيتسو) لربط مدنها الجامعية مع بعضها بالاتصالات الإلكترونية وتبادل المعلومات مقابل حق هذه الاحتكارات في بيع ما قيمته تقريباً أربعة بلايين من المنتجات التكنولوجية المتقدمة للطلاب خلال العقد القادم. ويعزى هذا الرفض إلى معارضة الطلاب والهيئة الأكاديمية للهيئة الإدارية. والمثال الآخر على فشل هذا الاتجاه في التعليم هو الإضراب الناجح في جامعة يورك على أثر محاولة إدارتها القيام بالاستغلال التجاري للتعليم عن بعد في كندا. ولكن الخطط لاستغلال الجامعة الحكومية في كاليفورنيا يعاد تدبيرها الآن من قبل شكلٍ مخيفٍ من الشراكة بين الاحتكارات. وقد شكلت جامعة يو.سي. إل.أي. في كاليفورنيا " شركة التعليم المنزلي " والتي هي شركة غايتها الربح، ويرأسها نائب مستشار هذه الجامعة السابق.

إنني أعتقد، على أية حال، أن هذه النكسات هي مؤقتة، فطالما أن اللاعبين أقوياء جداً، لا يمكن استبعادهم بشكلٍ دائم. وأمثلة هؤلاء

اللاعبين هي : أبل، وآي. ب. إم، وديل، وشركات الكيبل، وميكروسوفت، وديزني، وفياكوم، وشركات أخرى. وبالنسبة للتعليم في كليتي هذه فهو تعليمٌ خُفِّف تركيزه بإضافة الماء وحوِّل إلى سلعة ـ "ظلٌ لتعليمٍ متقدمٍ قد حُطَّ من قدره"، ويقرَّر محتواه من قبل رجال الأعمال ووسائل الإعلام. وهكذا فقد أعلن حاكم يوتا ،ذو البصيرة المشهور، مايك ليفيت أن " مؤسسة التعليم العالي ستصبح أقل من محطة تليفزيون محلية، بينما صرَّح بصيرٌ آخر له نفس شهرة حاكم يوتا، هو دين مارفين لوفلين، عميد جامعة كولورادو في دينفر، الذي كان يخطط في ١٩٩٨ لتوظيف "مساعدين مدرسين" غير مؤهلين ليدِّرسوا مواد دراسية عن بعد، " أنا مستعدٌ لأعوض عن كل البناء الفوقي للتعليم العالي ".

إن عملية غزو السوق لكل ركنٍ من أركان حياتنا، ليس محصوراً فقط بالتعليم، بطبيعة الحال. فوسائل الإعلام هي مجال مهمٌ آخر. وقد اعتبرنا وسائل الإعلام تقليدياً الحصن المنيع للمجتمع الحر. يخطر ببال المرء بنجامين فرانكلين وتوماس بين وإميل زولا صارخين، " أنا أتهم في قضية < دريفوس > ؛ ويخطر ببال المرء أيضاً وودورد وبرنشتاين في ١٩٧٤". ما هي الصحافة ووسائل الإعلام الآن إن لم تكن مؤسساتٍ مصممةً لتقديم سيلٍ لا نهائيٍ من المعلومات غير المفيدة ومن الأخبار كشكلٍ من أشكال التسلية؟ فكِّر بالغضب العارم الذي نشب في ١٩٩٨ ،عندما اتهم الرئيس كلينتون بأن له علاقة جنسية مع واحدةٍ من موظفات البيت الأبيض، مونيكا لوينسكي ؛ لم تكن نسبة الإعلان المطوَّل إلى المحتوى الفعلي لا نهائيةً فقط، ولكن بدأ التليفزيون ببث برامج عن التغطية المسعورة لما حدث، الشيء الذي كان عبارةً عن تقليدٍ

ساخرٍ من قبل التلفزيون لنفسه. وكما هي الحال في الجامعة التي أنشأتها وتشرف عليها الاحتكارات، هناك مقدار كبير من الطاقة الواضحة في كل هذا ؛ إن لفَّ علاقة كلينتون بمونيكا وتغليفها وكأنها سلعة من قبل وسائل الإعلام، أعطى الشعور بأن شيئاً مثيراً كان مستمر الحدوث، لأن ما قدمته الأخبار من حقائق لم يكن موجوداً. لقد تعاملت تغطية وسائل الإعلام لهذا الحدث كادعاءات وتفسيرات ناتجة عن هذه الادعاءات. وكما بيَّن بعض المراقبين، كانت قصة علاقة كلينتون هذه عبارةً عن متابعةٍ لمحاكمة أو. جي. سيمبسون، ولكن بأشخاص مسرحيةٍ مختلفة. لذلك لدينا نظام تعليمي لا يخص التعليم حقيقةً، وصحافةٌ ووسائل إعلامٍ لا علاقة لها بنقل الأخبار الصحيحة للناس.

عندما ننظر إلى أين وصلنا منذ عصر النهضة، فإننا نرى توسع المعرفة المدنية والعلمية إلى درجة أنها جعلت عالم القرن العشرين التكنو-تجاري ممكناً، من " المكالمات الباردة " اللانهائية التي يتلقَّاها المرء لتسويق مئاتٍ من المنتجات والخدمات غير الضرورية إلى استغلال الشركة الاحتكارية نايك للنساء والأطفال في إندونيسيا. لقد تحول التنوير إلى نقيضه وتُركنا مع " ثورة السيطرة والتحكم " لبينيغر، و"أرض الرغبة " لـ وليام ليتش، و" ماك ورلد " لِ بن باربر، التي كلها، واحدةٌ إثر واحدة، أَثارت سلسلةً من الاستجابات المشوشة : فكر العصر الجديد، إعطاء القارئ معنىً للنص، علم ملائمة الكائن الحي لبيئته الوجدانية، الأصولية الدينية، التعليم على طريقة الكلية التي تكلمت عنها. وهكذا ينقلب النور والنشاط إلى ظلام وسكون (يتحول اليانك إلى ين في الفلسفة الصينية)، والذكاء المتقد إلى زبل.

إن "الأعمال الفنية التي لا قيمة لها برغم شيوعها" و تعزيز الطاقة التجارية على حساب المحتوى الأصيل الحيوي، وعلى حساب المادة الحقيقية سيكون هو الحقيقة بالنسبة لمعظم الأمريكان في القرن الواحد والعشرين، بشكلٍ أو بآخر، وستكون ‹ العولمة › القوة المحركة لذلك. إن معظم أولئك الذين يدعون معارضة الحضارة التكنو- علمية الاستهلاكية سيصبحون هم أنفسهم سلعاً يقومون بجولة العروض الكلامية ويبيعون "روحاً " أو "أرضاً خضراء " أو " صحةً تامةً" كآخر صرعةٍ تجارية. ستصبح أفكارهم شعاراتٍ على القمصان الرياضية ؛ سوف يصبحون رؤوس الحراب الدارجة لأحدث شكلٍ من أشكال التحرر الذي سيُلغى عما قريب لتحل محله أحدث صرعةٍ تلوح في الأفق.

في مجموعة قصصه " بيك أت بي " التي صدرت في ١٩٩٨، يجذب جون أبدايك الانتباه إلى المنظر العام الأكبر لكل هذا عندما يجعل بطله يقول :

"مؤلفون جشعون، وكلاء جشعون، سلاسل كتب تافهة، ناشرون تملكهم شركاتٌ تعدينية احتكارية مختلطة تُدارُ من قبل أدمغةٍ تعوزها حرارة المودة، وباردةٍ برودة الأنهار الجليدية، في مكاتب في جنيف. وفي هذه الأثناء تصبح اللغة، الكلام السعيد المعسول - كلام مايكروسوفت وهوندا - الذي هو ليس إلا مؤامرات الاحتكارات التي ستحول العالم إلى لعبةٍ كبيرةٍ هي لعبة الكرة والدبابيس لكي يلعبها مستهلكون عقولهم عقول الأطفال... ".

هل يشك القارئ بدقة هذا الوصف للحظة؟ لقد ارتبط ديزني الآن مع ماكدونالد في شراكة ثنائية الترخيص. هذه الشراكة تنظم الألعاب

والتسلية حسب نسختها من القيم الأمريكية. إنها تعطي أطفالنا دمى وألعاباً وكتب تلوينٍ وصوراً تُحرقُ في أدمغتهم. إن صغارنا مثبتون بكلاليب على أدوات اللعب والتسلية هذه ليس بشكلٍ أقل شدةٍ من النيكوتين المضاف إلى السجائر والإعلانات التجارية التي دفعتهم للتدخين في المقام الأول. إن وعينا كله، وحياتنا الفكرية والعقلية، تُكَثّفُ باستمرارٍ في نظرةٍ مسبقة الصنع للذي يصممها (الاحتكارات والنظام الرأسمالي بشكلٍ عام) بطريقةٍ تذكرنا بذلك الفيلم الرائع والمخيف " الغزاة الذين يسرقون أجسادنا " (تشبيه عظيم يلائم عصرنا). إننا نتحول إلى أمةٍ من< القطعان > أو< القطيع >، لأنه لا يوجد إلا القليل لمقاومة عملية تحول المجتمع الأمريكي إلى مجتمعٍ تجاريٍ استهلاكي حيث الدولار هو أهم قيم الناس، وإذا رأى الناس أن هناك شيئاً ما يمكن أن يقاوم، فهذا الشيء تنقصه الأصالة والقوة والتماسك، الصفات التي تتوفر في الأشياء الحقيقية. لقد كتب جون جي تشابمان في ١٨٩٨ في كتابه "التحريض العملي" أن " الأعمال دمَّرت معرفتنا بكل القوى الطبيعية الأخرى ما عدا الأعمال ".

وعلق صانع الفخاريات والناقد الفني البريطاني روزمري هيل وهو يكتب عن الصناعات الحرفية اليدوية : " عندما تقوم بصناعاتٍ يدوية في مجتمعٍ صناعي، وعندما تعمل ببطء وبشكلٍ غير اقتصادي ضد الاتجاه العام، معناه أنك تنتقد ذلك المجتمع، مهما كان هذا النقد غير مكترثٍ بالنتائج ".

إن هذا وصفٌ للمبادئ المجسدة في " الخيار الرهباني "، ولكنه يحتاج لأن يُترجمَ عملياً إلى معنى حضاري أكبر من الصناعات اليدوية.

يجب أن تنسجم " الحرفية " مع الحياة كلها، ولأن قيمتها المركزية هي العمل نفسه ـ الذي هو نقيض غرض حضارة الاحتكارات الاستهلاكية الأمريكية ـ فإن أولئك الملتزمين بالخيار الرهباني عليهم أن يظلوا بعيدين عن أعين الناس ؛ لكي يقوموا بعملهم بهدوء، ولكي لا يثيروا انتباه وسائل الإعلام. ويمكن أن يُسحقَ الخيار الرهباني إذا عرفت به حضارة الاحتكارات. نحن الآن جاهزون لنسأل من هي الطبقة الرهبانية الجديدة، وما هي الأنشطة التي يمكن أن تقوم بها ؟

الجزء الرابع
الخيار الرهباني في القرن الواحد والعشرين

يوجد بشرٌ في العالم يعرفون....ولكنهم يظلون ساكتين. إنهم يتحركون ببطء لإنقاذ الناس الذين يعرفون أنهم في فخ. ثم، يشعر الذين خرجوا من الفخ وكأنهم صحوا بعد تناولهم الكلوروفورم. هم يدركون أنهم كانوا نياماً يحلمون طوال حياتهم. ثم يأتي دورهم في تعلم الأنظمة والتوقيت. ثم يعيشون بهدوء، تماماً مثلما يمكن للبشر أن يعيشوا إذا كان هناك عدد قليل منهم على كوكبٍ يسكنه القرود، لكن لدى القرود إمكانية أن يتعلموا كيف يفكرون مثل البشر. ولكن في الأدمغة المتضررة للقرود المسكينة هناك معرفةٌ نصف مدفونة. وهم يفكرون أحياناً أنهم فقط لو عرفوا كيف، ولو استطاعوا أن يتذكروا بشكلٍ صحيح، لاستطاعوا أن يخرجوا من الفخ، ولاستطاعوا التوقف عن كونهم ميتين أعيدوا للحياة دون حرية الإرادة أو القدرة على الكلام.

دوريس ليسينغ من "موجز عن النزول إلى الجحيم"

إن واحداً من أهداف كتابتي لهذا الكتاب هو ابتكار دليلٍ للأمريكيين الساخطين الذين يشعرون أنهم غير قادرين على الانسجام مع هذا المجتمع، والذين يشعرون أيضاً أن على هذه الحضارة أن تتغير إذا

كانت ستبقى على قيد الحياة. كنت آمل، بتعبير آخر، أن أقدم خريطة طريق لأي شخصٍ مهتمٍ بأحداث القرن الجديد وفي إيجاد معنىً في حضارةٍ تنهار. لقد جادلت أننا في قبضة قوى بنيوية هي عبارةٌ عن نهاية عملية تاريخية معينة، لذلك من غير المحتمل أن يحدث تغيير كبير بشكلٍ سريع أو دراماتيكي؛ لكن التغيرات الفردية في أساليب الحياة والقيم ربما تعمل كإسفين يكون كقوةٍ موازنة أو مضادة لعالم رخيص القيم ورديء النوعية، وللجهل، ولعدم المساواة الاجتماعية، وللحضارة الاستهلاكية الجماهيرية، التي تميز المنظر الأمريكي العام. وعلى الأقل هؤلاء "الرهبان الجدد" أو الأجانب الأصليون، كما يمكن أن يسميهم المرء، يمكن أن يزودونا بسجلٍ لأسلوب حياةٍ موثوقة يمكن المحافظة عليها ومن ثم تسليمها للأجيال اللاحقة، لتعود إلى السطح فيما بعد خلال أوقاتٍ صحيةٍ أكثر.

كيف يمكن أن يتم هذا الحفظ وهذا النقل؟ مع أن الوجه العام للحضارة الأمريكية في القرن الواحد والعشرين سيكون عبارةً عن نشاطاتٍ وأعمالٍ غير ذات قيمة مع أنها شائعة، فإن قلةً صغيرةً من الناس سيهتمون بفعل شيء مختلفٍ في حياتهم، " الاختفاء عن الأنظار مثلاً " كي لا تنتفي مساهماتهم وتُجفَّف من مضامينها مثل الشعارات. أنا لا أتكلم عن وضع الكتب العظيمة على أقراص الحاسوب (كي تدفن أخيراً في كبسولاتٍ زمنية) أو على شبكة الاتصالات؛ لقد جرت مثل هذه الأشياء من قبل، ولكن النتيجة لم تكن مشجعةً، لأن برنامج الكتب العظيمة هو في الحقيقة أسلوب حياة وليس قاعدة بيانات للحاسوب. طبعاً، لقد كان لقاعدة البيانات قيمة في العصور المظلمة، ولكن ذلك

كان في زمنٍ كانت المعلومات فيه نادرةً نسبياً، لذلك فقد كان الاحتفاظ بها دراماتيكياً. لكننا الآن غرقى في بحرٍ من المعلومات، ومن هنا فالمطلوب هو أن تتجسد هذه المعلومات وتحفظ في أساليب الحياة. وإذا كان نقل هذه المعلومات وأساليب الحياة للأجيال اللاحقة ممكناً، فسيكون إرثنا الحضاري عبارةً عن بذور النهضة اللاحقة. وعندما تحدث هذه النهضة بعد أكثر من مئة سنةٍ من الآن، وتبدأ في قطف ثمرات ما حفظه الرهبان، فإن معظم الأمريكان، ولنس ٢ ٪ منهم فقط، سيرون الاثني عشر عقداً الأخيرة كما كانت : صورةً كاريكاتوريةً مضحكةً للحضارة، عرضاً واستعراضاً لمدينة ملاهي فكرية.

وهكذا فإن مهمة الحفظ والنقل الحضاري في الوقت الحالي تتألف من خلق مناطق فكرية بطريقةٍ محلية خاصة، وحفظها بعيدةً عن أعين الناس. ما أقوله ليس عن "خمسون طريقة لحفظ الأرض" أو عن "بساطة طوعية" أو أي برنامج أنشطة زهدية دارجة. ولا يشتمل على أي شيء تبجحي أو دراماتيكي. وفي الحقيقة، فإن أي قارئ لهذا الكتاب يمكنه أن يلاحظ هذا. وكما يجعل ري براد بري واحداً من الذين" يهتمون بالكتب " في " فهرنهايت ٤٥١" يقول : " إن أهم شيءٍ وحيد يجب أن نجعله مستقراً في وعينا هو أننا لسنا مهمين.. نحن لا شيء أكثر من أغلفة الكتب التي نحفظها من الغبار، ولا أهمية أخرى لنا "، إذن يجب ألا نعطي أنفسنا كثيراً من الأهمية. وباختصار، يجب ألا نلصق أي شيءٍ بطوليٍ بالخيار الرهباني. الفرد هو عربة لنقل الحضارة الصحية، وهذا الخيار الرهباني هو مشروع لحفظ ونقل الحضارة دون أن يتوقع العاملون عليه أي مردودٍ ماديٍ مباشر عدا النفع الشخصي.

وبتطبيق هذا على التعليم العالي مثلاً، فإن "الشخص الرهباني الجديد" يمكن أن يُلمَحَ له بأن دوره قد حان على خشبة المسرح، أو يمكن أن يأخذ الدور الذي يجب أن يقوم به من عالم الاجتماع تود جيتلين، الذي يؤكد أن المسألة في الفنون الليبرالية الحرة التي كادت أن تُنسى هي" معارضة حضارةٍ ذات عيارٍ خفيف وطائشةٍ ومتهورةٍ وتجري بسرعةٍ كبيرةٍ والتي أهم قيمة فيها هي التسويق ".

ويتابع جيتلين، أن هذه القيمة لايمكن أن تخبرنا من نحن، لأنها لا تستطيع أن تعلمنا أي شيء عن الذي يبقى ويستمر. ومن هنا على أعضاء الهيئة التدريسية في كلية التعليم العالي في قسم الفنون الليبرالية الحرة أن يقولوا شيئاً كالتالي لطلابهم الذين لديهم ثقافة ضحلة والذين هم جزء من الحضارة الاستهلاكية التجارية :

"وسط التفاهات والسخافات لحضارةٍ آيلةٍ للزوال، نجد جين أوستين تتكلم عن التعقيدات السيكولوجية، وبلزاك عن الشح المالي. ونجد دوستويفيسكي يتصارع مع الله، وميلفيل مع العدم، ودوغلاس مع العبودية. ونجد العالم الداخلي الدينيِ لِرامبراندت، وغزارة وفيض موسيقى موزارت وامتلاءه بالحيوية والحماسة والمرح، وتوق بيتهوفن ورغبته الشديدة. وفي حضارة من القش والتبن نجد القمح ".

إن تجنب السير في الاتجاه السائد، وجعل طلابك يعملون ـ أعني يفكرون ـ يمكن أن يكلفك فقدان عملك ؛ لكنك إذا كنت ملتزماً بالخيار الرهباني (أو بأن يكون لحياتك أي معنى)، فعليك أن تترك النقود تسقط حيث تشاء.

سأتكلم عن أمثلة أخرى للخيار الرهباني، لكنني أرغب أولاً أن

أقول كلمةً عن طبيعة "حياة العصابات" لهذه الطريقة من الحياة. ولكي ندرك طبيعة التكوين النفسي الرهباني، علينا أن نستوعب مفهوم الوعي، أو الإدراك عند القبائل الرُّحل، أو الذي يمكن أن يسمَّى "الترحال الروحي" أو البداوة الروحية. أريد أن أناقش إمكانية أن كل عصرٍ فيه قسم صغير جداً من الناس الذين يعيشون الحياة على هواهم دون أن يتركوا أي إنتاج في حياتهم : ليس جان بول سارتر ولا بوريس فيان ولا غوتيه ولا هاينريك فون كلايست ولا مارتين هيدغر، ولا رولدفيك ودجينشتاين. هؤلاء هم بوهيميون (والباء في الكلمة صغيرة وليست كبيرةً، أي أن الكلمة ليست اسم علم بل وصفاً لهم). إن أعمالهم تتعارض مع الأشكال السائدة. إلا أنهم لا يحاولون أن يرقوا بمستوى تحطيمهم للتماثيل الدينية ومعارضتهم للمعتقدات والهيئات السائدة إلى حركةٍ جديدة، إلى شكلٍ ثابتٍ جديد. يسمّي بول فاسيل في كتابه "الطبقة" هؤلاء المؤلفين "الفئة إكس"، ولكن لأنه لا علاقة لهذه الفئة أبداً "بالجيل إكس" فإنني سأستعمل تسمية إن. إم. آي. (الشخص الرهباني الجديد) بدلاً عنه.

يقول بول فاسيل إن الأشخاص الرهبانيين الجدد يشكلون فئة الناس الذين لا يتبعون أية طبقة، ولا عضوية لهم بأي تنظيمٍ هرمي. إنهم يشكلون نوعاً من الأرستقراطية التي لا تملك نقوداً. إنهم متحررون من الرؤساء والإشراف والمراقبة ومن الشيء الذي يسمَّى "عمل". إنهم يعملون بجد، حقيقةً، ولكن لأنهم يحبون عملهم ويقومون به لقيمته الجوهرية، فإن هذا العمل لا يختلف كثيراً عن اللعب. وفي اعتبارات الحضارة الأمريكية المعاصرة مثل هؤلاء الناس هم ظاهرةٌ شاذة، لعدم

اهتمامهم بعالم نجاح الأعمال والحضارة الاستهلاكية التجارية الجماهيرية. وعقيدتهم، إذا كان بالإمكان صياغتها، تقترب من قصيدة الشاعر الياباني ' باشو' في القرن السابع عشر :

مرتحلاً في أنحاء العالم
جيئةً وذهاباً ، جيئةً وذهاباً
يزرع حقلاً صغيراً

هذه هي طبعاً الأرستقراطية (التي هي فعلياً ليست أرستقراطية) والتي أشار إليها إي. إم. فورستر. ونضيف إلى تقييمه لهؤلاء المؤلفين ملاحظة أن عيش مثل هؤلاء الناس تجربةً حياتية فيها تحملٌ للخشونة لا يمكن أن يسمَّى فشلاً. لكنها يمكن أن تسمى مأساة بمعنى أنه لم يوجد أي أداة يمكن استعمالها لنقل اللياقة والاحتشام الخاص إلى الشؤون العامة. وفورستر محقٌ، باستثناء أنه إذا كان بالإمكان نقل السلوك "الترحالي" أو البدوي للقبائل الرحَّل، سوف يتوقف عن كونه ترحالياً أو بدوياً ؛ بالإضافة إلى أنه يمكن أن يستمر بعض النقل الحضاري دون أداة، أعني، بدون أي شكلٍ من التنظيم المؤسساتي. وبتعبيرٍ آخر، فإنه يمكن أن يكون للأشخاص الرهبانيين الجدد تأثير تاريخي عميق، ولكن دون أن يقصدوا ذلك أو حتى دون أن يدركوا ذلك. وعلى الأقل يتركون وراءهم حياتهم الخاصة مثالاً على ذلك، معرفة أن الناس يستطيعون أن يعيشوا حياةً ترحالية (بدوية).

إن طبيعة "العصابات" للحياة البدوية الروحية شُرحت بشكلٍ جميلٍ في كتاب "علم البداوة" الذي كتبه جيلز دولوز وفيليكس غوتاري،

والذي يميز بين الذي يسمّيه الكاتبان "مستوياً" و "مثلّماً" (أي على شكل أثلام). ويمكن أن نشرح هذا التمييز بمقارنة ألعابٍ مثل لعبة الشطرنج ولعبة "غو ". لقد أجرى هذه المقارنة سكوت بورمان في كتابه "اللعبة المطولة: تفسير وي ـ تشي لاستراتيجية ماو تسي تونغ الثورية". لقد رأى بورمان أن ماو تسي تونغ استطاع أن يهزم الكومينتانغ لأنه استعمل استراتيجية "الغو" (وي تشي) بالصينية، بينما استعمل الكومينتانغ استراتيجية الشطرنج (أن تخرج العدو وتحتل الأرض (الأثلام). وبلغة دولوز وغوتاري إن قطع الشطرنج مشفّرة ؛ لها طبيعة داخلية وحركاتٌ مميزة مثل الجنود في جيش ٍ ما. إنها تعمل بشكلٍ تركيبي أو بنيوي، تعمل بشكلٍ مشترك، مصعِّدةً الضغط على نقطةٍ ما لكي تقوم بخرقٍ من هذه النقطة. النصر ـ موت الملك ـ هو مسألة كل شيء أو لا شيء. هذا هو منطق الدولة.

إن "غو" مسألة مختلفةٌ تماماً. مثل أفراد جيش عصابات، قطع الـ "غو" غير مسماة. إنها قطع حسابية بسيطة، (حجارة متماثلة بيضاء وسوداء). لا يوجد لها خواص جوهرية بل لها خواصٌ موضعية، وهي تعمل بإدخالها في مكان ٍ ما أو باستعمالها للتطويق. وقطعة الـ "غو" يمكن أن تدمر مجموعةً من الجنود بلحظةٍ واحدة، بينما يتطلب الشطرنج استراتيجية استعمال وحدتين من الزمن (بدل اللحظة الواحدة في الـ "غو مثلاً، هناك لحظتان في الشطرنج). النصر في ال "غو" نسبي وليس مطلقاً. إنه يتبع منطق "الرعي"، في اليونانية ولا يتبع منطق "الدولة" كالشطرنج. إن الحيِّز أو المساحة من الأرض المثلّمة تتطلب مراقبةً ودفاعاً ؛ ولكن الأرض المستوية زلقة. وعندما يتعرض للتهديد، فإن

الجندي الموجود في الأرض المستوية يذهب إلى مكانٍ آخر. حيث أن هذه الأرض المستوية لا تخص مؤسسةً ما ولا أرضاً ما، فلا يوجد شيء للدفاع عنه.

إن الصراع بين الأرض المستوية والمثلّمة يمكن أن يرى في التاريخ والفن والسياسة أيضاً. يقول دولوز وغوتاري إن علم الحساب بدأ كعلمٍ عند البدو الرحل. وبمفاهيمه الصعبة المراس "للحد " و "اللانهائي" كان التركيز فيه دائماً على العملية والنتيجة. وقد سعى المشتغلون بالحساب (أو علماء الحساب) الحكوميون إلى تصفية مثل هذه المفاهيم البدوية، وفرض، بدلاً عن ذلك، قواعد ثابتة عليها، وقد فرضوها. وبنفس الطريقة تحتاج الدولة إلى أنظمة مائية للري مثلاً، لكنها تحتاج مواسير لضبط جريان الماء. إن الدولة تهتم بضبط المتجول والمساعد على الكشف، ويمكن أن يُرى هذا في كل شيء من الموسيقى إلى بناء الكاتدرائية. لا شيء يجب أن يكون غير مستقرٍ في مكانٍ، لا شيء يجب أن يتبع التعرج الطبيعي للأشياء. ولكن الفكر البدوي الترحالي يسكن في مناطق الوسط بين الأراضي العشبية والبوادي. النموذج هو القبيلة في الصحراء. في العقل البدوي، يقول دولوز وغوتاري، الخيمة ليست مرتبطةً بالأرض، بل بالتنقل. تُترك النقاط التي يتم الوصول إليها في الخلف، بعد تجاوزها. الطريق إلى الحقيقة هو دائماً قيد الإنشاء؛ الهدف هو الذهاب. وكما عبَّر عن ذلك العالم الأنثروبولوجي الفرنسي "بيير كلاسترز" "إن الفكر مخلصٌ لنفسه فقط عندما يتحرك عكس المنحنى ". وهذا هو تركة عصر التنوير الجيد العظيمة - التي هي في حركة دائمة ضد الميل الفطري، طالبةً منا دائماً أن ننظر إلى الحياة بتعمقٍ أكبر.

لذلك فإن الأشخاص الرهبانيين الجدد حسب فاسيل لا يشكلون أي مجموعةٍ أو فئةٍ يمكن التعرف عليها، وإذا عُلّقت لافتةٌ لتدعوهم إلى اجتماع مثلاً، فإن الأشخاص الرهبانيين الحقيقيين سوف لا يأتون لأن لديهم أمورٌ أهم ليقوموا بها. الشخص الرهباني الجديد لا يمكن أن يشارك في أي شيء يمكن أن ينتهي اسمه بـ "إيزم" (آي. إس. إم.). يمكن أن يكون هذا الشخص امرأةً مستقلةً، ولكنها ليست من الحركة النسائية ؛ يمكن أن يكون شخصاً يقوم بعمل خاص بالبيئة، لكنه يظل على مسافةٍ من "السلام الأخضر". لأن الشخص الرهباني الجديد يعرف السخرية التاريخية، يعرف كيف تبدأ الحركات بطاقة نقدية تنبض حيويةً وتنتهي مثل الأرثذوكسيات القهرية الملأى بالنصوص والأبطال والشعارات. لذلك فهذا الرجل يظل متذكراً تحذير ويتجنشتاين " الفيلسوف الحقيقي ليس عضواً في أي جماعةٍ فكرية "، دون أن يصبح من جماعة ويتجنشتاين. وكنتيجةٍ لهذا فإن الشخص الرهباني الجديد هو أكبر تجسيدٍ للروح الإنسانية.

أريد أن أقدم بضعة أمثلةٍ عن النشاط الرهباني فيما يلي، لكن يجب على القارئ أن يكون مدركاً للمسألة المتناقضة هنا : إذا كان النشاط الذي حصل قد تم القيام به ليكون رهبانياً فهو بالحقيقة ليس رهبانياً، وربما سيكون مؤذياً أكثر من كونه جيداً. وهذا يثير سؤالاً : كيف يمكن أن يكون مثل هذا النشاط وسيلة حفظٍ للحضارة خلال العصر المظلم القادم، مع إمكانية ألا يكون كذلك، كما أشرت سابقاً؟

إن التاريخ ذو نزوات وليس خطياً (لا يسير على خطٍ مستقيم دائماً)؛ إنه لا يعد بأي شيء. والذي يمكن أن نقوله أنه لا يمكن أن يكون

هناك مثل هذا الحفظ للحضارة دون هذا النشاط. لذا يكون لهذا النشاط معنى عندما نقول أن غايته هي "زرع حقلٍ جديد". آمل أنني سأقدم هنا، ليس مدينةً فاضلةً، بل تفاؤلاً واقعياً.

مع التسليم أن الانحطاط الحضاري هو من الأجزاء المكونة للانقلاب أو التحول الحضاري الذي يصفه روبرت كابلان ـ تصاعد السيطرة الاحتكارية، تآكل الديمقراطية، تحول الجمهور الأمريكي إلى مجموعةٍ من المغفلين، وهلم جراً ـ هناك عدة جبهات يمكن للخيار الرهباني أن يعمل عليها. يوجد هنا واحدةٌ من أهم التصنيفات وهي فضح خواء أسلوب الحياة التجارية الاستهلاكية الاحتكارية. والمثال الجيد على هذا هو "مهنة " العشرين سنةً التي قضاها ديفيد بارساميان الذي يدير برنامجاً إذاعياً في محطة الإذاعة القومية لمدة ساعةٍ واحدة اسمه "الإذاعة البديلة". يقدم البرنامج منتدى عاماً للمعلومات والتحليلات التي تتجاهلها وسائل الإعلام نتيجةً لسيطرة الاحتكارات. يضم المتكلمون شخصياتٍ مثل فرانسيس فوكس بيفن،الذي يتكلم بصراحة عن برامج الرعاية الاجتماعية (إنها لا شيء، جزء بسيط جداً من الميزانية القومية)، جيف كوهين الذي يكشف تشويهات وسائل الإعلام في نقلها للأخبار، وناعوم تشومسكي من بين كثيرين.

في ١٩٩٦ حاضر جون كافانا، المدير المشارك في معهد الدراسات السياسية في واشنطن دي. سي. بموضوع "التميز الاقتصادي الكوني" مبيناً كيف أن المشروع الاحتكاري لتحويل العالم إلى مركزٍ تجاريٍ ضخم معناه السيطرة على الكرة الأرضية وجعل الشركات قادرةً على إنكار حقوق العمال الأجانب ودفع من ٥ - ١٠ ٪ من الذي يمكن أن يكسبوه في الولايات المتحدة.

لقد قابلت بارساميان مؤخراً في بولدر، كولورادو، وقد دُهشتُ لمدى الظلم في العملية كلها. يرسل بارساميان أشرطة التسجيل إلى المحطات الإذاعية مجاناً ؛ لا يكلّف البث الإذاعي لهذه المحاضرات أي شيء ـ إذا كان لديها الشجاعة لأن تبثها. إن برنامج "الإذاعة البديلة" يظل على قيد الحياة عن طريق مشتريات المستمعين لأشرطة البرنامج والنسخ الأصلية، مع العلم أن جمهور المستمعين ليس كبيراً. إن أسلوب حياة بارساميان بعيد جداً عن الفخفخة، ولا تقدم له الاحتكارات أي دعمٍ مالي لكنه ظل يعيش بشكلٍ معقول طوال عشرين عاماً، وهو يقضي وقته في القيام بالأعمال التي يهتم بها. هل تفكر بأسلوب حياةٍ أفضل؟

بالطبع يمكن ألا يفلح برنامج "الإذاعة البديلة" في إخراج عملية "العولمة " عن خط سيرها، ولكنه يشير إلى أن أسلوب الحياة غير التجارية وغير الاستهلاكية ممكن. هذا لا يعني الرجوع إلى العصر الزراعي في أمريكا قبل الحرب الأهلية، ولكنه يعني التحرر من عالمٍ يطغي عليه السوق والقيم النفعية ـ واحدة من أعظم مساهمات شخصٍ رهباني جديد يمكن أن يقوم بها. والأمل معقودٌ أن هذا سيظل على نطاقٍ ضيق. وفي اليوم الذي ترى بارساميان على برنامج لاري كينك لايف، فمن المؤكد أن برنامج "الإذاعة البديلة" قد فقد قيمته.

وهذا مثال آخر على النشاط الرهباني المتوقع. مجلةٌ كنديةٌ مغمورةٌ "آد بسترز" تصدر في فان كوفر في كولومبيا البريطانية. هذه المجلة كرست نفسها لفضح الحياة القائمة على فكرة أن شراء الأشياء هو مفتاح السعادة والسخرية منها. إنها ترسم رسوماً كاريكاتورية للإعلانات الشعبية للسجائر، والسيارات، والكحول بطريقة فيها مرحٌ صاخب،

وتستمر في الإلحاح على فكرة أن الحياة المبنية على السلع هي حياة مفلسة. هذه قصيدةٌ من عدد الشتاء لعام ١٩٩٨ :

مثل كل واحدٍ آخر ، أعدت التفكير بما أفعل
إنني أعرف الآن أن امتلاك الأشياء
لا يمكن أن يملأ الخواء في داخلي
أتساءل إذا كان عند الآخرين أي أمل
محبوس داخل حضارة امتلاك كل شيء
أشعر أنني نجوت بنفسي . . .

هذا ليس كيتس بالضبط ولكن الأدب ليس الغرض هنا. إنني أيضاً مسرور جداً باستيعاب هذه المجلة للخطر المحتمل جرّاء معاداتها لعبادة العقلية الاستهلاكية. ومن هنا قبولها أن تنشر رسالةً مجهولةً إلى المحرر في عدد الربيع لعام ١٩٩٨ :

لقد قالت لي إحدى الصديقات اليوم شيئاً أجفلني. لقد قرأت مجلتكم وأتتني تقول كم كانت باردةً، وتابعت عن الصورة البديلة للمجلة "برودتها "، " الصور الباردة ".. الخ.

يبدو أنها اشترت في مجلتكم صورة "البديل الثائر" وبدلاً من دفعنا لاستعمال عقولنا ، فإن مجلتكم تخاطر في تغيير الحالة العامة من غياب العقل إلى حالةٍ أخرى من أعراضها الدماغ الفارغ الذي لا يستطيع التفكير ـ باستثناء أن المبرمج لهذا الفراغ الدماغي هذه المرة هو مجلتكم.

أعتقد أن توزيع هذه المجلة على مستوى العالم أقل من قليلٍ جداً، وفرصتها أن تزاحم "فورتشن" و"بزنس ويك" تكاد تكون معدومةً. هل ستهزم هذه المجلة المجتمع الاستهلاكي؟ لا أعتقد ذلك. هل تستحق النشر؟ بالتأكيد. ما هو أسوأ شيء يمكن أن يحصل لها؟ أن يشتريها تايم ورنر ويعيد إخراجها وإصدارها.

والمثال الثالث على المعارضة الرهبانية لطغيان الاحتكارات، المثال الذي لفت انتباه وسائل الإعلام إلى حدٍ كبير، هو عمل المنتج السينمائي الثائر مايكل مور. لقد بدأ مور مهنته في ١٩٧٦ بجريدةٍ بديلة في فلنت، ميشيغان، التي أدارها لعشر سنوات بينما كان يستضيف عرضاً إذاعياً أسبوعياً، "إذاعة فلِنت الحرة". كل ذلك كان مضاداً لكسب النقود ولم يستلم أي راتبٍ أكثر من خمسة عشر ألف دولار سنوياً. وقد أنتج فيلماً في أواخر الثمانينيات لم يكلفه الكثير، عن إغلاق جنرال موتورز لمصانعها في فلنت وطردها ثلاثين ألف عامل من عملهم ـ ٢١ ٪ من عدد السكان في فلنت ـ في وقتٍ كانت أرباح الشركة مرتفعة. وعندما انهارت البنية الاجتماعية للبلدة، وثق مور محاولته إحضار روجر سميث، المدير التنفيذي لجنرال موتورز، إلى فلنت ليرى آثار ما فعله. كان الفيلم الذي أخرجه في هذا الشأن في ١٩٨٩ بعنوان "روجر وأنا " قد حصد ٢٥ مليون دولار. لقد كان فيلماً وثائقياً رائعاً صور ما حدث للعمال عيانياً، وحصل على عدة جوائز قيمة. وفي أيام إنتاجه الأخيرة، عرض مور أن يبيع حقوقه في الفيلم بعشرة آلاف دولار لمحطة الإذاعة الأمريكية، فلم تقبل المحطة لأن الفيلم لم يكن "مضحكاً بشكلٍ كافٍ". في الحقيقة الفيلم مفعمٌ بالسرور الصاخب؛ وعند رؤية إمكانات الفيلم

الهائلة، اشترت شركة ورنر براذرز حقوق التوزيع بثلاث ملايين دولار وأنهى مور مهنته في مكتبٍ في زاوية بناية "ورنر براذارز" بجانب روكفيلر سينتر في نيو يورك.

عم يتكلم فيلم "روجر وأنا"؟ إنه قصة إنسانٍ ذو وزنٍ زائد. إنه غير جذّاب، ويحاول مقابلة رب صناعةٍ قوي يرتدي ثياباً فاخرة. وفي سياق هذه الرحلة الطويلة نراقب خدم الشركات الاحتكارية الخانعين ينقذون جلودهم بإجاباتهم الكاذبة والبيروقراطية، ونرى بلدة فلنت تتداعى، بينما يحاول عمال جنرال موتورز السابقون عمل أي شيء يستطيعونه ليظلوا أحياءً؛ ونراقب هؤلاء الناس يُخرَجون من بيوتهم خلال أسبوع أعياد الميلاد، بينما يقدم روجر سميث خطبةً دينية تشيد بالسلام على الأرض للمديرين التنفيذيين بجنرال موتورز والعمال الزملاء في حفلة أعياد الميلاد السنوية. وفوق هذا المشهد نرى سميث عالياً وقريباً عندما أفلح مور في مواجهته في اجتماع لمالكي الأسهم وطلب منه أن يزور فلنت. يجيبه سميث أنه ليس مهتما بزيارتها، وأنه عملياً لا يبالي بها ولا يريد أن يكون مسؤولاً عن أعماله. هذا هو خاتمة الفيلم حيث يستطيع المشاهد أن يرى هنا من هو غير الجذّاب بالحقيقة.

وفي السنتين أو الثلاث بعد فيلم "روجر وأنا " طردت جنرال موتورز أربعةً وسبعين ألفاً آخرين من عامليها. كان سؤال مور في مقابلاته العامة: "ما الفرق بين الإرهاب الذي حصل في تفجير أوكلاهوما سيتي في ١٩٩٥ والإرهاب الذي مارسته جنرا ل موتورز في فلينت؟" ويضيف: "لماذا لا نسمح لهذه الشركة ببيع الكراك هيروين، حيث أنها تستطيع أن تدمر مجتمعاتٍ بأكملها بشكلٍ فعال مثلما يدمرها

الهيروين؟ وفي فيلمٍ لاحق في ١٩٩٨ عنوانه "الكبير" يقابل مور المدير التنفيذي لشركة نايك، فيل نايت، الذي يعترف بتشغيل أطفال بعمر أربعة عشر عاماً في معامل الشركة في إندونيسيا. ويكشف أنه غير راغبٍ في مساعدة أحد ؛ وأن حياته كلها عن النقود والقوة. فبالنسبة لوجهة نظرٍ رهبانية، من المهم للجمهور الأمريكي أن يرى نهاية مثل هؤلاء الناس.

ماذا عن مور؟ هل أفسده النجاح؟ بالتأكيد للنجاح إمكانية الإفساد ـ فيلم "الكبير" توزعه ميراماكس ـ ويبدو لي أنه يجب أن يحرص ألا يتحول هو إلى سلعة "بديلة". ولكن حتى الآن سجله جيد. لقد قدم "مركز وسائل الاتصال البديلة" الدعم المالي لمنتجي السينما المستقلين وللقضايا الاجتماعية الليبرالية الحرة. وقد قاوم محاولات "ورنر براذارز" دفعه لإنتاج أفلامٍ تجارية مبتذلة؛ وهو يخرج دفتر شيكاته من جيبه ويعطي النقود للمنتجين السينمائيين الأغرار عندما تحين الفرصة. ويأتي كره الأغنياء وتجنبهم له في صالحه . وقد مُنِعَ برنامجه التلفزيوني " أمة التي. في." الذي استمر في العرض فصلين قصيرين، من البث على الهواء. ويعتبر مور أن هذا المنع وسام شرفٍ، قائلاً إن هذا الرفض هو دليل على أن عمله جيد. وبالفعل، عندما يُرفَض المرء من قبل رجالٍ مثل روجر سميث وفيل نايت، فهو شخصٌ رهباني جديد (إن لم يكن ببساطةٍ أكبر، إنساناً خلوقاً مهذباً). وعندما سألته نيوزويك إذا كان يعتقد بوجود خياراتٍ واقعية للتغيير قال إن فرص التغيير ليست كبيرةً، ولكن التحدي هو أن نطوِّر نظاماً اقتصادياً ديمقراطياً. وتابع : " لا يسمى هذا النظام رأسمالية ولا اشتراكية. إنه

نظام عادل لكل واحد، من ناحية - كل واحد يحصل على قطعةٍ معقولةٍ من الكعكة - ومن الناحية الأخرى لا يخنق الإبداع، ويشجع الفرد على التفوق ويساعدنا جميعاً على التقدم كمجتمع. هذه هي المسألة ".

وكما هو واضح، لقد جُرِّبت هذه التجربة في القرن العشرين من قبل شخص رهباني جديد، عظيم ولكنه مغمور، يدعى خوزيه ماريا أريزماندي، الذي بدأ حياته كطالب لاهوت في إسبانيا. لقد كان صحفياً خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وعاد إلى دراسته بعد انتهائها. كان هدفه محاولة موازنة حاجات المجتمع مع حقوق الملكية الخاصة، وأن يجد طريقاً وسطاً بين الرأسمالية والاشتراكية. وقد عُيِّن في أبرشية مون دراغون في الباسك في ١٩٤١. وفي ١٩٥٦، وبعد سنواتٍ من التدريس والوعظ والدراسة الخاصة أقام مصنعاً مع خمسة رجال آخرين من القرية سمّي "ألغور"، يصنع سخّانات وطبّاخات بارافين. وأخيراً انتهى هذا بتأسيس بنك ادخار، مدرسة للتدريب، وسلسلةً من التعاونيات الصناعية، يملكها العمال كلها، وقد كان الفرق في رواتبهم بنسبة ٣ : ١. وفي ١٩٨٧ صار هناك أكثر من مئة تعاونية، وعشرين ألف عامل، وأصبح الفرق في الرواتب بنسبة ٦ : ١، وهذا فرق متميز في عالم الاحتكارات حيث تصل نسبة الفرق في الرواتب إلى ٤٠٠ : ١ أو أكثر.

ويتبع التعاونيون مبدأ "العامودية " عندما يتعلق الأمر بالخبرة، لكنهم يتبعون نظاماً أو تركيباً سياسياً أفقياً يعتمد على شخصٍ واحد، صوتٍ واحد. وعلى الرغم من الإضراب الذي حدث في ١٩٧٤، فإن تجربة موندراغون كانت ناجحةً جداً. وفي ١٩٨٦، عندما زادت البطالة في منطقة الباسك على ٢٥ ٪، أضاف تعاونيو موندراغون خمسمئة وظيفة جديدة إلى قواهم العاملة.

كان يبدو إيرزماندي تقريباً بدون "أنا " (لم يكن أنانياً أبداً)، وكان يرفض محاولات تحويله إلى قديس على الطراز المعاصر. لقد ظل خارج الأحزاب عمداً في ١٩٧٤ لكي لا يؤثر على المفاوضات بفعل سمعته، وقاوم محاولات تكريمه ومحاولات "شخصنة " الحركة التي أسسها. وكان، بكلمات واحد من كتاب سير الحياة الذاتية: " يبدي حساسيةً شديدةً من كل الكلمات التي تنتهي ب آي. إس. إم (إيزم ism (بما فيها التعاونية". لقد كتب إيرزماندي أن "ال ' إزمز تسجننا وتقهرنا" وقال : " يجب على المرء أن يجدد نفسه كي يعيش ".

طبعاً لا يترك الناس الأمور تجري وحدها. فقد وصل إلى موندراغون العديد من علماء الاجتماع الأمريكان ليأخذوا تجربة موندراغون مقطرةً، لكنهم فشلوا. وعندما توفي دون خوزيه، برزت الإيقونات واللوحات المنقوشة للذكرى في كل مكان، وتبع ذلك سير ذاتية للقديسين كأمرٍ طبيعي في مثل هذه المناسبة . كان إيرزماندي سيحزن على ذلك ويستنكره لأنه يمثل نقيض ما يؤمن به. كان مغرماً بالقول "نحن نشق الطريق أثناء السفر" وهو بيتٌ مقتبسٌ من الشاعر الإسباني أنتونيو ماكادو.

وهناك ساحةٌ ممكنةٌ ثانية للنشاط الرهباني هي ساحة التعليم البديل، ولكن ليكون واضحاً أنني لا أقصد نوع التعليم الذي كان سائداً في الستينيات والسبعينيات المصمم ليتحرر من المناهج التقليدية. وكما لاحظت من قبل، فإن نموذج كاليفورنيا " برنامج اصنع درجتك العلمية " قد أثبت أنه ليس إلا أكثر قليلاً من نكتة. كان هذا البرنامج يمنح الدرجات من أجل الأهواء الخاصة، والأيديولوجيات السائدة، وغالباً

يشجع التعليم عن بعد (عن طريق الحاسوب) الذي يتلاءم مع الاقتصاد الكوني الجديد و "العولمة" إن هذا هو التعليم الاستهلاكي بأبشع صوره. إنني أشير، بدلاً عن هذا التعليم الاستهلاكي، إلى التجارب التي تحاول الاحتفاظ بتقاليد التنوير لعصر النهضة، ولا تهملها (الشيء الذي تقوم به المؤسسات التعليمة المذكورة سابقاً).

إن التجربة المثيرة للاهتمام في التعليم البديل هي برنامج أو دورة كليمنت في العلوم الإنسانية الذي أسسه إيرل شوريس في عام ١٩٩٤، وقد وصفه شوريس في مجلة "هاربر" في أيلول ١٩٩٧ وفي كتابه "نيو أمريكان بلوز": " المشروع كله عبارة عن جوهرة من التهديم الرهباني، والذي هو وقفةٌ شجاعة مع تقاليد عصر التنوير ضد حضارة الفقر التي دمرت الطبقات الدنيا". لقد كان شوريس يؤلف كتاباً عن الفقر، وتوصل إلى نتيجةٍ هي أن تقارب قوى عديدة ـ الجوع والمخدرات وأصحاب العقارات والشرطة. .الخ ـ حصر الفقراء في نوعٍ من المجال النفسي السلبي، "محيط من القوة" لا يستطيعون الهروب منه، شبيه بالضباب الذي أشرت إليه عندما تكلمت عن المدرسة الخيرية في واشنطن دي. سي. لقد منعهم هذا من الاهتمام بالسياسة، لذلك لم يكن لديهم أي طريقة للمقاومة. وقد اقترح واحد من نزلاء السجن على شوريس أن طريق الفقراء الوحيدة للخلاص التي يجب عليهم أن يتعلموها هي "الحياة الأخلاقية لوسط المدينة" ـ هذا يعني عالم الإنسانيات، لأن هذا هو المكان الذي يتعلم الناس فيه كيف يفكرون.

لقد أضاءت هذه الملاحظة مصباحاً أمام عيني شوريس، أعطاه فكرة ابتكار منهاج تجريبي في الإنسانيات للطبقة السفلى المسحوقة ـ منهاج

مبني على برنامج جامعة شيكاغو "كتب عظيمة" الذي كان روبرت مينارد هاتشينز رائده قبل عقود. ولكي يتأهل الشخص لدورة شوريس هذه عليه أن يستطيع قراءة جريدة تابلويد وعنده دخل منزلي أقل من ١٥٠ ٪ من عتبة (حد) الفقر الرسمية التي أقرها مكتب الإحصاء. إن الدورة ستزود الطلاب بأجور الباص وقطار الأنفاق. ومن أجل إيجاد الطلاب لهذه الدورة التعليمية، قام شوريس بإجراء مقابلات للمرشحين في منازل عديدة في نيو يورك، معظمها للسود واللاتين، الذين لم يرد بعضهم أن يسلم عليه، وكانوا كثيبي المنظر وحذرين. كان طرحه على الشكل التالي: "لقد خُدعتم. الأغنياء يتعلمون الإنسانيات. الفقراء لايتعلمونها". إن دراسة الإنسانيات هي طريقة لأن يتعلم الإنسان التفكير في العالم، إنها طريقة للدخول إلى عالم السياسة والحصول على القوة. وقال شوريس إن هذا هو الفرق بين الذين يملكون والذين لا يملكون في هذا المجتمع. وبالتالي سمعه جمهوره والتحق بالمدرسة ثلاثون طالباً.

والأكثر من ذلك فإن شوريس كان فاشلاً جداً في جمع التبرعات لهذا المشروع. لقد جمع القليل فقط. ولكن عندما كان يشرح لجمهوره في محاضرة ألقاها في جامعة واشنطن في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٩٨، فإن معظم أعضاء المؤسسات الخيرية الذين كان يخاطبهم ضحكوا بشكلٍ هستيري. إن مثل هذا الرفض لمشروعه من قبل الجمهور مهم جداً، لأنه مؤشرٌ محتملٌ إلى أن الذي عرضه كان عملاً رهبانياً حقيقياً. إذا جذبت فكرتك دعماً مالياً من الاحتكارات، فأنت تقوم بشيء خاطئ إذن. ومثل بارساميان ومور، فقد انتهى شوريس إلى دفع معظم ما احتاجه مشروعه من جيبه الخاص.

على أية حال، لقد اشتمل فصل كليمنت الأول على أربعة معارضين سابقين لهذه الدورة وثلاث أشخاص دون مأوىً ومدمن مخدرات وشخصٍ كان يموت بالأيدز. وكما عبر شوريس عن هذا ـ وعبر عنه ممثلو الاحتكارات الذين لم يقدموا له دعماً مالياً ـ " لماذا يطلب منهم (الطلاب) أن يهتموا بلوحةٍ إيطاليةٍ من القرن الرابع عشر أو جداول تبين بعض الحقائق أو موت سقراط؟ "

لكنهم اهتموا أخيراً. لقد ماثلوا أنفسهم مع قصة الكهف الرمزية لأفلاطون، ورأوا في الثقافة طريق النجاة. لقد قلقوا من جعل أثينا لسقراط ضحية. لقد اندهشوا من الأروقة المصرية في متحف الفن الميتروبوليتان. وبعد انتهاء كل حصة درسية، كانوا يتجمعون في مجموعاتٍ في الخارج، وعلى الرغم من البرد الشديد، ويناقشون بعض المسائل المتعلقة بالمنطق. لقد صعقتهم رسالة الأخلاق لنيوماكوس. لقد سقط منهم على الطريق نحو النصف ـ أربعة عشر من ثلاثين ـ بسبب الإيدز، والحمل، والاكتئاب، ومشاكل أخرى، وقد تابع الستة عشر الآخرون إلى آخر الشوط. وبعد سنة التحق أربعةٌ من هؤلاء بكلياتٍ مدتها أربع سنوات دراسية، أو ذهبوا إلى مدارس مهنية.

ومن المشجع أن نلاحظ أن وجهة نظر شوريس في السياسة هي أنها تساء قيادتها. وكما يكتب في كتابه "نيو أمريكان بلوز"أن التقسيم الحقيقي للتعليم هو تعليم يقوده السوق" (تسيطر عليه الحضارة التجارية الاستهلاكية للاحتكارات)، ويقول: " ستظل العلوم الإنسانية واقعةً تحت تأثير ما عمله رجال أوروبا البيض الذين قضوا لأنهم كانوا يخلقون المشاكل للتاريخ، ويثيرون الثورات ويقومون بالاختراعات. لقد كانوا

القوة الدافعة للتغيير، والأعداء ـ الذين لا يمكن إخضاعهم ـ للصمت والركود الذين تموت البشرية فيهما. لا يوجد كمٌ عظيمٌ آخرٌ من العمل الذي يستدعي النقد وينكر الشعور بالوحشة إلى نفس الدرجة، ولا يوجد كمٌ عظيمٌ أخرٌ من العمل في كل تاريخ العالم قد توصل إلى إيجاد علمٍ للسياسة، مع مفهوم الاستقلال الذي لا يزال مفهوماً يثير الدهشة والعجب ".

هذا يذكرني بحادثة تتناغم مع التزامه. كنت أتكلم معه بعد محاضرته في جامعة واشنطن في ١٩٩٨، عندما اقترب منه رجلان في الثلاثين من العمر يرتديان ثياباً خاصة بـ "الغواتيماليين المحاربين من أجل الحرية" أو شيئاً شبيها

بذلك. قال له أحدهما: "لماذا تدرِّس الحضارة الغربية، التي هي حضارة اضطهاد وحروب؟ يجب أن تدرِّس علم قبائل الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين، الذي هو مسالمٌ وتحرري". أجابه شوريس إجابةً لطيفةً، وآمل أن تكون تحررية: " أنا لا أرى كيف يمكن أن يكون تعليم الناس كي يفكروا بحياتهم اضطهاداً "، ثم استدار ومشى.

وبعد نحو سنة، وقعت على مقطعٍ في كتاب ماكول المشهور "يجعلني أصيح متذمراً" ذكَّرني بتلك الحادثة السابقة. يوضح المقطع أن "الذكور البيض المتوفين" يظل لهم تأثير مركزي على حرية كل واحد، ويكذِّب فكرة أن دراسة الحضارة الغربية هي فقط للأثرياء. يصف ماكول، وهو صحفي أسود يعمل للواشنطن بوست، وقد سُجن ثلاث سنوات للقيام بجريمة سرقةٍ مسلحة ـ كيف أن مجموعة من نزلاء أحد السجون شكلوا فريق نقاش للحضارة الغربية :

"ناقشنا نظريات الفلاسفة الكبار: سبنوزا وكانت وهيجل وكيركغارد وسارتر من بين آخرين. لقد شرحنا الثنوية (الاعتقاد بالأب والإبن في المسيحية بالإضافة إلى المزدكية)، والاعتقاد بتعدد الآلهة، والوجودية، وناقشنا قضايا مثل : كيف يمكن أن تقدر الخير إلا بعد أن تعرف الشر؟ هل الجوهر يسبق الوجود؟ وأحياناً، خلال هذه الأحاديث، دُهشت بغرابة اللصوص السابقين، والمتاجرين بالمخدرات، والقتلة الواقفين في منتصف باحة السجن يناقشون أعقد القضايا الفلسفية في عصرنا".

ما الذي يمكن أن يدمر برنامج أو دورة كليمنت؟ للأسف، الذي يدمرها هو جعلها تخضع للمؤسسة الرسمية، الشيء الذي قطع شوطاً لا بأس به من أجل أن يتحقق. وبعد أن كان هذا البرنامج لا يستطيع الحصول على الدعم المالي، فإنه الآن يسحب دعماً مالياً من وزارة التعليم في الولايات المتحدة، ومن مؤسساتٍ خيرية مختلفة، ومن لجان الدولة الخاصة بالعلوم الإنسانية. ومنذ ذلك الحين أصبح هذا المشروع برنامجاً تديره كلية "بارد" ؛ وهناك سبعة برامج أو دورات في الولايات المتحدة الآن، وبإدارة بارد أيضاً ستوسع هذا البرنامج إلى خمسين موقعاً في الخمس سنوات القادمة، حيث سيضم فروعاً في كندا والمكسيك وفرنسا. الخوف الطبيعي هو أن مثل هذا النجاح يمكن أن يحوله إلى أداة يمارس بها ألعابه السحرية. حتى إنه طُلبَ من شوريس أن ينتج فيلماً سينمائياً عن هذا البرنامج ـ محتمل جداً أن يكون على غرار أفلام مثل " للسيد مع الحب" أو فيلم ميتشل بليفر التافه "العقول الخطرة" ؛ وللحق أن شوريس رفض الفكرة.

وهناك تجربة رهبانية أخرى في التعليم البديل هي مشروع نورث كارولاينا "الأيبيسيديريان" الذي زوَّد الأطفال المعدمين برعاية تعليمية راقية منذ الولادة حتى عمر الخامسة. وبمعارضته للتوقعات التشاؤمية لكتاب التسعينيات المشين "منحنى الجرس" استطاع المشروع "الإيبسيديرياني" أن يجني مكاسب ثابتةً ومهمةً في مستويات الكفاءات الفردية. لكن هذه المكاسب هي بالحقيقة أعراض شيء أكثر أهميةً، إنها استجابةٌ اجتماعية تتطور عند الأطفال بحيث تصبح أفقاً عالي الجودة يمكنهم من استيعاب المعلومات من الكبار.

والمشروع الشبيه به هو مشروع التعليم الذي يبدأ في سن ما قبل المدرسة واسمه " ميشيغان هاي سكوب باري" الذي تابع ستين طفلاً من فقراء السود كانوا قد تعلموا علماً راقياً في سن ثلاث سنوات وأربع سنوات، إلى سن السابعة والعشرين. تبين من هذه المتابعة أن ٧ ٪ من هؤلاء قد قبض عليهم من قبل الشرطة خمس أو ست مرات، بالمقارنة مع ٣٥ ٪ لمجموعة ضبط (دراسة أخرى لمجموعة من الطلاب السود الفقراء)؛ فإن مجموعة الـ ٧ ٪ هذه صار لديهم دخل يمكّنهم من الحياة الشريفة، وقد استطاعوا شراء منازل معقولة، ولم يعيشوا على برامج الرعاية الاجتماعية، وكان زواجهم مستقراً..ألخ.

طبعاً إن " فتح نافذةٍ في أفق الطفل حتى سن الثالثة يطل منها على المستقبل" نال تغطيةً إعلاميةً واسعةً في ١٩٩٧، وقد اشتملت هذه التغطية على عددٍ خاص في مجلة النيوزويك مكرسٍ لهذا الموضوع، وعلى برنامج تليفيزيونيٍ لمدة ساعة يظهر هيلاري وبل كلينتون. كان كل ذلك عبارةً عن غثاء، وقد تلاشى بسرعةٍ من دائرة الاهتمام العام مع

انتقال وسائل الإعلام للتركيز على الموضوع الساخن اللاحق. ولكن على الرغم من ضجة وسائل الإعلام فإن تجارب مثل هاي سكوب والإيبسسيداريان يمكن أن تستمر، لأن حجر الرحى هنا هو المعلم المؤهل الذي يعمل مع الطفل على مبدأ واحد لواحد منذ عمر الثلاث سنوات أو أقل. وهكذا يصبح الطفل منفتحاً على الحياة والتعليم، ولا يجد نفسه محبوساً، كما يقول شوريس، في محيطٍ من القوة المسيطرة، ثم يخرج كإمكانية حقيقية.

ولننتقل إلى التعليم الثانوي، فيمكن القول إن المثال البارز للنشاط الرهباني هو مشروع مدرس التاريخ ول فيتجو، الذي بدأ في ١٩٨٧ بمجلةٍ راقية لحلقات البحث التاريخية التي يكتبها طلاب المدارس الثانوية من كل أنحاء العالم. إن لمجلة "ذا كونكورد ريفيو" هذه إحساس مرهف بما تكتبه : موضوعاتٌ متنوعة بدءاً بـ "الإلجن ماربلز" إلى "ماي لي ماساكر" ؛ كتابتها راقية جداً، وقد بدأ مدرسو مدارس ثانوية آخرون باستعمال مقالاتها كأمثلة تعليمية في فصولهم. وقد صرف فيتجو ثمانين ألف دولار، مدخراته طوال حياته، لتطوير مجلته وجعلها راقيةً، بينما رفضت معظم الجمعيات والمؤسسات الخيرية طلبه للدعم المالي على أساس أن مجلته "نخبوية" لأنها تقبل فقط أفضل الأعمال. (كيف يمكن أن نفهم احتفالات الأمريكان بالامتياز في الرياضة، بينما يعتبرون الامتياز في التعليم والبحث العلمي نخبويا ؟).

وفي الحقيقة، إن معيار فيتجو الوحيد في النشر هو الجودة، وهو لا يخاف أن يرفض نشر أعمالٍ صحيحة سياسياً إذا كانت درجةً ثانية. في ١٩٩٣، ومرةً ثانية في ١٩٩٥ كان عليه أن يعلق النشر لحاجته !! !!

لكن المجلة نجحت في ما بعد، وقد تسلم خمسة وثمانين ألف دولار كتبرعات من جمعية "أرغوس " الخيرية. ومع العلم أن مجلةً "نخبوية" واحدةً يمكن أن تحصل على دعمٍ مالي متواضع، لكنها ترسل رسالةً إلى العديد من الطلاب تقول لهم إن الإنجاز الدراسي جيد، وأنه أيضاً شيء جيد أن يحوز المرء على ملكة فكريةٍ ويمارسها. وكما بينت مقالةٌ في البوسطن غلوب في ٢٠ ك. أول ١٩٩٢، أن مجلة فيتجو تشجع المراهقين على التعب على أنفسهم. لقد اخترقت أخلاقيات المدرسة الثانوية الأمريكية "الأبكم أو المغفَّل لا يهتم"، ربما لأنها المجلة التاريخية الوحيدة في العالم المكرسة للعمل الأكاديمي لطلاب المدارس الثانوية. إن المقالات ليست فقط مجرد مقالات طلابيةٍ ؛ إنها تنبض بالحياة، وتعكس عاطفة كتابها نحو موضوعاتهم . ومع أن "الكونكورد ريفيو" هوجمت من قبل بعض الباحثين، فإن العدد الكلي للمشتركين بها بلغ نحو خمسمئة ـ وهو رقم رهباني جيد.

وبالطبع لم يفلت الخواء الفكري للمدرسة الثانوية الأمريكية من ملاحظة العديد من الآباء والأمهات والمراهقين، وهناك الآن حركة شبه مؤسسية سرية تعرف بـ "التعليم المنزلي" والتي هي واسعة الانتشار، حيث تضم من سبعمئة ألف إلى مليون ومئتي ألف طفل في الولايات المتحدة. وأنا آسف للقول إن قسماً منها يدعمه الأصوليون المسيحيون الذين لا يريدون أطفالهم أن يتعرضوا لداروين ولا لأي شيء يتعارض مع معتقداتهم. ولكن هناك نسبة كبيرة من الآباء الداعمين لهذه المدارس هم آباء رهبانيون من أجل أطفالهم : هم لا يستطيعون إرسال أطفالهم إلى المدارس الخاصة، ولكنهم يدركون أن المدارس العامة تبدأ من غير

المفيد وتنتهي بالشيء الخطير (أي أنها تدرس كل شيء بدون استثناء أو تأثر بمعتقداتٍ ما أو وجهات نظر معينة). وقد كشفت دراسة في ١٩٩٨ تناولت عشرين ألف طفل في التعليم المنزلي أنهم يتعلمون بشكلٍ أفضل من طلاب المدارس العامة والخاصة، من خلال نتائجهم في الاختبارات القياسية العامة، وأن ٢٥ ٪ منهم على الأقل، يدرسون في صفٍ أو صفين أعلى من الصف المعروف لمثل أعمارهم. يمكن وجود بعض المثالب في مثل هذه الدراسة، لأن الخلفية الأسرية هنا يمكن أن تكون عاملاً مهماً، فهي يمكن أن تتضمن درجةً أعلى من التعليم عند آباء الأطفال في التعليم المنزلي. إلا أنه من المفيد ملاحظة أن الكثيرين من الكبار المتعلمين تعليماً جيداً يرون في التعليم المنزلي أفضل طريقةٍ لتعليم أبنائهم.

إن معرفتي الخاصة بالتعليم المنزلي، إذا استطعت أن أشدّد قليلاً، هي حركة شخصية وليست مؤسسية. قبل عدة سنوات تلقيت مكالمةً هاتفيةً غير متوقعة من امرأة أرادت أن أعطي ابنتها سارة التي عمرها ثلاث عشرة سنة دروساً في الفلسفة والأدب. تبين أنه كان لدى سارة معرفة سابقة، كونها قد تلقت دروساً من أمها حتى ذلك التاريخ، وهكذا فقد تجنبت مطبّات التعليم في المدارس العامة.

بدأت معها ببعض القصائد لكيتس مثل "عند النظر لأول مرة إلى هوميروس تشابمان" و "أبو بين أدهيم" لـ لي هانت. وقرأنا سارة وأنا، جنباً إلى جنب، "مينو" لأفلاطون، ثم ناقشنا طبيعة المعرفة، ومن أين أتت. وفي مناسبةٍ أخرى طلبت منها أن تحفظ عن ظهر قلب قصيدة "جابروكي" لـ لويس كارول، وأن تكتب مقالاً عن "لماذا أحب جورج جيرشوين".

قلت ذات يوم ٍ لسارة: " مضى على قراءتنا لليونانيين بضع أسابيع الآن ؛ دعينا ننظر إلى لغتهم ". أخذت جملةً من كتاب باتريشا ستوريس "غداء مع بيرسيفون" تقتبس باتريشا سطراً. قلت لسارة " تعرفين فعلياً بعض هذه الكلمات. لنبدأ بكلمة أركهي، هل تستطيعين التفكير بكلمة إنكليزية مشابهة؟ " قالت : "آرك"، قلت : " هذا صحيح" " أي شيء آخر؟ " قالت : "آركيولوجي" (علم الآثار) قلت : " علامةٌ كاملة "، "أركهي" تعني يبدأ الكلمة عن الأصول". "حسناً "، قالت مفكرةً "الخرافة موجودة ". قلت: " صحيح. ماذا عن بارا؟ " أجابت : "بارا ليغل" قلت "أكيد، وتعني مثل القانوني، شبيه بالقانوني". ما هو مثل الخرافة إذن؟" لم تكن سارة متأكدة. قلت: " قصة خرافية ". "أوه " تلك النظرة من التمييز المفاجئ التي رأيتها في عينيها بين وقتٍ وآخر " و " سبيرا" هي جذر الكلمة الإنكليزية "فيسبرز"(الصلاة المسائية في الكنيسة). لذلك تقرأ العبارة على الشكل الآتي : " تبدأ القصة الخرافية بـ مساء الخير ".

لقد غادرت سارة ذلك اليوم معتقدةً أن اليونانية يمكن ألا تكون لغةً صعبةً للتعلم. هكذا، أعتقد، هو كيف ننقل التقليد ونمرره للمستقبل، وهذا لا يتطلب مؤسسةً للقيام به.

وكمثالٍ أخير على النشاط الرهباني لنأخذ حالة أولغا بلوم، عازفة الكمان المتقاعدة التي رهنت بيتها في ١٩٧٤ لتشتري بارجة قهوة (سفينة لنقل القهوة) قديمة وتحولها إلى قاعة موسيقية عائمة. عندما رأى مراقبو الشاطئ الطويل على الحد الأمامي المائي في بروكلين امرأةً صغيرةً تنشر الخشب وتفركه، بدأوا بمساعدتها. كانت النتيجة أنها استطاعت بناء فسحةٍ خشبية في البارجة القديمة لا بأس بها لسماع

الموسيقى. لقد أحب موسيقيو الصالات المغلقة العزف عليها (مرتين في الأسبوع على مدار السنة)، وأحب الجمهور التذاكر الرخيصة والجو العام الأنيس. يجلس المرء في قاعةٍ مصفحةٍ بألواحٍ خشبيةٍ، ينظر إلى الخارج، إلى المناظر الطبيعية عند خط الأفق في مانهاتن من خلال النوافذ. لقد سمي المشروع "موسيقى البارجة" وقد أثار نهضةً ثقافيةً في المنطقة، وهي نهضةٌ مستمرةٌ حتى اليوم.

لقد أتت دوافع السيدة بلوم للقيام بهذا المشروع من حقيقة أننا نعيش في بلدٍ لا قيمة للفنون ولا للإبداع فيه. هذا البلد يحب "الرابحين" و"الأسماء الكبيرة"، لكن معظم الموسيقيين ليسوا في هذه الفئة. معظمهم لا يتمكنون من إشهار أنفسهم، أو استئجار مكانٍ ليعزفوا فيه؛ ومعظمهم ينتهي بالعزف في الأعراس والبارات، حتى ولو كانوا موسيقيين جيدين. وقد قررت بلوم أن توجد فسحةً حيث يستطيع هؤلاء الفنانون الابتعاد عن "الإنتاج الثقافي الجماهيري" للمجتمع الأمريكي، واستطاعت أن تساعد موسيقيين موهوبين لكنهم ليسوا مشهورين للقيام بعملٍ إبداعيٍ حقيقي. هي نفسها تعيش على برنامج الضمان الاجتماعي ولا تتقاضى أجراً على عملها. لقد قالت للنيويورك تايمز في سنة ١٩٨٥: " بالنسبة لي الموسيقى داخل الغرفة (وليس في الصالة الموسيقية الكبيرة) هي صورةٌ مصغرةٌ عن الحضارة ".

الفئة الثالثة والأخيرة للنشاط الرهباني هي مفهوم هندسة وتصميم البيئة. إنني لا أشير هنا إلى حركة المحافظة على البيئة الطبيعية وإنقاذ الأرض، بل إلى العمل الذي يحسن صحة المجتمع بتغيير الجو الفكري العام والأرضية التي نتحرك فيها. إن معظم مدننا هي أرض قاحلة

عيانياً وسيكولوجياً. وعندما لا تبدو مثل فلنت في ميشيغان (التي يبدو عليها منظر البؤس)، فإنها تتطور لتصبح مشابهةً لمدن الاحتكارات مثل دالاس وأتلانتا، حيث لا يوجد في هذه المدن أي مجتمع مدينة، ولا يوجد فيها روحٌ إنسانية ؛ توجد فقط محلات وواجهات دكاكين ومراكز مؤتمرات.

يقدم لنا تونيَ هيس في كتابه "تجربة المكان" مناقشةً حول الاستجابات الرهبانية الخلاقة لمثل هذا الشيء. فملاحظاته عن الإحساس بالهدوء، والإدراك الخارجي الواسع الامتداد الذي يمكن أن يخطر في بال المرء حتى في مكانٍ مثل "المحطة المركزية الكبيرة". إنه يتكلم عن رجالٍ مثل فريدريك لو أولمستد، رسام المناظر الطبيعية العبقري في القرن التاسع عشر، الذي صمم أمكنةً مثل "البروسبكت بارك" في بروكلين و"سنترال بارك " في مانهاتن. وبإحساسه الوجداني المتعلق بـ "مركز الموجة الواسعة للإدراك المتزامن" أبدع في تصميم حديقةٍ إثر حديقة شعوراً من الاسترخاء عند أولئك الذين يتمشون فيها. لقد اعتقد أولمستد أن البلد الديمقراطي يجب أن يتوفر فيه، " إعادة خلق غير مباشرة ولا واعية" كي يستطيع الاستمرار في الحياة، أماكنٌ يتم فيها التواصل الاجتماعي والنزعة إلى العيش في مجموعة، (وهو الميل الطبيعي عند الإنسان لأن يكون عضواً في مجموعةٍ من البشر). ويعتقد أن هذه الأمكنة يجب ألا تكون ملفتةً للنظر وألا يكون فيها أي مبالغة أو تبجح ؛ وأن تكون لا مركزيةً بدلاً من أن تكون مبنيةً على عناصر توحيدية ؛ وأن تتيح التواصل والاتصال دون أن تشيع جواً احتفالياً.

إن إعادة هندسة وتصميم المكان، طبعاً، يتطلب التنظيم والخبرة.

فبالنسبة للفسحة الداخلية، يقول هيس، على المرء أن ينتبه للإضاءة، والتكوين الكيميائي للهواء، ولترتيب الغرف والصالات والممرات. وهكذا يبدو أنه يفضل أن تقيم المدن الأمريكية " دوائر لحماية التجارب الفردية " واحتمال كبير أن يشابه المكان المعاد تصميمه، سواء أكان داخلياً (داخل الأبواب)، أم خارجياً (في الهواء الطلق) ديزني أكثر مما يشابه أولمستد. نستطيع أن نرى مثل هذا الشيء الآن في جنوب فرنسا، حيث ما كان سابقاً قرىً محليةً هادئةً وجذابةً بهيئتها القديمة، أصبحت، بعد أن غزتها المصالح الاحتكارية لقيمتها السياحية الممكنة، مجموعاتٍ من الدكاكين التي تظهر طابع القرون الوسطى وتبدو أنها مصفحةً مثل أبنيتها.

لكن المنتجات أو الأشياء التافهة على الرغم من شيوعها، والانحطاط البيئي يمكن أن يُعكسا. قبل عدة سنوات كتب وليام وايت أن التغيرات الصغيرة نسبياً في البيئة يمكن أن يكون لها آثاراً تراكمية. ففي الريف مثلاً، يمكن أن نرى" إزالةً جميلة المنظر لجزءٍ من الغابة للحصول على حقلٍ، وصفّاً من شجر الجميّز على طول ضفة نهر، وستاراً من اللافتات التي نُزعت عند قمة تلٍ ما ". ويلاحظ وايت أنه لو أخذت هذه المشاريع بشكلٍ فردي، يمكن أن تبدو غير ذات أهميةٍ، لكنها لو أخذت كمجموعةٍ مع بعضها " فهذه الأشياء التافهة يمكن أن يكون لها آثاراً كبيرةً على البيئة". كل هذا ليس موقفاً يتعامل مع المسألة على أساس " تكنيس أو إزالة واسعة للتصميم الطبيعي لمنطقة ما"، ولكن عند وضع هذه الأشياء مع بعضها، تتضح مجموعةٌ من الصور، ويدرك الناس أن هذا بالنسبة لهم هو التصميم الحقيقي لهذه المنطقة.

وفيما يلي مثال عن جهد شخص واحد في إعادة تصميم البيئة، هذا الشخص هو وليام توماس، طبيب في ولاية نيويورك. عندما أصبح مديراً لمأوىً للعجزة اسمه " تشيس ميموريال نارسينك هوم" في ١٩٩٣، أدرك لماذا يفضل الناس أن يموتوا على أن يلتحقوا بمثل هذه المؤسسة : إنها أماكن مقفرة، مقطوعة عن كل علاقات الحياة الاجتماعية. فالتغيرات التي أجراها توماس كانت بيئيةً، وقد قلل بهذا من المرضى، ومن استعمال الأدوية بنسبة ٥٠٪ ومن معدل الموت بنسبة ٢٥ ٪. وقد خرق قانون ولاية نيويورك بجلبه لـ ١٣٧ كلباً وقطةً وطيراً وأرنباً، محولاً المكان إلى معرضٍ للحيوانات. وقد ملأ الغرف أيضاً بالنباتات، وحول مساحات الأرض الصغيرة المزروعة بالعشب إلى حدائق خضروات. وأخيراً أقام مركز رعاية أطفال في هذا المأوى ورتب أن يقضي الأطفال الكبار أوقات ما بعد الظهر مع الكبار. وباختصار، خلق عالماً مزدهراً لمرضاه. وقد ازدهر مرضاه بالنتيجة (المفتشون المحليون، بالمناسبة، يجب أن يكافؤوا بأن يكونوا أشخاصاً رهبانيين جدد : مدركين أن توماس كان يخرق كل الأنظمة، وهم ببساطة نظروا إلى الجهة الأخرى).

لقد تكلم توماس عن تجربته هذه في مجلة "الحياةُ جديرةٌ بأن نحياها"، المنشورة في ١٩٩٦. وقد وقّع الحاكم باتاكي في السنة الماضية قانوناً جديداً يسمح باقتناء أكثر من حيوانٍ أليف للشخص الواحد في مأوى العجزة.

إن عمل وليام توماس، بمعنى من المعاني، هو عمل إصلاحي، أو عملٌ للذين في المؤخرة (بالمقارنة مع الطليعة). إن النتائج الجانبية الحتمية لمجتمع الاحتكارات الاستهلاكي تشتمل على الشعور القاتل

بالوحشة والعزلة والاغتراب والضجر وجدب البيئة. والمجتمع الصحي لا يحتاج إلى وليام توماس في المقام الأول، وعمله ـ أكثر من مئتي مأوى عجزة تبنوا ما قام به وطبقوه ـ سوف لا يغير بنية مجتمعنا. بالإضافة إلى أن هناك دائماً إمكانية أن يجيَّر مثل هذا العمل لصالح نجمٍ ما، ككل شيء أخر في أمريكا.

وكما أكدت في كتاب "أرض الإعلان التجاري المطول" أن النجاح يقتل، وأن توماس نفسه لاحظ هذا الخطر. إلا أنه، وبغض النظر عن كل هذا، إن "بديل عدن" كما يعرف مشروعه، هو مثال بارز للنشاط الرهباني. وفي المطاف الأخير فإن " سنترال بارك" و "فريدريك لو أولمستد" لم يوقفا قوة الاحتكارات الماحقة ؛ لكن ما يفعله مثل هذا العمل هو أنه ينقل أثراً للذكرى، أثراً لما يمكن أن تكون الحضارة عليه، ويشير إلى أن التصميم البيئي يمكن أن يعاون هذه الحضارة. أين يمكن أن يقودنا هذا بعد مئة سنة؟ لا أحد يعلم.

وهكذا، هذا هو العالم المصغر ؛ أمثلة محددة عما يمكن أن يكون عليه الخيار الرهباني. نستطيع أن نضمنه تقاليداً من الصنعة والرعاية وتماسك الشخصية ؛ ومحاربة قوى الانحطاط البيئي وعدم المساواة الاجتماعية ؛ وتقييم الإنجاز الفردي والفكر المستقل.. إلخ. لكن الشيء المركزي لكل هذه الأمثلة هو رفض الحياة القائمة على الأمور التافهة على الرغم من شيوعها، وعلى أسلوب الحياة الاستهلاكية، وعلى الربح والقوة والشهرة والمصالح الأنانية. إن الخيار الرهباني، كما أشرت من قبل، وبغض النظر عما يمكن أن يقود إليه بالاعتبارات التاريخية، يجب أن يكون الآن أسلوب حياة. إن الشخص الرهباني الجديد يدرك أنه يجب

ألا يُغلّف من قبل "الماك ورلد" (عالم الاحتكارات)، من قبل "جلد" مجتمع ٍ يتفكك، يهجر قيمه ويستبدل إرثنا الحضاري بالإعلانات التجارية المطولة وبالتسويق. بدلاً عن ذلك، تستطيع أن تختار أسلوب حياةٍ تصبح هي نفسها الدير الخاص بها، وأن تحفظ كنوز موروثنا لنفسك، وآمل، للأجيال القادمة أيضاً.

وكما قلت، يجب أن تتجنب فكرة ' أن نعمل كي يرى الآخرون ؛ بل إن نشاطك سيظل ذا مصداقية لكونه مكافأة نفسه لنفسه. كان بإمكاني أن آخذ أشخاصاً مشهورين كأمثلةٍ للخيار الرهباني ـ أشخاص مثل ناعوم تشومسكي، الذي سمّي " ضمير الأمة" أو "هاريت دووير" التي كتبت روايتها الأولى في عمر الثلاث والسبعين سنة (حجارة لإيبارة) والتي ربحت الجائزة القومية للكتاب. بالتأكيد يوجد مثل هؤلاء الناس حولنا، وأنا شخصياً أحبهم ـ وأعتقد أنهم أسطوريون، لأنهم يبعدون سنين ضوئية عن أسلوب الحياة الاستهلاكية التجارية والمصالح الأنانية. ولكن لو ركّزت على مثل هؤلاء الأشخاص، لخاطرت بأن يُنظر إلي كشخص ٍ يعزز حضارة البطل، التي هي جزء من المنظر العام المجدب الذي نعيش فيه ؛ إنه مثل القول إن الأشياء ليست سيئة جداً بالنسبة للفقراء لأنهم يمكن أن يربحوا اليانصيب، أو القول إن لدينا حضارةً نابضةً بالحياة لأن لدينا حفنةً صغيرةً من الفنانين والمفكرين العظام.

لأنني، قبل كل شيء، أخشى إمكانية سوء القيادة، أخشى من إعطاء الانطباع بأن العظماء فقط يمكن أن يكونوا مؤهلين لأن يكونوا بدواً رُحّلاً، أشخاصاً رهبانيين جدد، بينما العكس تماماً هو الصحيح. أنت وأنا يمكن أن نعيش الحياة الرهبانية، ويمكننا أن نبدأها الآن. ولا

تقلق على أن تُهمَّشَ ؛ هذا جيد. وكما يقول دون ليلو، في حضارةٍ مثل حضارتنا، إن الكاتب مثلاً، يمكن أن يكون مهماً أكثر عندما يكون هامشياً. وهو يقترح " في النهاية، يكتب الكتاب لا ليكونوا أبطالاً منبوذين لحضارةٍ في الظل، ولكن أساساً لينقذوا أنفسهم، ليظلوا أحياءً كأفراد". نفس الشيء يمكن أن يقال عن كل النشاطات الرهبانية، وعن الناس الذين يقومون بها.

وهكذا، حتى الآن، لقد أعطيت القارئ تحليلاً مصغراً للخيار الرهباني بتقديم بعض الأمثلة على التفاؤل الواقعي، النشاط الشعبي، أو النشاط على مستوى الشارع، الذي يمكن ألا يؤدي إلى تحولٍ حضاري ٍبعد عشرة أو عشرين عقداً من الآن. أريد أن أختم هذا الكتاب بتحليلٍ مكبرٍ، بفحصٍ لما يمكن أن يكون عليه العالم الذي تحول أو تغير، وكيف أن الدورة القادمة للنهضة ـ فجر حضارةٍ أمريكيةٍ جديدةٍ ـ يمكن أن يكون جزءاً من تلك الصورة الأكبر.

الجزء الخامس

وجهات نظر بديلة

هناك خيارات حقيقية في أي لحظة من التاريخ.. " كيف نستطيع أن نفسر ما حدث ولماذا" إذا نظرنا فقط إلى ما حدث، ولم نفكر بالبدائل.. إنه فقط عندما نضع أنفسنا أمام خيارات الماضي.. .فقط عندما نعيش للحظة، كما عاش رجال ذلك العصر، في إطاره الذي لا يزال مائعاً وبين مشكلاته التي لا تزال دون حل.. نستطيع أن نستنتج الدروس المفيدة من التاريخ.

هغ تريفور روبر من "التاريخ والخيال"

قبل أن أناقش الأشكال الاجتماعية الممكنة للقرن الثاني والعشرين، والنهضة الحضارية التي يمكن أن تصاحبها، من المفيد تلخيص ما وصلنا إليه حتى الآن في نقاشنا. لقد بدأت هذا الكتاب بالقول إن الحضارة الأمريكية، على عكس المظاهر الاقتصادية والتكنولوجية، هي في فترة انحطاطها، تسرع الخطا نحو نقطة الإفلاس الاجتماعي والحضاري. لم تكن الهوة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء أعمق مما هي الآن ؛ قدرتنا بعيدة المدى على تمويل البرامج الاجتماعية

الأساسية هي في موضع تساؤل متزايد ؛ ومستوى الجهل والأمية الوظيفية في هذا البلد عاليةٌ جداً لدرجةٍ جعلتنا نكتةً أمام العالم ؛ وسُلبت حياتنا الفكرية من قبل الاحتكارات وعالمها ـ عالم القيم التجارية والاستهلاكية ـ كل ذلك حدث بشكلٍ تام تقريباً. إن الولايات المتحدة،التي هي نجمةٌ اقتصادية عظيمة، هي خربةٌ حضارية، هي إمبراطورية قفر.

لقد جادلت أيضاً أنه، بالتعابير التاريخية، ليس التسلسل الزمني جديداً. وببساطة لا يوجد استثناء للقاعدة القائلة إن كل الحضارات تتهاوى أخيراً، ونحن لا نستطيع تفادي السجل التاريخي. إن المقارنة مع روما مجفلةٌ : لقد شهدت العصور المتأخرة من الإمبراطورية الرومانية تمايزاً حاداً بين الأغنياء والفقراء، واختفاء الطبقة الوسطى ؛ وقد دفعتها تكاليف البيروقراطية والجيش نحو الإفلاس ؛ انتشرت الأمية وتبدد العلم الروماني إلى مايشبه تفكير العصر الحديث. وهكذا، فقد هبط على أوروبا عصرٌ مظلمٌ، وبشكلٍ متعمد أو لا، قام نظام الأديرة الجديد بعملية استبقاء، محتفظاً بسجلات العلم والثقافة الكلاسيكية حتى صارت النهضة الحضارية ممكنةً. وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر، أعيد اكتشاف المادة التي حفظها الرهبان في الأديرة، ثم عادت هذه المادة إلى الاتجاه الأوروبي السائد حيث أصبحت دم الحياة للتجديد الثقافي والحضاري. لقد رأينا أيضاً كيف أن بعض كتاب الخيال العلمي ـ ولاسيما ولتر ميللر وري براد باري ـ ميّزا هذه العملية كظاهرةٍ متذبذبة، واحتارا بطبيعة هذا النموذج التاريخي المتكرر الحدوث.

وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب، حاولت أن أحل هذا اللغز،

بشكلٍ محدود، مبنيٍ على مكوّنٍ ظل في إطار نهضةٍ حضارية - ولاسيما نهضة علمانية ومادية ' حضارة التنوير التي، في ظل التقدم الذي لا يهدأ للرأسمالية، تحولت إلى حضارة القرن العشرين التجارية الاستهلاكية بفعل سيطرة الاحتكارات. هذه هي الكيفية التي دخلنا فيها مرحلة العالم الأصغر، عالم الاحتكارات الذي هو، في نفس الوقت، فترة التألق الاقتصادي والتكنولوجي. لقد حلَّ في هذه الفترة ' الظل محل المادة بحيث أصبح نجاح النظام الرأسمالي عامةً هو فعلياً فشله، وحيث يدور التعليم والثقافة بشكلٍ عام في فلك القيم الاستهلاكية، وينحط هذا التعليم كجزءٍ من العملية العامة للعبادة الاستهلاكية السلعية (عبادة السلع الاستهلاكية).

وأخيراً تكلمت عن نسخةٍ معدلةٍ ممكنةٍ للخيارالرهباني، التي فيها نوع جديد من التنظيم الرهباني يقوم بنقدٍ لهذا المجتمع ويحفظ ونقل المظاهر الإيجابية للتنوير، ليس كحركةٍ سياسيةٍ، ولكن ببساطة، كأسلوب حياة. سواء أكنا نتكلم عن مايكل مور يقطع سفود عنف الجشع الرأسمالي المؤدب، أم إيرل شوريس يدرّس أفلاطون وأرسطو لنشّالين ونصّابين سابقين، أو أولغا بلوم تحضّر حفلاتٍ موسيقية داخل غرفةٍ على بارجةٍ في الإيست ريفر، لدينا أمثلةٌ من الناس الذين يغيّرون نوعية الحياة الأمريكية بهدوء، ليس كجزءٍ من حركةٍ سياسيةٍ ما أو مؤامرةٍ بحرية نصف مطبوخة، ولكن ببساطة لأنهم ملتزمون بهذا النشاط. هذا طبعاً ربما لا يغير الحياة الأمريكية فعلياً، لكنه يمكن أن يترك أثراً للذاكرة، جزءاً مما احتفظ به القلة للأجيال القادمة في أوقاتٍ ملائمةٍ أكثر. الزمن فقط سيخبرنا، لكننا في القرن الواحد والعشرين ومن المبكر جداً أن نخمِّن.

وكما يدرك القارئ، لقد حاولت أن أميِّز تحليلي الخاص عن الكتب ذات القصد الطيب التي تتنبأ بنتيجةٍ سريعةٍ نسبياً، أو تتوقع مداواةٍ لأمريكا يمكن أن تحدث دون ألم. هناك كتابٌ يعجبني حقيقةً لأنه ليس موسوساً فيما يتعلق بافتراض مجيء عصرٍ مظلم كشرطٍ ضروريٍ للتجديد الحضاري، هو كتاب يوتوبستكس لعمانوئيل ولرشتاين. إنه دراسةٌ فكريةٌ ترفض بوضوح التفكير الطوباوي. يقول: " لا يزال هناك شيء نحتاجه حقيقةً هو الرؤى الطوباوية ". وعادةً كلما عظم الطموح بنظامٍ اجتماعيٍ، كان الأذى الناتج أكبر، وولرشتاين ليس متأكداً من قدرة الإنسان على أن يتخذ قراراتٍ جماعيةٍ حكيمة. وقد كتب عمانوئيل كانت " لم يصنع أي شيء مستقيم أبداً من أضلاع الإنسانية المقوسة ". من هنا اهتمام ولرشتاين بالذي يسميه "يوتوبستكس" وهو التقييم الجاد للخيارات التاريخية، وممارسة تقديرنا للعقلية الملموسة للأنظمة التاريخية البديلة الممكنة.

إن مثل هذا "العلم" يحلل الضغوط على الأنظمة الاجتماعية للإنسان والمناطق المفتوحة أمام الإبداع الإنساني. هذا العلم يرفض أفكاراً مثل المستقبل التام و"الحتمي" ويقبل أفكاراً مثل المستقبل غير المؤكد بالضرورة، ولكن يأمل أن يكون مستقبلاً أفضل، وهو ممكن تاريخياً. يقول ولرشتاين: " إن الواضح بما يخص وضعنا الحالي أن العملية الجارية (للعولمة) هي المرحلة الأخيرة لنظامنا التاريخي الحالي (الرأسمالية)، وأننا ندخل عصراً مظلماً من الانتقال التاريخي".

ومقتفيا أثر التحليل "الموجي" للاقتصادي السوفيتي ن.د.كونتراديف، يتنبأ ولرشتاين أن أوائل القرن الواحد والعشرين

ستشهد انعطافاً باتجاه الأعلى، توسعاً جديداً للاقتصاد العالمي، وفرصاً جديدةً للاستثمار وتراكم رأس المال.وستتسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء أكثر، محدثةً استقطاباً أعظم بين القلب (المركز) والمحيط. ومع نمو أيديولوجية التراكم اللانهائي للرأسمال (التقدم)، ستنمو أيضاً عملية جعل هذه الأيديولوجية غير شرعية أو غير قانونية. وستتمكن بلدانٌ من حجم ٍ متوسط ـ العراق مثلاً ـ من تحدي بلدانٍ قوية في المركز بنجاح ؛ وفي الغرب نفسه، ستثير قلة الأعمال التي تمكّن الإنسان غير الأبيض من العيش بكرامة تهديداً متعاظماً مع تزايد عدد السكان الملونين. وسيصبح الأغنياء قلقين أكثر على سلامتهم الشخصية، كما يبدو في بلدان العالم الثالث الآن، وسيدخل النظام العالمي مرحلةً من الأزمات المستمرة وعدم الاستقرار. وسيكون هناك أخيراً محيط كبير حول المركز. الطبقة ذات الامتيازات وستحاول أن تبين أن هذه التحديات هي اختيارها بتجسيدها وتبنيها لما يريده الرافضون لهذا النظام الرأسمالي واستعمالها للغتهم ـ الاهتمام بالمحافظة على البيئة الطبيعية وعدم تدميرها، الإيمان بالتعددية الحضارية والثقافية، الإيمان والعمل على إحقاق حقوق المرأة ـ الذي كله سيعطي الانطباع أن هناك تغيراتٍ مهمة في النظام قادمةٌ على الطريق، بينما تظل العلاقات الأساسية بين الثروة والقوة نفس ما كانت عليه.

ولكن، في المطاف الأخير، لا يمكن تجنب مجيء الفترة المظلمة، فترة الانقطاع في النظام، لأنه لا يمكنه الاستمرار كما هو مكوَّن الآن ؛ إن الضغوط التي يقع تحتها كبيرةٌ جداً، وحتى إن الاختيار سيكون أخيراً غير مجدٍ . إن المحصلة النهائية لكل هذا لا يمكن التنبؤ بها. يمكن أن

يكون النظام اللاحق أفضل، ويمكن ألا يكون كذلك ؛ يمكن أن يكون أسوأ.

أنا شخصياً أعتقد أن النظام الجديد سيكون أفضل، لكن توقعي يعتمد ، من بين أشياء أخرى كثيرة، على المدى الذي ستصل إليه الأنشطة الرهبانية. مستوعباً لما تطرحه نظرية "الفوضى" فإن ولر شتاين لديه بعض الأشياء ليقولها عن العصر المظلم القادم الذي يتعشق بإحكام مع نظرية الخيار الرهباني. إنه يبين أن الفترات الانتقالية ليست أوقاتاً عادية. إنها أوقاتٌ يمكن أن يكون فيها للعمل الفردي تأثيرٌ كبير على التطورات التاريخية التي تحدث بشكلٍ عادي. في الأوقات المستقرة، حتى التقلبات الكبيرة يكون لها آثارٌ صغيرةٌ نسبياً (وهذا ما نعنيه بكلمة "نظام"). ولكن عندما تكون الأنظمة بعيدةً عن التوازن، الذي هو الاتجاه الذي نسير به الآن، فإنه يمكن أن يكون للتقلبات الصغيرة آثارٌ كبيرة. وباختصار، يصبح التنبؤ بدور الخيار الرهباني غير ممكن، واحتمال أن يدفع هذا الخيار النظام أثناء تداعيه وتفككه وبشكلٍ غير متعمد باتجاهٍ آخر. هذا برأيي ليست مسألةً بسيطةً تقوم بها إرادةٌ حرةٌ، لأن أساس البنيان يجب أن يوضع بطريقةٍ تراكميةٍ متطورةٍ لكي يكون هناك قوةٌ وراء دفع الخيار الرهباني باتجاه الإجهاز على هذا النظام القديم الذي يحتضر وبناء النظام الجديد مكانه. ويمكن أن يكون الدفع بالاتجاه المرغوب به مثيراً للدهشة عندما يحدث.

إن كل مسألة "اليوتوبستكس" التي هي التقديرات المتأنية للإمكانيات المستقبلية وللنشاط الرهباني كوسيطٍ لهذه التغيرات هي موضوع فيلم أنتجه منتجٌ سويسري اسمه ألين تانر في ١٩٧٦ بعنوان

"جون الذي سيبلغ الخامسة والعشرين في سنة ٢٠٠٠". تحدث القصة في جنيف وما حولها، حيث، كنتيجةٍ لستينيات القرن العشرين، يجتمع ثوريون من مختلف الآراء والأيديولوجيات من ما بعد الستينيات بشكلٍ غير متعمد، ويبذلون جهوداً غير ممنهجة، لخلق مجتمعٍ أفضل. الشيء المركزي في خلفية قصة الفيلم هو تمثال روسو في وسط جنيف، الذي يرمز إلى البحث عن بدائل لحياة القهر والاضطهاد في الحضارة التجارية.

يعمل مارسيل بالزراعة العضوية وقد نَذر نفسه للاهتمام بالبيئة. وأفلح ماكس، الماركسي الذي لا أوهام عنده، في الحصول على أخبار عن خطةٍ تطويرية يجري إعدادها من قبل البنوك الكبرى، وينصح صغار المالكين بألا يبيعوا ملكيتهم. وتحاول صديقته مادلين أن تتحدى مبدأ "الواقع" من خلال ممارستها لشكلٍ من أشكال الجنس، وتتقاضى ماري، المحاسبة على الصندوق في سوبر ماركت، من المتقاعدين المسنين أسعاراً أدنى لطعامهم. ويقوم ماثيو بمشروع تعليمٍ منزلي على شاكلة موديل مونتيسوري، بينما يلتزم ماركو، مدرس التاريخ للمرحلة الثانوية، بتقديم البدائل الرهبانية. يقول لطلابه إن التاريخ ليس ثابتاً، والبدائل ممكنةٌ دائماً. يطلب من ماري أن تأتي إلى الفصل وتصف حياة محاسبة الصندوق. ويطلب من ماثيو التكلم عن كيفية استغلال الأغنياء للاقتصاد من أجل مصلحتهم الخاصة. إنه يجادل بشكلٍ تشبيهيٍ أن التاريخ فيه ثقوب للدود يمكن رؤية أشكالٍ بديلة للمستقبل من خلالها، وأن نفس ثقوب الدود هذه التي تستعمل من قبل الأنبياء مثل روسو لرؤية المستقبل، تستعمل من قبل المؤرخين بعد قرون، في اتجاهٍ عكسي، لفهم الماضي.

كيف ينتهي الفيلم؟ يُطردُ ماركو من عمله لصراحته، وينتهي مغنياً أغنية "تشيري بلوسوم تايم" على مسامع مواطنين مسنين في مأوى للمسنين. ويُقبض على ماري لأنها تغش السوبر ماركت وتُرسَل إلى السجن لِستة أشهر. وتُقفَلُ أبواب المدرسة المنزلية البديلة لأن زوجة صاحب العمل مارسيل، الذي يشتغل ماثيو عنده، تقول إنها استأجرته لينقل الزبالة، وليس ليدرس الأطفال عن الحيتان. وعلى الرغم من نجاحه في تسويد خطة البندول السويسرية، يظل ماكس منهكاً وساخراً.

لقد عرضت هذا الفيلم على فصولٍ مختلفة علمتها عبر السنين، وأنا مندهش دائماً لردود الأفعال الشديدة الاختلاف، والتي تتدرج من الابتهاج إلى اليأس. هل الكأس نصف ملآن أم نصف فارغ؟ بعض الطلاب يبينون أن كل التجارب فشلت، وآخرون يرون الجهود المختلفة كخطوات أولى نحو أسلوب حياةٍ مختلفة. إن الفكرة الحاسمة في الفيلم تقدمها مادلين، الفكرة التي أكدنا عليها سابقاً : وهي أن التاريخ يتحرك بشكلٍ أبطأ بكثيرمن حياة إنسانٍ بمفرده. إذا أخذت الطريقة الرهبانية، كما قلت، فلا يوجد ضمانات. يمكن أن تفتح ثقوباً للدود ربما ينظر من خلالها مؤرخٌ بعد مئتي سنة من الآن ويقول "طبعاً". وكما لاحظ نيتشة مرةً " إنها من علامات الحضارة الراقية أن تقيم وزناً للحقائق البسيطة المتواضعة " لأن هذه الحقائق هي التي تتراكم، وبالتالي تحدث الفرق (التغيير). إن الخيار الرهباني لا يتعلق بحركةٍ تتميز بالبساطة المتعمدة المفعمة بالأبَّهة، مثلاً ؛ ولا ببرنامج أو دورة كليمنت المؤسسية (لا تبتعد عن كونها مؤطرةً في إطار مؤسسةٍ مقبولةٍ اجتماعياً) ؛ ولا

ببرامج محطة الإذاعة القومية عن المسائل الروحية. إنها شيء أكثر خصوصيةً بكثير، وأقل تعمداً، وهي تتعلق بالأشياء التي تدوم.

إن موضوع المستقبل البديل هو، طبعاً، موضوعٌ مركزيٌ لنقاشنا. وعلى الرغم من كونه بالضرورة موضوعاً تأملياً إلى حدٍ بعيد، فهو قلبُ تحليلي الواسع هذا. حيث إن ما قاله ماركو عن ثقوب الدود، أو ما أعتقدُ أنه غموضٌ، أو نقاط غامضة، يبدو من المؤكد أنها صحيحة : هذا لا يعني أنه لا يوجد ضغوط، وأن المستقبل هو طيِّعٌ إلى ما لا نهاية أو أنه غير متوقع. لو كان المستقبل كذلك، لكان غذاءً عقلياً متعمداً للعصر الجديد، ولاستطعنا التخلص منه منذ البداية. ولكن فكرة نقاط الغموض في التاريخ هي لتذكيرنا أنه يوجد حتمية تاريخية تتبدى لنا فقط عندما ننظر إلى الحدث نظرةً لاحقة، أي بعد حدوثه، وأن الأشياء بالحقيقة ليست محفورةً في الصخر. إن وجود درجةٍ معينة من عدم القدرة على التوقع بما يخص التاريخ أكثر معقوليةٌ بكثير من معقولية الحتمية التاريخية الكلية، أي أن الأحداث التاريخية توجب أن تحدث كما حدثت. وهناك بعض المؤرخين الذين حاولوا عرض فهمهم للأحداث التاريخية بطريقة

"ماذا كان سيحصل لو.." كما يفصل المؤرخ البريطاني نيال فوغسون في مجموعة مقالاته التي حُررت بعنوان "التاريخ الحقيقي" ؛ ومن المثير للاهتمام أنه برز نوعٌ فرعي في قصص الخيال العلمي يدعى "التاريخ البديل" يبحث في ذلك الموضوع (ماذا كان سيحدث لو....). وهناك سلسلةٌ من الروايات التي تتخذ من النتائج التي هي عكس السجل التاريخي، نقاطاً تبتعد عندها عن هذا النوع من روايات الخيال العلمي.

ماذا كان سيحصل لو كسبت الكونفيدرالية الأمريكية (اتحاد الثلاث عشرة ولاية) الحرب الأهلية؟ ماذا كان سيحصل لو هزمت دول المحور الحلفاء؟ ماذا كان سيحصل لو أخفقت حركة الإصلاح البروتستانتية، وأصبح العالم الغربي كله كاثوليكياً. إن قيمة التأمل التاريخي المغاير للأحداث التاريخية (ما حصل فعلاً) تكمن بالضبط في اقتراح أنه بينما نستطيع أن نقول "طبعاً" بما يخص ظروفنا التاريخية، كنا سنقول " طبعاً" لسيناريو مختلف جذرياً لو حدثت الأحداث بشكلٍ مختلف. وهكذا ففي رواية "التغيير" لِكنغسلي آميس علينا أن نتأمل عالماً كاثوليكياً حيث تُطوّق فيه حرية التعبير الشخصية، ولكن الكوابح التي وضعت في هذا العالم على التطور العلمي والتكنولوجي أدت إلى عالمٍ أقل قلقاً وأكثر اتساعاً لوقت الفراغ.

في كتاب "الرجل الموجود في البرج العالي" لفيليب ديك، ربحت ألمانيا الحرب العالمية الثانية ـ "طبعاً" ـ والذي يبدو وهماً شاذاً في هذا السيناريو هو رواية سرية من النوع الذي يتحدث عن التاريخ البديل في روايات الخيال العلمي (كتبت من قبل الرجل الموجود في البرج العالي) حيث تخسر فيها ألمانيا الحرب ـ "طبعا". الفكرة هي أن النظرة اللاحقة للحدث التاريخي (بعد حدوث الواقعة التاريخية) ليست خاليةً من الخطأ بما يخص التنبؤ بحوادث المستقبل.

بالتأكيد، تتطور الانفجارات التاريخية بشكلٍ خفي عادةً، وعبر زمنٍ طويل، ولكن عندما تحدث هذه الانفجارات، يمكن أن تبدو بحيث لا يعرف من أين أتت. وبهذا المعنى فإن الطرق الرهبانية يمكن أن تبرز،

وبشكلٍ غير مفهوم، نوعاً أو شكلاً مختلفاً للعالم، عن النوع الذي تطغى عليه أنظمة وقواعد وروح الاحتكارات العابرة للأمم والشعوب. بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في العالم السابق (عالم الاحتكارات)، سيكون الشكل الجديد المختلف للعالم مسألةً عاديةً مثلما هي بالنسبة للذين يعيشون في القديم. يجب أن نتوقع غير المتوقع.

لذلك، لنترك فكرنا يتجول قليلاً ونقوم بأنواعٍ غير متوقعة من التفكير. أول شيء أريد أن أقترحه هو أن الحقب التاريخية ليست مكبَّلةً بشكلٍ له معنى بتسلسلٍ زمنيٍ موضوعي. مثلاً، بدأ القرن التاسع عشر حقيقةً مع الثورة الفرنسية في ١٧٨٩، التي مثلت القطع النهائي مع الإقطاعية والنظام القديم. وبعباراتٍ تأخذ بعين الاعتبار منظراً عاماً فكرياً وسياسياً فيه انسجام وتناسق ـ ومنظراً عاماً كان خالياً نسبياً من الحرب في العالم الغربي ـ فإن القرن التاسع عشر استمر حتى ١٩١٤، أي نحو ١٢٥ سنة. الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية، أدخلانا في عالم مختلف تماماً: عالم المرحلة النهائية للحداثة، عصر إبادة الجنس البشري، عصر القلق والخواء الروحي، عصر بيكاسو وآينشتاين وظهور الولايات المتحدة الذي لا يمكن مقاومته أو تغييره كقوة عظمى وحيدة في العالم. وبدورها، هذه المجموعة من الأحداث انتهت في ١٩٨٩، عندما بدأ القرن الواحد والعشرون بشكلٍ فعَّال. لماذا أقول هذا؟

في ١٩٨٩ وضحت معالم نوعٍ مختلفٍ للعالم عن العالم الذي ظهر في ١٩١٤. تلك السنة شهدت بداية النهاية للاتحاد السوفييتي، وللتنظيم الملائم للعالم في معسكرين متعارضين. هذا هو الشيء المركزي في ما نسميه "العولمة". لقد كان عالمنا عالماً واضح المعالم، عالم

تعارض ثنائي (ثنائي الأقطاب). لقد أصبح بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عالماً ذا قطبٍ واحد. أصبح لا مركزياً، وقد عاودت الخصومات الإقليمية الظهور، ولم يكن بالإمكان تحديد العدو بشكل لا لبس فيه وبوضوح. وهكذا فقد فقدت أمريكا مهمتها الأخلاقية المعادية للشيوعية، وملأ الفراغ بالتشتت الفكري كما تجلى هذا في : حرب قصيرة زائفة على المخدرات، الحرب على العراق، وعقد من الفضائح السياسية التافهة مقنعةً نفسها لتبدو للناس "أخباراً".

لكن مثل هذه التطورات كانت مؤقتةً فقط. المهمة الحقيقية الجديدة كانت توطيد سيطرة الاحتكارات على الكون، وقد استورد مبدأ "المصير الواضح"، القديم إلى عالم الاقتصاد لِيرسُمَ خارطةً للعالم كله. وكما قلت في الجزء الأول من هذا الكتاب، إذا كان القرن العشرون القرن الأمريكي، فإن القرن الواحد والعشرين سيكون القرن "المؤمرك"، وستكون جذوره في الاقتصاد العالمي الجديد، حيث ستكون الحضارة الاستهلاكية ديناً جديداً متكاملاً.

والعلامة الثانية لهذا التقسيم الجديد هي أنه في عام ١٩٨٩، أو بعده بقليل، بدأت تكنولوجيا الميكروبروسسينك في إعادة تعريف المنظر الفكري العام للولايات المتحدة والكثير من دول أوروبا الغربية. البريد الإليكتروني والنص الإليكتروني وشبكة المعلومات العالمية، كل ذلك ساعد على اتساع عملية "العولمة" وعلى انتشار الاحتكارات العابرة للأمم والشعوب، بعدة طرق. ومثل المرحلة النهائية للثورة العلمية والصناعية، فإن الثورة المعلوماتية بدأت تجعل ما كان يعتبر منتهى التجريد، حقائق ملموسةً. وبدأت الدولة القومية تصبح لا عقلانية ويمكن

الاستغناء عنها (لا يوجد حدود للعلوم الإليكترونية والاتصالات المتقدمة)، وأصبح المعنى أفقياً بشكلٍ متزايد. وصار ينظر للتاريخ والهوية والتأليف على أنها نتف معلومات مجردة في عالمٍ جديد ذي حاضرٍ الكتروني أبدي.

والعامل الثالث في الانتقال إلى القرن الواحد والعشرين، الانتقال من عالم معاصر إلى عالم ما بعد العالم المعاصر متداخل مع العاملين الذين سبقاه. في ١٩٨٩ كان يجري نقاش أكاديمي فرنسي سري عن العالم كنصوصٍ وغياب المعنى. وقد وصل هذا النقاش إلى الوعي الشعبي العام. وقد قامت عدمية التهديم (تأثير الاحتكارات) بممارسة دورها إلى آخر الشوط بشكلٍ جديد من الوعي اليومي لما تقوم به هذه الاحتكارات: أصبح الرئيس (رئيس الجمهورية) ، كما قلت سابقاً، نوعاً من المدير التنفيذي لإحدى الشركات الاحتكارية، دون أي مسؤوليات أخلاقية أو شخصية ؛ وأصبح الفرد، ليس بدون هوية فقط، وإنما بدون حاجة للهوية، وبإمكانه إعادة خلق ذاته باستمرار ؛ وأصبحت الخيارات على أساس ما إذا كان الشيء عملياً أو لا، ولذلك لم يكن لهذه الخيارات أي معنى حياتي أو أخلاقي (وعلى هذا كانت كلها متساوية)؛ وأخيراً ـ لنترك جانباً الأصولية الدينية مؤقتاً ـ لم تكن أي مجموعة من القيم متفوقة على أي مجموعة أخرى، لأنه لم يكن هناك شيء اسمه الحقيقة، ولذلك فكل الحقائق كانت قابلةً للتبادل، وهكذا أصبح معظم النشاط استهلاكياً غبياً.

ومع دخول المرحلة الجديدة عامها الثاني عشر في سنة ٢٠٠٠، فإن خصائصها الثلاث التي تعرَّفها ـ العولمة والعلوم الإليكترونية المتعلقة

بالمعلوماتية المتقدمة، وفلسفة ما بعد التركيبية (المذهب الأدبي القائل أن معنى النص خاضع دائماً لما يفهمه القارئ حيث أنه هو الذي يعطي النص حقيقته،فهذا النص لا يمتلك أي حقيقة بمعزلٍ عن القارئ) ـ ظهرت بمنتهى الوضوح. لقد كتب شكسبير قبل نحو أربعمائة سنة " أوه، أيها العالم الجديد الشجاع الذي فيه مثل هؤلاء الناس ".

على الرغم من عواطف أولئك الذين يمكن أن يرغبوا (بشكلٍ معقول) عكس ذلك، هذه العوامل ستظل معنا معظم القرن الجديد، وهي تمثل أيديولوجيات أمةٍ فقدت مرساتها. وبعبارات التجربة المعاشة، هذه العوامل تجعل معظم الأمريكيين قلقين وفاقدين للقدرة على التوجه، لأن هذه العوامل تقود بشكلٍ حتمي إلى حياةٍ فارغةٍ خاويةٍ دون معنى. إلا أن هذه الصورة لعصرنا لا يمكن أن تدوم، لأنه ليس مستقراً بشكلٍ واضح وانتقالي بطبيعته. يمكنك أن تتكلم عن العولمة أو العالم الجديد، وعن الواقع الحقيقي، وعن الإعلانات التجارية المطولة في عصر ما بعد الحداثة، وعن كل الذي تريده ؛ ولكن في آخر النهار، يظل هناك بالفعل عالم اجتماعي وسياسي واقتصادي ليس حقيقياً ولا يمكن تهديمه. لقد رأينا هذا عندما انهارت اقتصادات جنوب شرقي آسيا في ١٩٩٨، وبين عشيةٍ وضحاها، خرجت الطبقة الوسطى إلى الشارع تبيع الفاكهة وخيوط الأحذية. وبشكلٍ مشابه، عندما تقطع الكهرباء، وتغلق المتاجر، وتقوم القوات شبه النظامية بدورياتٍ في الشوارع لحفظ النظام، فإن كسر غطاء مفتاحٍ مائي "أمي" (الصورة هنا هي أنه في حالة الحريق، عندما تكسر الغطاء البلاستيكي لمفتاح الماء، فإنك تحرر تياراً من الماء والرذاذ كي يسقط على النيران لإطفائها)، أو قراءة جاك ديريدا، أو

الإصغاء إلى المحصول الدارج لزعماء التعليم والثقافة، سوف لا يساعد في أي شيء.

لقد حاول عدد من الباحثين أن ينظروا وراء هذه النقطة إلى القرن الواحد والعشرين، عندما تنتهي فترة العصر المظلم الانتقالية ويحل نظام عالمي جديد. وهكذا فإن ولرشتاين في كتابه "حضارة رأسمالية" يعرض ثلاثة سيناريوهات مستقبلية ممكنة (يمكن أن يحدث أي منها). السيناريو الأول هو الإقطاعية الجديدة حيث أُقلِعَ عن القيام بالتراكم اللانهائي لرأس المال من أجل رأس المال، ولكن ستُستَعادُ التنظيمات الاجتماعية الهرمية الصارمة لضمان الاستقرار السياسي.

والسيناريو الثاني هو "الفاشية الديمقراطية" حيث قُسِّمَ العالم إلى ٢٠ ٪ نخبة و ٨٠ ٪ كل واحد آخر. يقول ولرشتاين إن هذا كان رؤية هتلر أيضاً، باستثناء أنه (خلف خبث أيديولوجيته) أنشأ نخبةً صغيرةً جداً عددياً. وأخيراً السيناريو الثالث هو أنه يمكننا إيجاد عالم لا مركزي فيه نظام مساواة اجتماعية واقتصادية، على الرغم من أنه لا يقول كيف يمكن إيجاد مثل هذا العالم ـ يبدو أنه يجهل أو يتجاهل حقائق القوة. على أية حال، في ٣٠٠٠ بعد الميلاد، يقول ولرشتاين، يمكن أن نتذكر الرأسمالية، أو الفترة من ١٥٠٠ إلى ٢١٠٠، كفترةٍ انتقالية طويلة أوصلتنا إلى عالم مساواة، أو كتجربةٍ اجتماعية اقتصادية غير مستقرة بطبيعتها، حيث عاد العالم بعدها إلى أشكالٍ سياسية أكثر استقراراً.

إلا أن هناك عدداً من الإمكانيات الأخرى، وبعضها أكثر احتمالاً من الأخرى. إن أقل إمكانية احتمالاً هي السيناريو الشعبي للعصر الجديد الذي أشرت إليه في المقدمة، حيث إن مزيجاً من النشاط الصالح

القويم المتفاني والتغيير في الوعي الروحي يمكن أن يقلب الأشياء في عقدين أو ثلاثة. يمكن أن نسمي هذا "النموذج المعجزة" وهو مبني على تحقيق الرغبات، أكثر من كونه مبنياً على فهم التاريخ والعلم الاجتماعي. والسيناريو الآخر غير محتمل الحدوث هو الصورة المعاكسة المتطرفة، صورة الانهيار الكلي والسريع، الذي حدث لحضارة "المايا" مع أن دلائل الانهيار ربما ظهرت هناك قبل حدوثه بوقتٍ طويل. في الولايات المتحدة، لو حصل، سيشتمل على السقوط في بربريةٍ حقيقيةٍ، كالتي يصورها فيلم "الركض على حد النصل". هذا ممكن بالتأكيد، وربما يمكن أن يظهر بدرجةٍ ما عند نهاية القرن الواحد والعشرين لفترة قصيرة ؛ لكن يبدو لي أن الصورة العامة هي صورة انهيار بطيء وليس فجائياً، لأن هذا البلد يبدو قادرا على إدارة الأزمات بشكلٍ جيد. أعني أنها تميل للتعامل مع المشكلات الخطرة في الساعة الحادية عشر، متجنبةً الكارثة، على الرغم من عدم إنجازها لأشياء كثيرة أخرى. يمكن أن نسمي هذا خيار "التشوش" أو "اللخبطة الذهنية المطبقة "، حيث يظل الهدف الأساسي عائماً. يمكن أن نتجنب المجاعة بتصنيع الطعام من الأعشاب البحرية، مثلاً، ويمكن أن نتجنب الانتحار الجماعي بتوزيع عقّار "البروزاك" مثلاً. إن ما نقوم به الآن فعلياً هو "اللخبطة الذهنية" ولكن لا يمكن أن نتوقع القيام به إلى الأبد.

هناك إمكانية أخرى، كان قد اقترحها المؤرخ ورن واغنر في كتابه "تاريخ قصير للمستقبل" وهو قيام حكومة عالمية على الطراز الشيوعي، كنتيجةٍ لانهيار الرأسمالية. ولكن يبدو هذا قديماً بعض الشيء ؛ لأن مناطق النفوذ، لنقل في ثلاثة تحالفات سياسية رئيسة تبدو أكثر

احتمالاً. لكن الفكرة هي أن القوة الوحيدة التي يمكن أن تجعل العالم مستقراً هي ذلك بالضبط، نظام عالمي موحد ذو سلطة. يمكن أن نُجَرَّ إلى مثل هذا النظام أكثر من أن نقوم بتنظيمه عن عمد، بشكلٍ أو بآخر. وبقدر ما أكره معاداتهم للسامية، ونظرتهم القائلة بتميز وسيادة العرق الأبيض، وفاشيتهم السرية فهم محقون بشكلٍ ما : يوماً بعد يوم تقوم الحكومة بتجميع معلوماتٍ عنا جميعاً وتدخلها في الحاسوب ـ معلومات مهمة مثل السجلات الطبية، والدخل، والعادات الاستهلاكية، والسجلات المتعلقة بالجريمة، والسجلات السيكولوجية.... إلخ. وتضع الحكومة هذه المعلومات كلها تحت رقم الضمان الاجتماعي. وكما رأينا سابقاً، فإن النتيجة المنطقية لكل هذا تصفها لنا إيرا ليفن في كتابها "هذا اليوم التام" حيث مجتمع من المواطنين يُعطَونَ مهدِّئات كيميائية، ويخضعون للحاسوب، ويحافظ على استمرار وسهولة انقيادهم مجموعة صغيرة من النخبة التكنولوجية. هذا النموذج يمكن أن يطبق على مناطق النفوذ المشار إليها آنفاً، حيث تُقسَّمُ الكرة الأرضية إلى كتلٍ جيوسياسية (أمريكا الشمالية، آوروبا، إطار المحيط الهادي) تدير الكرة مع بعضها على نموذج سنغافورة وتسيطر على الجماهير من خلال تنظيماتٍ كالشرطة الدولية (الإنتربول).

سيكون هذا بالتأكيد رعباً، ويمكن أن يظل مستقراً بشكلٍ دائم، عند الأخذ بعين الاعتبار مستوى القوة العسكرية التي وضعتها الطبقة الحاكمة في يدها وفي يد تابعيها التكنوقراطيين والإداريين. أعتقد أن هذا شبيه جداً بسيناريو ولرشتاين "الفاشية الديمقراطية". وفي خطة واغنر يصبح هذا أخيراً بيروقراطياً وخانقاً وثقيل القمة لدرجة أنه سينكسر

كنتيجةٍ للثورات المستمرة، وسيؤدي ذلك إلى خيار ولرشتاين الثالث، عالم لا مركزي فيه نظام مساواة اجتماعية واقتصادية ـ الذي يسميه واغنر "منزل الكرة الأرضية" (عملياً هذا هو الخيار الأخضر). لذلك سيكون لدينا كويبك، كارولاينا الشمالية والجنوبية، سكوتلاندا، ألزاس... إلخ كلها كيانات سياسية منفصلة.

طبعاً، التنازل عن السلطة والبلقنة يمكن أن يأخذا عدة أشكالٍ، بما فيها شكل الإقطاعية الجديدة التي وصفها ولرشتاين. يمكن للمرء أن يتخيل عالم موزاييك من الخيار الأخضر، وخيار المساواة الاجتماعية والاقتصادية، والتناسق الجغرافي البيولوجي (الحيوي)، أو عالماً مثل عالم إيطاليا في القرون الوسطى، عالم مجموعةٍ فوضوية من الدول المتحاربة. هذه الدويلات الصغيرة يمكن أن تكون دويلات قهر واضطهاد مثل أي نظامٍ شموليٍ آخر.

ويمكننا أيضاً التفكير بإمكانية ما يمكن تسميته "النموذج الهيليني المبني تاريخياً على ازدهار الحضارة اليونانية عبر حوض المتوسط وشرقه من ٣٣٠ - ٣٠ ق. م. ويمكن أن نوسع هذا الخيار الهيليني حتى القرن الثاني بعد الميلاد عندما حلت روما محل اليونان في هذه المنطقة وبدأت الحضارتان بالإمتزاج. وعلى الرغم من الكتابات الرجعية التي حسنت الصورة بدرجةٍ ما، فإن العالم الإغريقي الروماني للأسكندرية كان يُنظَرُ إليه تقليدياً كفرن صهر، كحضارة متنوعة الصور والثقافات وكونية وراقية. ويبدو هذا كوضع عالم واحد، لأن كل شيءٍ كان موجوداً تحت راية اليونان وماكدونيا، أو في ما بعد، تحت مظلة مجلس الشيوخ الشعبي للإمبراطورية الرومانية. لقد كانت في الحقيقة تركيباً غنياً

معقداً من التقاليد الفكرية الإغريقية والتقاليد الفكرية لمنطقة الشرق الأدنى القديم وأساليب حياتها. وبسبب هذا المزيج الخلاق، فقد شهد القرنان الأوليان بعد الميلاد نهضةً حضاريةً عظيمةً في مدن اليونان والشرق الأدنى، عندما ظهرت الأعمال الأدبية في كل الأجناس، وقد ازدهرت الهندسة وهندسة العمارة والفنون التشكيلية.

وقد حصل انقلاب في العلم والفلسفة على يد غالين وبطليموس، وفي القرن الثالث، على يد بلوتينوس (أفلوطين). ووراء واجهة الوحدة الإغريقية، وفيما بعد الرومانية، كان يوجد قالب متعدد الألوان والصور والأشكال من الطوائف الدينية والسياسية. فروما مثلا لم تبال بما كانت تعمله هذه الطوائف الفرعية طالما كانت تقوم بذلك بشكلٍ خاص وتقدم الخدمة الإسمية للسلطة الرومانية، وإذا لم تفعل هذه الطوائف ذلك ـ يهود فلسطين ربما هم أفضل مثال ـ فإن الدولة تتحرك ضدها وتمحقها. ولكنها إذا كانت راغبةً في إعطاء القيصر ما لقيصر، فتعتبرها السلطة الرومانية غير مؤذيةٍ، وتسمح لها بممارسة أساليب حياتها المختلفة.

وإلى حدٍ ما، هذا هو الوضع لدينا الآن في أمريكا الشمالية، باستثناء أن الضغط الاقتصادي والاجتماعي من أجل الطاعة والامتثال والتكيف هو ضغط شديد يجعل من الصعوبة بمكان تعزيز وتقوية أي نشاطٍ رهباني أو بوهيميٍ. إن الحضارة الطاغية في الغرب منتشرةٌ في كل مكان وكل شيء؛ ونحن لا نملك بالحقيقة التسامح النسبي للعالم الهيليني، ويشق الهامشيون، أو الشواذ، أو الذين ليسوا في الاتجاه الاجتماعي العام، طريقهم إلى الوجود والاعتراف الاجتماعي كنموذجٍ من التجربة الفنية، أو التجربة الفكرية، أو كأسلوب حياة، بصعوبةٍ بالغة.

ولكن عدم التسامح هذا يمكن أن يجعل النشاط الرهباني ذا تأثيرٍ أكثر جذريةً وحدة، لأن رفض عدم التسامح هذا لنسختنا الخاصة من مجلس الشيوخ الشعبي ـ الخمسمئة شخص التي سمَّتهم مجلة فورتشن ـ التي هي سلطة الاحتكارت وأسلوب الحياة التجارية الاستهلاكية، يمكن أن يجعل البناء (النظام الرأسمالي) يتآكل من الداخل، وأن يدفعه باتجاهٍ هيليني. وربما سيكون هذا الحصيلة المثالية للنشاط الرهباني، ولكنني لا أستطيع إلا أن أعتقد أن هذا النموذج سوف لا يكون أسوأ مستقبل ممكن للعالم الغربي، على الأقل لبعض الوقت.

وأخيراً نأتي إلى المثال المتأرجح، مثال التفكك أو الانحطاط والنهضة المتزامنين، النموذج الذي أستحسنه. (في الحقيقة إن هذا النموذج هو ما وراء النموذج وهو نموذجُ بنفس الوقت، لأنه يمكن أن يضم كل السيناريوهات التي تكلمنا عنها حتى الآن). في هذا السيناريو سيكون للنشاط الرهباني أكبر الأثر. الفكرة هنا، كما هو في حالة أوروبا الغربية في القرن الثاني عشر، هي التقاء أو اجتماع عدة عوامل غير متوقعة، عرضية وبطيئة ـ واحد من هذه العوامل هو الاحتفاظ والنقل الرهباني (الاحتفاظ بما هو قيم في الحضارة الرأسمالية الاحتكارية ونقله للأجيال اللاحقة) ـ الذي يخلق نتيجةً ذات طاقةٍ كبيرة وغير متوقعة. هذا هو الذي يعنيه "التاريخ البديل"، لكن هنا يبرز السؤال ماذا لو؟ (ماذا كان سيحدث لو...) مطروحاً في المستقبل وليس في الماضي.

وكما هو الحال في "يوتوبيستكس" ولرشتاين هناك أوجه شبه مع نظرية "الفوضى"، حيث إن التقلبات الصغيرة يمكن أن يكون لها عواقب

غير متوقعة. أنا لست متأكداً مما ستتألف العوامل الأخرى، وهذا ليس مسألة بسيطة. نحن نعرفها بالنسبة للقرن الثاني عشر. لكننا نستطيع فقط أن نخمن ما يمكن أن تكون بالنسبة للقرن الواحد والعشرين. ولو فكرنا للحظة بالخيار الرهباني فقط دون العوامل الأخرى، فإن في هذا السيناريو أفلام مايكل مور (مع برنامج ديفيد بارساميان الإذاعي... إلخ.) التي تؤدي إلى السخرية من الحياة في ظل الاحتكارات، هذه الحياة التي يرفض أن يعيشها ملايين الشباب، وحيث يصبح نشاط الأعمال ليس طرازاً قديماً من الماضي ـ لو أصبح كذلك فسيكون مستحيلاً وغير مرغوب فيه ـ ولكن سيصبح نشاط الأعمال هذا شيئاً لا يرغب المرء أن ينظم حياته على أساسه. إن بارجة أولغا بلوم تؤدي إلى مئات آلاف الوظائف المدفوعة الأجر في مجال الموسيقى. ومجلة ول فيتجو تخلق رغبةً واسعة الانتشار لإبداع عملٍ فكري. ومثال برنامج أو دورة كليمنت يدفع الناس لأن يقرؤوا جين أوستن، لا إن يقضوا حياتهم في تصفح مواقع الإنترنت. هل هذا كله خيال جامح؟ ربما، لكن شيئاً مثل هذا حدث في القرن الثاني عشر كما رأينا في الجزء الثاني. إنني أتكلم عن تغيراتٍ صغيرةٍ تتراكم مع الزمن.

ومن المهم أن نتذكر أنه حتى لو لم يكن النشاط الرهباني شرطاً كافياً لظهور كل هذا، فإنه مع ذلك شرط ضروري. هذه هي النتيجة المثالية لمثل هذا النشاط، إنه بالاجتماع غير المتوقع لعوامل مختلفةٍ نستطيع استعادة عصر التنوير، ولكن طبعاً بشكلٍ معدل، هو شكل بعد ما بعد الحداثة.

وللنكتة فقط، لنقل إن هذا يحدث فعلياً. ما هي إذن الخصائص المميزة للتنوير الجديد؟ ربما من الأفضل أن نعيد النظر في خصائص

التنوير القديم الذي حصل في القرن الثاني عشر وما بعده. طبعاً هناك العديد من الخصائص؛ وقد كتب آلاف الكتب حول هذا الموضوع. لكن ربما الفكرة الرئيسة، حسب المؤرخ الإسكوتلاندي ديفيد دايكس،

هي التحسن. نحن نعرف الآن بشكلٍ أفضل، حسبما اعتقد ؛ إن نظريةً نوسية للتاريخ (حركة النَّواس، البندول، بين نقطتين) لا يمكن أن تضم مفهوم التحسن غير المحدود، وسوف أتكلم أكثر عن الخاصية الانعكاسية لمعرفتنا المعاصرة. ولكن بما يتعلق بالقرن الثامن عشر، فقد كان هذا عصر تفاؤل، لأنني أعتقد أن معرفة العالم الطبيعي والفرد والمجتمع سوف يحسن الثلاثة حتماً.

لم تكن هذه المعرفة معرفةً فقط من أجل المعرفة. ولم تكن نفعيةً أيضاً. على العكس، لقد اعتقد فلاسفة التنوير أن البحث اللامحدود والمحايد في الثلاثة مجالات سيؤدي بشكلٍ طبيعي ٍ إلى الذي سماه فرانسيس بيكون ' راحة منزلة الإنسان '. وعندما يفكر المرء بنهضة، أو بعصر تنويرٍ جديد، فمن الواضح أن هذه النهضة لا يمكن أن تكون تكراراً بسيطاً للقرن الثامن عشر. لقد حدث الكثير بين ذاك الوقت والآن، ويختلف الكثير من حاجاتنا الآن عن حاجات ذلك الزمن. أتخيل، ثانيةً، طبقةً وسطى نابضةً بالحياة، استمراريةً قويةً لتقاليد تنويريةٍ للديمقراطية، وبحثاً فكرياً واسعاً، وحضارةً حيث العلوم والفنون والأدب يؤدون دوراً مركزياً في حياة نسبةٍ كبيرةٍ من الناس. أتخيل أيضاً حضارةً ذات قيم إنسانية حيث الأعمال وتكنولوجيا الإتصالات وعلوم الفضاء تؤدي دوراً مساعداً. سيعتبر عالم التجارة وأماكن عرض الفيديو في عصر التنوير الجديد، أدواتٍ للحياة التي تليق بالإنسان. وطبقاً لهذا، فإن

الاحتكارات ستوجد على نطاقٍ أضيق بكثير مما هو الآن، وسيكون تأثيرها أقل. بالفعل لا يمكن أن تكون الصورة بشكلٍ مغاير، لأنه بعد الانهيار الكبير في أواخر القرن الواحد والعشرين، سيصبح واضحاً لكل واحد أن سيطرة الاحتكارات على حياتنا كانت تدبيراً ساماً، وكانت أخيراً مسؤولةً عن هذا الانهيار الحضاري، وأننا الآن، خلال فترة إعادة البناء، يجب أن نتجنب هذه السيطرة مهما كانت التكاليف. ومرافقاً لهذا، سيكون هناك توازن صحي أكثر بين الحضارة العالمية والحضارة المحلية، ذلك لأن عالم طالماك ورلد" عالم الاحتكارات، واستعمار الكوكا كولا للكرة الأرضية سيكونان شيئين من الماضي.

لكنني لا أدعي أن هذه التغيرات ستحدث كنتيجةٍ لوعي جديد أو لتعلق بالقيم الروحية، أو لشكلٍ ما من النشاط الشعبي الإرادي. بالتأكيد يجب أن يكون هناك تغير في وجهة النظر بما يخص الكثير من الأشياء، وبالتأكيد على الناس أن يتصرفوا بطرقٍ مقصودة. ولكن الدافع وراء هذه التغيرات سيكون ضخامة الانهيار الكبير، الذي سيعمل كاتصال هاتف للإيقاظ على نطاق غير مسبوق. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاحتكارات العابرة للأمم والشعوب وسيطرتها وإشباعها للبيئة بكل أنواع الأذى، كل ذلك سوف لا يكون ممكناً لأن الاحتكارات ستكون في حالة خرابٍ مالي، وسوف لا يكون لديها الموارد التي كانت موجودةً من أجلها، لتحدث أذى كبيراً. وفي مثل هذا الجو سوف لا تبدو القيم الرهبانية غريبةً، ولا هامشية.

إذا كان القرن الثاني والعشرون سيجلب معه عودة إلى قيم التنوير، فلن يكون ذلك بمعنى الدوران دورة كاملة. وكما قلت، لقد حدث الكثير

منذ القرن الثامن عشر. إن هذه العودة ستشابه حركةً حلزونية، متضمنةً بعض المثل التنويرية، لكنها امتصت وعياً كافياً ليدفعها إلى مستوى أعلى. والكثير مما ستكون قد امتصته هو المساهمة الإيجابية في انقضاض ما بعد الحداثة (في بدء مرحلة ما بعد الحداثة) . لا نستطيع أن نخرج على المسرح تجديداً بسيطاً للتنوير، لأننا لو عرفنا قوة التنوير على النطاق العالمي، لعرفنا حدوده. إن الرؤية التنويرية للتحسن غير المحدود وإمكانية الحصول على معرفة كلية للعالم لم تعد جديرة بالثقة. وفكرة أن المعرفة سَتوحَّدُ يوماً ما في عدة مبادئ أساسية ؛ وأننا سنستطيع كنتيجةٍ لهذا التوحيد، أن نفهم بشكلٍ تام، ما الذي يحرك الأفراد والجماعات، وعلى أساس هذه المعرفة، نستطيع أن نخلق حياةً أفضل ـ تلك الفكرة لم تعد معقولة أو مقبولة. أولئك الذين عاشوا أثناء التنوير اعتقدوا أن بإمكاننا معرفة كل شيء. وأخطأ محدثو ما بعد المعاصرة أو الحداثة في الاعتقاد بعدم إمكانية معرفة أي شيء.بينما الحقيقة، بالتأكيد، هي أننا نستطيع أن نعرف بعض الأشياء، وأن تلك المعرفة جديرةٌ بأن نحصل عليها.

ومن هنا، فإن حصول انفراج في العلاقات بين التنويريين ومحدثي ما بعد الحداثة ممكن. إن مساهمة محدثي ما بعد الحداثة للفلسفة الغربية هي مسألة أثيرت من قبل (وإن لم تكن بهذا الخبث): هناك ميزة انعكاس لكيفية تحصيلنا للمعرفة. وعندما نكتشف الحقيقة بما يخص شيئا ما، هناك عنصر ذاتي نطبع به هذه الحقيقة التي اكتشفناها، لذلك علينا أن نحافظ على وعينا لأنفسنا أننا باحثون عن الحقيقة. لدينا أجندات (ليس بالضرورة أجندات سياسية) في سعينا لمعرفة الحقيقة،

وهذا سوف يثير السؤال دائما ' إلى أي درجة هذه الحقيقة التي اكتشفناها هي حقيقية أو صحيحة؟ ' ويجب أن نتذكر أن الكثير مما نعرفه هو مشروط حضارياً وزمنياً (أي أن الحقيقة دائماً نسبية). المسألة هي أن نبحث عن الحقيقة بكل التفاؤل وتقدير العقل الذين حركا عصر التنوير، وفي نفس الوقت أن نكون راغبين في إضفاء مسحةٍ من ما بعد المعاصرة على هذا البحث: العارف هو جزء من الذي عُرِفَ، والمعرفة هي مشروطة. أنا أبحث عن الحقيقة وأنا مدرك لنفسي أنني نتاج حضارةٍ ما. ولنفرض أن حركة ما بعد المعاصرة أو الحداثة (عملية حفظ ما يجب أن يحفظ من الحضارة الرأسمالية ونقله للأجيال اللاحقة من أجل القيام بتجديدٍ حضاري وإنساني فيه مساواة اقتصادية واجتماعية وبناء مجتمع ديمقراطي يعيش فيه الأفراد بأسلوب حياة جديرةٍ بالإنسان لأنه بعيد عن حضارة الاحتكارات وأسلوب الحياة التجاري الاستهلاكي) فسدت بسرعة وتحولت إلى تبجح نرجسي فظيع ؛ ولكن بمعالجة حركة ما بعد المعاصرة هذه بقيم التنوير ربما نجعل رجال التنوير الجديد متواضعين في موقفهم الثابت من طبيعة الحقيقة.

يقترح ي. أو. ويلسون في كتابه "كونسيليانس" اتِّباع التجربة العملية كفلسفةٍ في الحياة. أعتقد أن حكم التجربة العملية سيكون مفيداً للتنوير الجديد إلى درجة أن "المواقف الفلسفية تربك وتقفل الأبواب في وجه استمرار البحث. وهذه المواقف يحتمل أن تكون خاطئةً". هذا يصف حركة ما بعد المعاصرة بشكلٍ دقيق. لكن ويلسون يقر أنه لا يمكن نفي أو إحالة حكم التجربة العملية هذا إلى حجرة التاريخ لتكون بجانب كل ما يثير الفضول وحب الاستطلاع مثل الصوفية والتسامي

المثـالي". لأن النصـوص هي غـالبـاً غـيـر مـحـددة، ووجـهـات النظر والتـفسيـرات المتعـددة هي غـالبـاً ممكنة. إن حركة مـا بعـد المعـاصرة أو الحداثة ضـد الأشكال الثـابتـة سيـتـرك أخيـراً تركـة إيجـابيـة: احـذروا الأشكال الثابتة.

لذلك سيكون التفكير الاستبطاني جزءاً من التنوير الجديد. أعتقد أنه متناسب مع النظرة الرهبانيـة البدوية للحيـاة. يقول إيرنست بيكر في مقالته "طيف الشعور بالعزلة" إن النظرة الرهبانيـة للحيـاة هي نوع من المصير للجنس البشري، حيث يرى الفرد بالاستبطان تكوينه الحضاري الثقافي، ويرفض أن يُساقَ بشكلٍ أعمى من قبل البرنامج البطولي لأي قوةٍ وإنجاز. وفي نقطة التحرر هذه من تكييف الحضارة له، يواجه الفرد مشكلة المعنى في الحياة وجها لوجه، ويمكن ألا يجد جواباً آمناً يمكن أن يُستدرَجَ لأن يسأل مثل بيكر "ما هي أنواع النظم الاجتماعية التي يمكن أن نبدأ في تخيلها ؟" حيث إن شعور الإنسان بالوحدة أثناء إضفاء شخصية مميزة لنفسه يمكن أن يعتبر هدفاً مرغوباً فيه لتطوير حياته الشخصية. وكنتيجةٍ لهذا، يضيف بيكر، "يجب على الإنسان أن يعيش الحياة كنوع من علامة الاستفهام، حيث يمكنه عند هذه النقطة أن يتكلم عن وعيٍ دينيٍ موثوق من أجل زماننا ". ولهذا فإن الخيار الرهباني هو ديني ودنيـوي. إنه، برأيي، يجـمع بين بحث التنوير، أو بحث عـصـر الأنوار عن الحقيقة مع عدم تحصيلٍ جوهريٍ للمعرفة. ويبين بيكر أن هذه المعضلة هي السبب الكامن وراء اعتبار عالم الاجتماع الألماني ماكس هوركهايمر (أنظر الجزء الثالث) لمستوى وعي "مجتمعات المنبوذين" المستوى الصحيح للوعي بالنسبة للإنسان المعاصر.

إلا أنه تبقى مسألة إمكانية أن تصبح "النخبوية الصحيحة" الشيء الذي يجب أن نبدأ حقيقةً بالإشارة إليه على أنه النوعية الجيدة ـ ديمقراطية لم تُدَمَّر. كم عدد الذين يمكن أن يهربوا من التكييف الحضاري؟ كم تتوقع حجم "مجتمعات المنبوذين هذه؟ كان هذا هو النقاش في المقدمة والذي يقودني إلى المسألة الأخيرة التي يجب أن أتكلم عنها وهي قضية القوة. مالم يتقاطع الجنس البشري بشكلٍ حقيقي مع نزعته في مرحلة ما بعد الصيد وجمع الثمار للتعامل مع خوفه عن طريق إمساكه بالقوة، فإن مجتمع ما بعد الانهيار الحضاري الكبير الذي وصفته ربما لا يصل إلى أي شيء أكثر من تمنيات. بالتأكيد يظل بإمكاننا الوصول إلى تنويرٍ جديد، ولكن فقط في إطار تنظيمٍ اجتماعي هرمي، أو، في أحسن الأحوال، يمكننا الوصول إلى النموذج الهيلينستي المذكور سابقا. على أن أعترف أنني لست متحمساً لأي من هذه الإمكانات. إذن لأختم هذا النقاش ببعض الكلمات عن القوة وعلاقاتها بالوضع الإنساني.

لقد آمن روسو أن عدم المساواة الاجتماعية ـ التي هي مشكلة القوة ـ هي من مميزات الحضارة الإنسانية (حضارة الإنسان). نحن نعرف الآن أن روسو كان مخطئاً. ولكنه مخطئ بشكلٍ جزئي. فبسبب طفولة الإنسان الطويلة (اعتماده الكامل على أبويه من أجل الاستمرار في الحياة) والصورة أو الهيئة الإنسانية للذات الإنسانية، والتي هي الانفصال الآخر ـ على اعتبار أن الانفصال الأول هو خروجه من بطن أمه ـ الذي يبدأ عادةً في السنة الثالثة من العمر، فإن إرادة القوة هي جزء من تكوينه السيكولوجي والبيولوجي (النفسي والحيوي)، ولكن إرادة

القوة هذه تميل لأن يُطلَقَ عنانها في طور الحضارة أكثر من طور الصيد وجمع الثمار. وفي وصف أنثروبولوجي ذكي في كتابه "مجتمع ضد الدولة" يقول بيير كلاستر إن لحضارات الصيد وجمع الثمار طريقة معقدة ومتناقضة في لجم إرادة القوة. وقد ناقشت هذا الشيء بإسهاب في عملٍ آخر "إله متجول" ولا أستطيع تكرار هذا الشيء هنا لطوله. لكن يكفي القول إن العودة إلى حياة الصيد وجمع الثمار، الملأى بآلياتٍ معقدة، من أجل المساواة الاجتماعية، ليس ممكناً. وهذا يثير تساؤل ما الذي سيساعدنا في خلق المساواة الاجتماعية؟ في كتابه "طريق قصير للمستقبل" يعرض واغنر سيناريو برمجة البشر بالغيرية ونقص الاهتمام بالقوة بواسطة الهندسة الوراثية لخلق سلالة جديدة. ويزعم أنه سوف لا ينجح أي دين ولا أي مبدأ روحي في برمجة الإنسان بهذا الشكل. على العكس، وعلى غرار ما جاء في كتاب أنتوني بارغيس "أي كلوك ورك أورينج" يتوجب أن نغزو الشخصية بشكلٍ علميٍ لنحدث تغييرات جذرية إلى هذا الحد.

ويعالج إيرا ليفن نفس المسألة قائلاً إن العصاة أو الثوار، بشكل نموذجي، يريدون أن يقلبوا نخبة القوة فقط ليصبحوا أنفسهم النخبة الجديدة. إن ما يجعل الشخصية الرئيسة في الرواية بطلاً ومضاداً للبطولة (تشب) مختلفاً عن كل الآخرين هو محاولته استبدال القوى الموجودة وإلغاء القوة كقوة. هذه بالتأكيد رؤية طوباوية للحضارة، لأنه من غير المحتمل أن يكون أكثر من حفنة من الناس فقط "مجتمعات المنبوذين" وإلا فهم سيبدأون ألعاب القوة في داخل هذه المجتمعات. (ومن هنا عبارة جيل دولوز "فاشية الطليعة المتناهية الصغر"). إن

سياسة بمثل هذا الورع ستخلق فراغاً من القوة، ويمكن أن يُملأ هذا الفراغ من قبل أسوأ عناصر المجتمع. إن الأشخاص الرهبانيين الجدد، بغض النظر عن الهندسة الوراثية، سيظلون توابل المجتمع، وليس اللحم والبطاطا.

وهذا يقودنا إلى سيناريو بديلٍ آخر، سيناريو لست مسروراً لأنني سأعرضه، ولكنه يبرز كإمكانيةٍ حقيقيةٍ: إنه رؤية مارج بيرسي لمجتمعٍ من ثلاثة صفوف في روايتها المستقبلية -هو، وهي وهو أو هي لغير العاقل- وكما هو الحال في سيناريو واغنر، التغيير ممكن، حسب بيرسي، "بسبب رؤية تنبؤية" فقط: والتي هي، مرةً أُخرى، حربٌ نووية. ولكن بينما صَوَّر واغنر تقدماً من تشكيلةٍ اشتراكية لعالم واحد إلى عالم فيه مساواة ولا مركزيٍ (جُعِلَ أخيراً ممكناً عن طريق الهندسة الوراثية)، فإن رؤية بيرسي هي أن الاحتكارات تستطيع إعادة تشكيل نفسها، وتقسيم الولايات المتحدة بعد ذلك إلى نخبةٍ تكنولوجية صغيرة وذات سلوك جيد، وجماهير عريضة من الناس يعيشون في مدينةٍ كبيرةٍ جداً وغير صحية وفوضوية وفقيرة تسمى "غلوب" لكن هناك استثناءً واحداً ـ مجتمع صغير من الثوار الرهبانيين يُسَمَّونَ تيكفا (الكلمة العبرية للأمل)، الذين يعيشون على هدي أنظمتهم، فمن جهةٍ لا يخضعون إلى جدب الحياة في ظل الاحتكارات، ومن جهة أخرى، لا إلى الشقاء الفوضوي الذي تعيش به الجماهير في الـ "غلوب". هؤلاء الثوار يعيشون حياةً فيها معنى وإدراك للذات، ويمكن أن يكونوا حملة ما أسميه حركة "التنوير الجديد". ورقتهم الرابحة ـ أقصد السبب الذي يجعل الاحتكارات لا تجتاحهم أو تدمرهم ـ هو أنهم عبارة عن عباقرة برمجيات، ينتجون برامج ثورية تمكِّنهم من حماية أنفسهم.

وهكذا، في هذا السيناريو لدينا نهضة، لدينا حفظ ونقل لحضارة التنوير، ولكنه حفظ ونقل إلى قلةٍ مختارةٍ فقط، حيث لا يوجد أي أثرٍ لهذه القلة على الحضارة. وهكذا فإن رؤية بيرسي هي رؤية مجالٍ وحيدٍ للفكر في عالمٍ يسبب الإكتئاب. يمكن أن يكون ما سيبدو عليه القرن الثاني والعشرون، وربما هو نموذج محتمل كأيٍ من النماذج الأخرى في هذا الجزء؛ ولكن بتعابير المجتمع الأكبر، سيكون نوعاً محدوداً من النهضة.

وبعد هذا الاستعراض، أعتقد أن أمامنا سلسلة لا بأس بها من الإمكانيات. في الحضارة نفسها ،على الأقل، ربما هذه هي معظم الاختيارات الأساسية المتوفرة لنا، على الرغم من أن المرء لا يمكن أن يعرف بشكلٍ أكيد. وبعد هذا القول، دعونا نتذكر أن الخيار الرهباني ليس عن هذه النتائج السياسية الكبيرة. لقد راجعت هذه الإمكانيات لأعطي القارئ معنىً ما لما يمكن أن يقترحه هذا التحليل الكبير. العديد منا يريد أن يحدق في الأفق التالي، ليرى كيف ستصبح الصورة. ولكن في المطاف الأخير، يجب ألا نقلق كثيراً على الصورة الأكبر، لأننا لا نستطيع أن نسيطر على المستقبل؛ وحتى لو استطعنا، مع الأخذ بعين الاعتبار وجود الإطار العام المتأرجح بحركةٍ نوسية، إن الحضارة ربما محكوم عليها أن تعيش ضمن هذا الإطار، وهيأتها البعيدة المدى ستكون ما ستكون عليه، مع تقلباتٍ من النور والظلمة على مدى فتراتٍ طويلة من الزمن.

هذا ليس بالتأكيد رأي التنوير لتاريخ الجنس البشري، ولكن ربما يكون واحداً من الأشياء التي نعرفها الآن، والتي لم نعرفها آنئذ. ويعبر الفيلسوف البريطاني ستيوارت هامبشير عن هذا بشكلٍ أفضل مما

أستطيع :" إذا استبعدنا الإدعاءات ما وراء الطبيعية عن مقاصد الخالق، لا يبقى سبب تجريبي كافٍ للاعتقاد بأن هناك شيئا مثل التطور التاريخي للجنس البشري ككل... الذي نراه في التاريخ هو التأخر والتقدم لشعوبٍ مختلفة في مراحل مختلفة من التطور الاجتماعي، متداخلةً مع بعضها، وغير مبدية خطأً عاماً من التطور. وباستعمال التصنيفات التاريخية الأقدم، نستطيع أن نتكلم بشكلٍ معقول عن شعوب تزدهر وتصبح قوية في مرحلة ما ثم تسقط في الانحطاط وتضعف، ويستطيع المؤرخون بدرجة معقولة أن يبحثوا عن بعض الأسباب العامة لهذا النهوض والسقوط.

وحتى لو أمكن اكتشاف بعض هذه الأسباب العامة، فإنها سوف لا تشير منفردة إلى مصير، ونظام تطور الجنس البشري كافة ".

وهذه نهاية قصتنا، والإمكانيات الصغيرة والكبيرة، للخيار الرهباني في القرن الواحد والعشرين. إنني أترك للقارئ أن يقرر ما إذا كان الكأس نصف ملآن أو نصف فارغ، أو حتى إذا كان ذاك له أهمية. لأن راهب القرن الواحد والعشرين سوف لا يقوم بنشاطه أو نشاطها من أجل نتائج كبيرة وبطولية، ولكن من أجل الإحساس بالجدارة والمعنى الذين يحتويهما هذا النشاط. إن هذا العمل يمكن أن يقود إلى مكانٍ ما؛ ومكن ألا يفعل. وظيفتنا هي أن نحاول أفضل ما عندنا. وقد عبر عن هذا ليو ويلش، وهو شاعر من شعراء سان فرانسيسكو الذين يُسمَّونَ "البيت بويتس" :

ما هو السرور الغريب الذي ينتاب أولئك الذين
يبيدون عوالم كاملة
هل هناك شيء ما
لننهي حياتنا
خمولنا الوحشي
ولكن لدينا تعويذات ضد غضب أولئك الناس ـ
يجب أن نستمر في القول ، " انظروا
إن لم يحاول أحد أن يعيش بهذه الطريقة ،
سيكون كل عمل العالم عبثاً .
ويسمع هذا القول ، بين وقتٍ وآخر ابن ، أو ابنة
وبين فترةٍ وأخرى ، يموت ابن ، أو ابنة

وكما قال واحد من الآباء الكويكرز مرة "دع حياتك تتكلم". في النهاية هذا هو الشيء الذي له قيمة بالفعل.